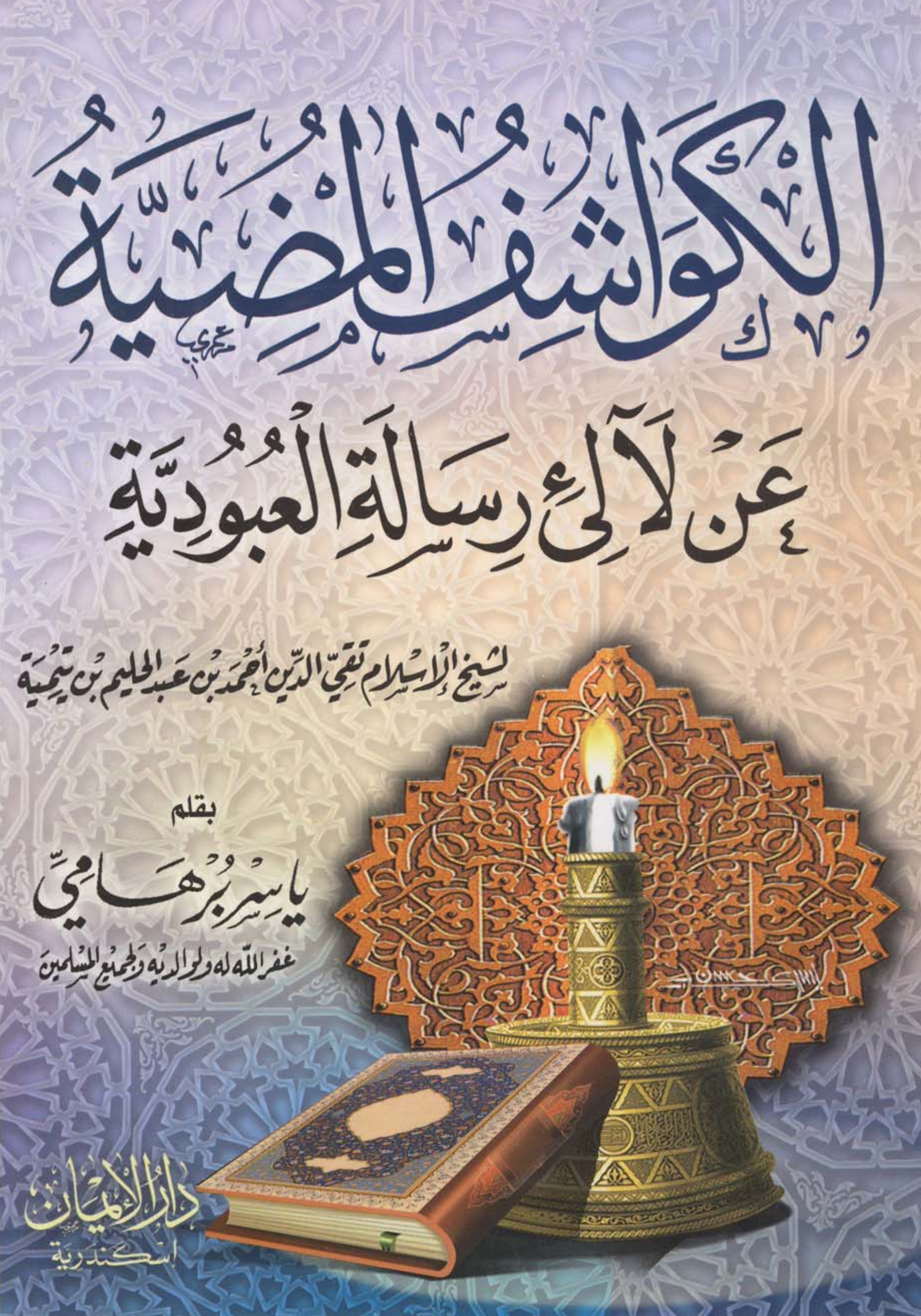

الكواشف المضية
عن لآلئ رسالة العبودية
لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية
بقلم
ياسر برهامي
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين
دار الإيمان
إسكندرية

الكواشف المضية

عن لآلئ رسالة العبودية

الكواشف المضية

عن لآلئ رسالة العبودية

لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية

بقلم

ياسر برهامي

غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
اسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩




بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة

الحمد لله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ﷺ .

أما بعد :

فإن الله تعالى قد وعدَ بحفظ الذِّكر الذي أنزله فقال : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر :٩] ، فهو محفوظ لفظًا ومعنى ، وأخبر النبي ﷺ أنه لا تزال طائفة من أُمَّته على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم إلى يوم القيامة وهم الجماعة ، وهم من كانوا على مثل ما كان علي هو وأصحابه ، فبقاء الأُمَّة مرتبط ببقاء هذا المنهج الحق الصافي النقي الذي نزل من عند الله ، تحيى به القلوب ، وتنشرح به الصدور ، وتستنير به البصائر ، وتزكو به النفوس ، ويُمَكِّن الله به للأُمَّة ، وينصرها على أعدائها، فحاجة الأُمَّة إلى وضوح هذا المنهج حاجة ضرورية، وصحة سيرها مرتبط بانتشاره فيها ، وتربية أجيالها عليه .

وقد قيض الله للحق رجالاً عبر التاريخ ينفون عنه تحريف الغالين ويردون عنه تأويل المبطلين ، ويجلون الناس ويعلمونهم إياه ، ويدعون الخلق إليه ، ويجددون للأمة أمر دينها ، منهم العلماء الربانيون والدعاة المخلصون ، والمجاهدون الصابرون والمحتسبون الصادقون .

ولقد كان شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ـ رحمه الله ـ ممن نصر الله بهم دينه ، وأظهر بهم سُنَّة نبيه ﷺ ، ونشر بهم منهج السلف الصالح ، بعد أن كان أهله قلة مستضعفين ؛ أذلة مضطهدين ، ولقد أثرت مؤلفاته عبر العصور في أجيال الأُمَّة ولو كره الكارهون ، واستفادت منها الصحوة الإسلامية بجميع فصائلها ، فانقمعت البدع ، وظهرت السُنن عند قراءتها ونشرها وتعليمها ، وعاد الاحتجاج بآيات القرآن العظيم ، وأحاديث النَّبي ﷺ طريق مسلوكة بعد

أن كادت أن تكون خالية مهجورة ، ومن هنا كان ربط رجال الأمة وشبابها ـ رجالاً ونساءً ـ بهذا المنهج ومدارسة هذه المؤلفات له عظيم الأثر في الثبات على الدين الحق وسط الفتن الهائلة التي تموج كموج البحر ، ويغرق فيها الآلاف بل الملايين ، فهي علامات مضيئة في وسط طرق الظلمات .

ومن هذه الرسائل والمؤلفات العظيمة **[رسالة العبودية]** التي يتكلم فيها شيخ الإسلام عن أعظم قضية في حياة الإنسان وعن المهمة الأولى ـ بل الوحيدة ـ التي من أجلها خلق الله الجن والإنس ، كما قال : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** (٥٦) ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، وهي غنية باللآلئ المكنونة والدرر المحفوظة .

وقد كان سبق منذ سنوات أن قرأت على إخواني هذه الرسالة مع بعض التعليقات التوضيحية لما رأيته يحتاج إلى إيضاح فيها ، أو تأكيد على معانٍ رأيت أنها تحتاج إلى تركيز الانتباه عليها ولفت الأنظار إليها ، وقد كتب بعض إخواننا الكرام ما في هذه القراءة المسجلة، وراجعتها بعد ذلك، فوجدت من المفيد نشرها .

وأسأل الله أن ينفع بها قارئها وكاتبها وناشرها ومن أعان على ذلك ، ومؤلف الأصل ـ شيخ الإسلام رحمه الله ـ في الدنيا والآخرة ، وأن يجعل أعمالنا كلها صالحة ، وأن يجعلها لوجهه ـ تعالى ـ خاصة ، وأن يرزقنا مرافقة النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين ، وأن يُدخلنا في عباده ، وأن يدخلنا جنَّته ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

كتبه

ياسر برهامي

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده اللهُ فلا مُضلَّ له ، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله، وأن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

[آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾

[النساء : ١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾[الأحزاب : ٧٠ ، ٧١] .

أما بعد :

سُئِلَ شيخُ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن قولِه عزَّ وجلَّ :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ [البقرة : ٢١] .

● فما العبادةُ ؟ وما فروعُها؟، وهل مجموعُ الدِّينِ داخلٌ في العبادة أم لا ؟ ، وما حقيقةُ العبودية ؟ وهل هي أعلى المقاماتِ أم فوقها شيءٌ من المقاماتِ ؟ .

والمسئول أن تبسطوا لنا القول في ذلك مأجورين برحمة الله وفضله .

فأجاب رحمه اللهُ ورضي عنه

الحمد لله رب العالمين

العبادةُ هى اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُحبُّه اللهُ ويَرضَاهُ ، من الأقوالِ والأعمالِ البَاطنَةِ والظَّاهرَةِ [١] .

قال : فالصلاةُ ، والزكاةُ ، والصيامُ، والحجُّ، وصِدْقُ الحديثِ ، وأداءُ الأمانةِ ، وبرُّ الوالدين ، وصِلَةُ الأرحامِ ، والوفاءُ بالعهودِ ، والأمرُ بالمعروفِ والنَّهْيُ عن المُنكَرِ ، والجهادُ للكفَّارِ والمنافقين ، والإحسانُ إلى الجارِ واليتيمِ والمسكين وابن السَّبيلِ والمملوكِ من الآدميِّين والبهائِم ، والدُّعَاءُ والذِّكْرُ ، والقراءةُ ، وأمثالُ ذلك من العبادةِ [٢] .

قال : وكذلك حبُّ اللهِ ورسولِه ﷺ ، وخشيةُ اللهِ والإنابةُ إليه ، وإخلاصُ الدِّينِ له ، والصَّبْرُ لحكمِه ، والشُّكْرُ لنعمِه ، والرِّضَا بقضائِه ، والتَّوَكُّلُ عليه ، والرَّجَاءُ لرحمتِه ، والخوفُ من عَذابِه ، وأمثالُ ذلك هي مِنْ

---

(١) هذا التعريف من أحسن التعريفات للعبادة وأجمعها ، وهو تعريف شامل أمور الاعتقاد وأعمال القلوب وأعمال الجوارح ، وأقوال اللسان، وهو تعريف عام يشمل حقيقة الدين كله .

(٢) فذكر الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة وينبغي أن يدخل في التعريف التروك ، فالتروك داخلة في مسمى العبادة والمعنى أن يترك ما نهى الله عنه وإن كان هذا يمكن أن يدخل في الأعمال من جهة أن الترك مع القصد والنية فعل .
وذكر في المعاملات الصدق وأداء الأمانة وبر الوالدين والوفاء بالعهود وغير ذلك، فهذه كلها من أمور العبادة في جانب المعاملات ، وذكر جملة من الأقوال كالدعاء والذِّكر والقراءة ، وأمثال ذلك فهذه الأقوال الظاهرة .

العبـادة لله (١).

(١) ذكر هنا أصول أعمال القلب التي بدونها لا تصلح العبادة بل في الحقيقة لا تكون العبادات الظاهرة عبادة إلا مع وجود هذه العبادات الباطنة التي هي أعمال القلوب.
فذكر حب الله والخشية من الله وهي الخوف منه الذي يقتضي ترك ما نهى عنه وحذر من الوقوع فيه، وذكر الإنابة وهي الرجوع عما لا يحبه إلى ما يحبه، والإخلاص هو عدم الشرك به شركًا أصغر أو أكبر، والصبر لحكمه، وهو يشمل حكمه الديني وهو الصبر على الطاعات في الإتيان بها والصبر عن المعاصي بتركها، والصبر لحكمه الكوني وهو الصبر على المصائب والأقدار المؤلمة عامة وما يُصيبه في سبيل الله خاصة، والصبر حبس النفس على ما تكره ابتغاء موعود الله سبحانه.
وذكر الشكر وهو الاعتراف بالنعمة ومحبة الله عليها وتعظيمه، والثناء على الله بها باللسان وتصريفها في مرضاته.
وذكر الرضا بقضائه وهذا مثل الصبر على المصيبة، ولكنه أعلى قدرًا لأنه ترك اختيار نفسه، وعلم أن ما قضاه الله فيه الحكمة والمصلحة ورضى به، لم يتمن وقوع غيره، ولم يُحدث نفسه بأنه لو كان كذا كان كذا، بل علم أن قضاء الله فيه الحكمة التامة وهو مبني على حُسن الظن بالله، والعلم بأسمائه وصفاته وكمال التفويض وأن الله يجعل الخير لعبده المؤمن في كل قضاء، فلا تكره نفسه قضاء الله فيه ويرضى عن الله عز وجل، وإن كان المقضي نفسه قد يكون مكروهًا غير محبوب. وذكر التوكل عليه وهو الثقة به سبحانه والاعتماد بالقلب عليه في جلب مصالح الدين والدنيا والآخرة، وهو مقتضى العلم بأن الله وحده هو النافع الضار المعطي المانع.
والرجاء لرحمته وهو يتضمن الرغبة وانتظار ثواب المحسن على عمله وانتظار المقصر ليتقبل توبته ويغسل حوبته، ويُدخله جنّته مع حُسن الظن به، وجميل التوكل عليه.
وهذا يستلزم مع حُسن الظن حُسن العمل، وإلا لم يكن راجيًا بل كان متمنيًا كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ

يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢١٨) ﴾ [البقرة : ٢١٨] .

أما من سار في مخالفة أمره سبحانه ولم يعمل بطاعته ورجا مع ذلك المنازل العالية فيقال له : ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ ﴾ ، كما قال الله عن المنافقين وقد فصل بينهم وبين المؤمنين ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) ﴾ [الحديد : ١٣ - ١٤] .

فقد كانوا مرتابين في وعد الله ، لم يكونوا واثقين به وكانوا متربصين منتظرين ينظرون هل ينتصر الإسلام فيكونون من جنده وأهله ، أم ينتصر الكفر فيقعون فيما يقعون فيه من الفتنة فهم منتظرون متربصون ليعلموا لمن الغلبة حتى يكونوا تبعًا للغالبين ولما يعلموا أن جند الله هم الغالبون .

وغرتهم الأماني فهم يظنون أن الله يعطيهم الآخرة إن كان ثمة رجوع إليه كما أعطاهم الدنيا فكانت هذه الأماني الباطلة ، وكما قال الحسن في التفرقة بين الرجاء والتمني : وكم أناس خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، يقولون : نحسن الظن بالله ، كذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل .

فمن أساء وقال : أُحسن الظن بالله ، فهذا المتمني ومن أحسن العمل وأحسن الظن فهذا الراجي رحمة ربه ، وهذا مما يدل على أن التصديق في الأعمال القلبية برهانه حُسن العمل .

وذكر الخوف من عذابه ، قال تعالى : ﴿ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٧٥] ، وقال : ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ [البقرة : ٤٠] ، وقال : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) ﴾ [الرحمن : ٤٦] وقال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١) ﴾ [النازعات : ٤٠ - ٤١] .

وقال تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم : ١٣ - ١٤] ، فخوف مقام الله على عبده بالاطلاع ، وخوف مقام العبد بين يدي ربه بالحساب ، وخوف وعيد

قال : وذلك أنَّ العبادةَ لله هي الغايةُ المحبوبةُ له ، والمرضيَّةُ له، التي خَلَقَ الْخَلْقَ لها ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ (١) .

[الذاريات : ٥٦] .

قال : وبها أرسلَ جميعَ الرُّسُلِ ؛ كما قَالَ نوحٌ عليه السلام لقومِهِ : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٥٩] .

الله وعذابه وعقابه ، قال تعالى : ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦) ﴾ [الزمر : ١٦] .

فهذه أصول عبادات القلب التي بدونها لا تصح العبادة ولا يسمى عبداً إلا من خاف ورجا وأخلص وشكر وصبر وأحب الله سبحانه وتوكل عليه .

(١) هذه الآية تبين الحكمة الشرعية من خلق الجن والإنس ، فقد خلق الله الخلق كلهم ليعبدوه وإن كان قدر غير ذلك ، وقد افترض على المكلفين منهم عبادته ، وأحسن ما فسرت به الآية قول عليّ رضي الله عنه الا لآمرهم بعبادتي أي ليفرض عليهم أن يفعلوا عبادته وهذه الحكمة الشرعية .

وهناك حكمة قدرية بالنسبة لكثير منهم ، وهم الذين خلقهم وهو يعلم أنهم لن يعبدوه ، فلماذا خلقهم وهو ما خلق الجميع إلا لعبادته ؟ ، إنما خلقهم لحكم أخرى ، غير ذلك منها : أن يكونوا عبيداً تحت قهره وسلطانه، يمضي فيهم حكمه وينفذ فيهم قضاؤه ، وإن كانوا لا يثابون على ذلك ، ومنها : أن يعبد المؤمنون ربهم بما أوجب عليهم في معاملة هؤلاء من الدعوة والجهاد والصبر وبذل النفوس والمهج والأموال ؛ في سبيل إعلاء كلمة الله بجهاد هؤلاء الذين لم يعبدوه فتحصل بوجود هؤلاء أنواع من العبودية لا تحصل إلا بوجودهم ، فله الحمد عز وجل على كل حال .

وهذه الحكمة الشرعية وهي أنه أمرهم أن يعبدوه ونهاهم أن يكفروه ، وأما كون ذلك يقع منهم أو لا يقع فذلك أمر آخر ، ومن لم يقع ذلك منه فقد خُلق للحكمة الكونية ، وكل فعل الرب سبحانه حكمة ورحمة وعدل .

وكذلك قال هُودٌ عليه السلام (١) ، وصالحٌ عليه السلام (٢) ، وشُعَيْبٌ عليه السلام (٣) ، وغيرُهُم لقومِهِم .

قال : وقال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ** ﴾ (٤) [النحل : ٣٦] .

---

(١) هو قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٦٥] .

(٢) هو قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٧٣] .

(٣) هو قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ١٨٥] .

(٤) فأرسل في كل أُمة رسولاً فعمت الرسالة كل الأُمم حتى قامت حجة الله على خلقه لكن قد يكون بعض آحاد الناس وأفرادهم لم تبلغهم الرسالة ، فهؤلاء لا يعذبون ولا يدخلون النار حتى يُمتحنوا ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : ١٥] ، فإذا لم تأتهم دعوة أحد من الرسل لم يعذبوا .

والآية دليل على أن دعوة الرسل واحدة ودينهم واحد وقوله ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ أي اجتنبوا عبادة كل ما يُعبد من دون الله ، وهذا يشمل كل معبود ومتبوع ومطاع على غير بصيرة من الله ، فالشيطان طاغوت والحاكم بغير ما أنزل الله طاغوت وكذا الساحر والكاهن والذي يبدل شرع الله ويأتي بغيره من قبل نفسه طاغوت ، وكل من طغى وجاوز حد العبودية ونسب إلى نفسه صفة من صفات الربوبية أو حقًا من حقوق الألوهية فهو طاغوت .

وقال تعالى في الهداية : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ ﴾ وهذا من تفضله عليهم ، وقال في الضلال : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ ﴾ وذكر في آيات أُخر أنه سبحانه هو الذي أضلهم كقوله : ﴿ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [المدثر : ٣١] ، وقوله : ﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ﴾ [الإسراء : ٩٨] ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٨] ،

قال : وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) ﴾ [الأنبياء : ٢٥] (١) .

قال : وقال تعالى :﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) ﴾ (٢) .

[الأنبياء : ٩٢] .

قال : كما قال في الآية الأخرى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ

وقال :﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف :١٧] . وذكر هنا أنه حق عليهم الضلال فلم يضلهم ظلمًا منه ، بل عدلاً وحكمة ، وذلك لأنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون . والهداية من فضله والإضلال من عدله ، ولذا فرق بينهما فقال في الهداية ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ ﴾ وقال في الضلالة : ﴿ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ ﴾ فذكر أن الإضلال كان بالحق لا بالظلم.

(١) هذه الآية دليل على أن دعوة الرسل واحدة وفيها إبطال دعوى من يدعي على الأنبياء مخالفة التوحيد كاليهود والنصارى الذين نسبوا إلى أنبياء الله عز وجل ، خلاف كلمة لا إله إلا الله ، مع أن كل الرسل جاءوا بهذه الكلمة ودعوتهم فيها واحدة كما قال النبي ﷺ : « الأنبياء أخوة لعلات ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد » [متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . وكل من أشرك بالله فلا تصح نسبته إلى رسول من الرسل ، ولا يصح أن نقول عن النصارى مسيحيين ولا عن اليهود موسويين ، فإن المشرك لا يتبع نبيًّا من الأنبياء ، إنما يتبع الهوى والشيطان والأحبار والرهبان .

(٢) وقد ذكر الله تعالى هذا بعد ذكر الأنبياء واحداً بعد واحد على تفاوت الأزمنة والأمكنة واختلاف اللغات والألسنة واختلاف الأحوال ، فالمؤمنون أُمة واحدة في كل زمان وعلى كل حال ما داموا على ملة واحدة ودين واحد وهو عبادة الله ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ فهو سبحانه الرب وهو الإله المعبود ، وهذا من فضله سبحانه على عباده المؤمنين ، وهذا الأصل أصل الانتماء والشعور بالولاء هو الذي يعصم القلب من الزيغ والفتنة .

واعملوا صالحًا إنّي بما تعملون عليمٌ (٥١) وإنّ هذه أُمّتكم أُمّةً واحدةً وأنا ربُّكم فاتّقون (٥٢) ﴾ [المؤمنون : ٥١ ، ٥٢] . وجعل ذلك لازمًا لرسوله ﷺ إلى الموت ، كما قال : ﴿ واعبُد ربّك حتّىٰ يأتيك اليقينُ (٩٩) ﴾ [الحجر : ٩٩] (١) .

قال : وبذلك وصف ملائكته وأنبياءه فقال تعالى : ﴿ وله من في السّموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون (١٩) يُسبّحون اللّيل والنّهار لا يفترون (٢٠) ﴾ [الأنبياء : ١٩ ، ٢٠] (٢) .

وقال تعالى : ﴿ إنّ الّذين عند ربّك لا يستكبرون عن عبادته ويُسبّحونه وله يسجدون (٢٠٦) ﴾ [الأعراف : ٢٠٦] ، وذمّ المستكبرين عنها بقوله : ﴿ وقال ربُّكم ادعوني أستجب لكم إنّ الّذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين (٦٠) ﴾ [غافر : ٦٠] (٣) .

---

(١) واليقين الموت ، لأنه متيقن في حق كل أحد ، وهذا مما لا نزاع فيه بين أهل العلم ، فمن فسر اليقين بأنه شهود الحقيقة الكونية وشهود نفوذ قضاء الله وقدره في الخلق ، وأن من شهد ذلك فقد رفع عنه التكليف فهو كافر ، ولازم قولهم أن النبي ﷺ لم يأته اليقين حتى الموت ، وهذا كُفر وضلال ، وهو ﷺ لم يترك منزلة العبودية لحظة فكيف يقال أن الواجب أن نعبد الله حتى نصل إلى اليقين ، فإذا وصلنا إلى اليقين تركنا العبادة وسقط عنا التكليف ، وإنما يقوله من يدعي لنفسه مقامًا فوق الأنبياء ويكذب طريق القرآن ويكذب ما أجمع عليه سلف الأمة رضى الله عنهم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم .

(٢) يستحسر : يتوقف وينقطع ويمل فالملائكة لا تنقطع عن عبادة الله عز وجل ولا تمل ذلك ولا تضعف عنه ، ولذا فهم لا ينامون لأن النوم يقتضي الفتور والانقطاع عن العبادة مدة النوم وهم لا يفترون .

(٣) أي أذلة صاغرين ، فأمر سبحانه بالدعاء ووعد بالإجابة ، وأخبر أن من ترك الدعاء تكبرًا وترك العبادة استكبارًا فإنه سيدخل جهنم داخرًا صاغرًا عكس ما قصد فإنه حين تكبر رأى نفسه كبيرًا فصغره الله ، كما صغر الله إبليس حين تكبر

قال : ونَعَتَ اللهُ صَفْوَةَ خلقه بالعبودية له ، فقال تعالى : ﴿ **عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا** (٦) ﴾ [الإنسان : ٦] [1] .

قال : ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا** (٦٣) **وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا** (٦٤) ﴾ [الفرقان : ٦٣ إلى ٧٧] ولَمَّا قال الشيطانُ : ﴿ **قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** (٣٩) **إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** (٤٠) ﴾ [الحجر : ٣٩ ، ٤٠] ، قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ** (٤٢) ﴾ [2] .

[الحجر : ٤٢] .

قال : وقال في وصف الملائكة بذلك : ﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ** (٢٦) **لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ** (٢٧) **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ**

فقال : ﴿ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٣] ، وهكذا كل من تكبَّر عن عبادة الله فله الصغار والذلة والمهانة .

(١) ضمن ﴿ يَشْرَبُ ﴾ معنى الري فعداه بالباء فهم يشربون من هذه العين ويروون بها وهي تنبع لهم حيث شاءوا في أي مكان من الجنة .

(٢) فوصف الله صفوة خلقه بأنهم عباده ووصفهم الشيطان بأنهم عباد الله المخلصين وهم الذين لا يقدر على إغوائهم ، والمخلِص من أخلص لله ، والمخلَص من أخلصه الله لعبادته ، وهو يتضمن توفيق الله لعبده وإعانته على طاعته ، فقراءة المخلصين بالخفض تتضمن توحيد الألوهية وفيها تحقيق ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ والمخلَصين بالفتح تتضمن توحيد الربوبية وفيها تحقيق ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ فأعانهم الله وهداهم الصراط المستقيم ، فصاروا عباد الله المخلَصين .

مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنبياء : ٢٦ – ٢٨] (١) .

قال : وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [مريم : ٨٨ – ٩٥] (٢) .

---

(١) تتضمن هذه الآية الرد على المشركين الذين زعموا أن الملائكة بنات الله ، وهي أيضًا في عمومها تتضمن الرد على النصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله ، وقوله : ﴿ سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ نزه الله سبحانه نفسه عن قول المفترين ، ووصف الملائكة بأنهم عباد الله المكرمون وأنهم ﴿ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ ﴾ فلا يقولون قط قولاً قبل أن يعلموا أمره ، وقوله عز وجل : ﴿ لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ : ٣٨] ، وقوله سبحانه : ﴿ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ ، فرغم طاعتهم الكاملة هم مشفقون من عذابه وجلون خائفون وقد علموا أنه قد صار بعض من كان في المنازل العالية إلى أسفل سافلين وهم يعلمون أنه عز وجل مقلب القلوب يقلبها كيف يشاء وهو على كل شيء قدير .

(٢) ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ فقال المشركون الملائكة بنات الله ، وقالت اليهود ﴿ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴾ وقالت النصارى ﴿ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾ ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ عظيمًا هائلاً تكاد الجبال تنشق منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًا ، وذلك من خشية الله إذ دعى له الولد وإشفاقًا من غضبه سبحانه ، فنزه الله عز وجل نفسه عما افترى الجاهلون الكافرون ، فإن اتخاذ الولد في الحقيقة من النقص الذي ينزه عنه الرب ، وإنما كان الولد في المخلوقين ، لأن المخلوق يموت فيحتاج إلى من يخلفه لاستمرار الحياة والحفاظ على النوع ، وإلا فإن كامل الحياة لا يحتاج إلى من يخلفه .

فلا يصلح أن يتخذ ولدًا من جنسه كما يقول النصارى في المسيح ، ولا أن يتخذ

وقال تعالى عن المسيح عليه السلام – الذي ادُّعيَتْ فيه الإلهيَّةُ والبُنُوَّةُ – : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) ﴾ [الزخرف : ٥٩] .

ولهذا قالَ النَّبيُّ ﷺ في الحديث الصحيح : « **لا تُطْرُوني كَمَا أطْرَت النَّصارَى عِيسَى بْنَ مَرْيَم ، فَإِنَّمَا أنا عَبْدٌ ، فَقُولُوا : عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ** » [1] .

وقَدْ نَعَتَهُ اللهُ بالعبودية في أكملِ أحوالهِ فقَالَ في الإسراءِ : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ [الإسراء : ١] .

وقال في الإيحاء : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) ﴾ [النجم : ١٠] .

وقال في الدعوة : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩) ﴾ [الجن : ١٩] .

وقالَ في التَّحدِّي : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة : ٢٣] [2] .

ولداً بمعنى أن يسميه ولداً كما يقول اليهود والنصارى عن أنفسهم ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [المائدة:١٨] ، ويقولون آدم ابن الله ويعقوب ابنه البكر ، يقولون هذا وأمثاله مع علمهم بأنه مخلوق ، وذلك بأن الله سماه ولداً ، وهذا باطل فإن الله سبحانه لم يتخذ ولداً حقيقة ولم يسم بعض خلقه ولداً فيكون ولداً مجازاً ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا (٩٣) ﴾ فهذه صفة جميع الخلق أنهم عبيد لله عز وجل ، لا يخرج عن قهره أحد منهم ، وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ، لا أهل معه ولا مال ولا حاشية ولا جنود ولا أعوان .

(١) أخرجه البخاري في « صحيحه » عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سمع عُمَرَ بن الخطاب رضي الله عنه يقولُ على المنبـرِ : « سَمِعْتُ النَّبيَّ ﷺ يَقُولُ : « لا تُطْرُوني كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ ، فإِنَّمَا أنا عَبْدُهُ ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ » .

[فتح الباري (٦ / ٥٥١)] .

(٢) فدلت هذه الآيات على أن أعلى منزلة للمخلوق هي منزلة العبودية .

فالدِّينُ كلُّه داخلٌ في العبادةِ ، وقد ثَبَتَ في « الصحيحِ » أنَّ جبريلَ عليه السلام لَمّا جاءَ إلى النَّبيِّ ﷺ في صُورَةِ أعرابيٍّ وسَألَهُ عن الإسلام ، قالَ : « **الإِسْلامُ أنْ تَشْهَدَ أن لا إلهَ إلا اللهُ ، وأنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله ، وتَقِيمَ الصَّلاةَ ، وتُؤتي الزَّكاةَ ، وتَصُومَ رمَضَانَ ، وتَحُجَّ البَيْتَ إنِ اسْتَطَعْتَ إلَيْه سَبيلاً** » .

قَالَ : فَمَا الإيْمَانُ ؟ قَالَ : « **أَنْ تُؤمِنَ باللهِ ومَلائِكَتِه ، وكُتُبِه ورُسُلِه ، والبَعْثِ بَعْدَ المَوْتِ ، وتؤمنَ بالْقَدَرِ خَيْرِه وشَرِّه** » .

قَالَ : « فَمَا الإحْسَانُ ؟ **قَالَ** : « **أنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَراهُ ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فإنَّهُ يَراكَ** » ، ثُمَّ قَالَ في آخرِ الحديث : « **هَذا جِبْرِيلُ جَاءَكُم يُعلِّمُكُمْ دِينَكُمْ** » [1] ، فجعَلَ هذا كُلَّه من الدِّينِ [2] .

والدِّينُ يتضمنُ معنى الخضوعِ ، والذُّلِّ ، يُقالُ : دِنْتُهُ ، فَدَانَ ، أي: أذْلَلْتُهُ ، فَذلَّ ، ويُقالُ : يَدينُ اللهَ ، ويدينُ للهِ ، أي : يعبدُ اللهَ ويُطيعهُ ، ويخضعُ له .

فَدينُ اللهِ : عبادتُهُ ، وطاعتُهُ ، والخضوعُ له .

والعبادةُ أصلُ معناها : الذُّلُّ أيضًا ، يُقالُ : طريقٌ مُعَبَّدٌ ، إذا كان مُذَلَّلاً قد وَطَّأتْهُ الإقدامُ .

لكنَّ العبادَةَ المأمورَ بها ، تتضمَّنُ معنى الذُّلِّ ومعنى الحبِّ ، فهي تتضمَّنُ غايةَ الذُّلِّ للهِ تعالى ، بغايةِ المحبَّةِ له .

---

(١) متفق عليه برواية أبي هريرة رضي الله عنه ورواه مسلم من رواية عمر عن أبيه رضي الله عنهما .

(٢) فدل هذا الحديث على أن الدين يشمل الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة ، فالإيمان والدين والعبادة بينها تلازم ، إذ كمل واحد منها لزم كمال الباقي ، وإذا نقص نقصت ، وإذا زال زالت .

آخرَ مراتبِ الحبِّ :

فإنَّ آخرَ مراتبِ الحبِّ : هو التَّتيُّمُ ، وأوَّلُهُ العَلاقَةُ ، لتعلُّقِ القلبِ بالمحبوبِ ، ثُمَّ الصبَّابَةُ ؛ لانصبابِ القلبِ إليه ، ثُمَّ الغرامُ ، وهو الحبُّ الملازِمُ للقلبِ، ثُمَّ العشقُ ، وآخرُهَا التَّتيُّمُ ، يقالُ : تَيْمُ اللهِ ، أي :عَبْدُ اللهِ ، فالمتيَّمُ : المعبَّدُ لمحبوبِهِ .

ومَنْ خَضَعَ لإنسانٍ مع بُغْضِهِ له لا يكون عابداً له ، ولو أحبَّ شيئًا ولم يخضعْ له لم يكن عابداً له ؛ كما قد يحبُّ الرَّجُلُ وَلَدَهُ وصَديقَه ، ولهذا لا يكفي أحدهُما في عباده الله تعالى ، بل يجب أن يكون اللهُ أحبَّ إلى العبدِ من كلِّ شيءٍ ، وأن يكون اللهُ أعظمَ عنده من كلِّ شيءٍ ، بل لا يستحقُّ المحبَّةَ والخُضوعَ التَّامَّ إلا اللهُ .

وكلُّ ما أُحبَّ لغيرِ الله فمحبَّتُهُ فاسدةٌ وما عُظِّمَ بغيرِ أمرِ الله فتعظيمُهُ باطلٌ ، قال الله تعالى : ﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ** ﴾[1] [التوبة : ٢٤] .

---

(١) فأوجب الله عز وجل أن تكون محبته عز وجل وهي عبادة له ومحبة رسوله ﷺ ، وهي محبة في الله ولأجله فهي عبادة لله عز وجل وحب ما يحبه الله من الأعمال كالجهاد في سبيل الله مقدمة على حب هذه الثمانية ، ويظهر أثر ذلك في الطاعة والتقديم فلا يقدم شيئًا من هذه على طاعة الله ورسوله ﷺ وهو يضحي بهذه الأشياء إذا تعارضت مع محبة الله ورسوله ﷺ والجهاد في سبيله ، ودلت الآية على أنه لا يمنع حب هذه الأشياء الحب الفطري الطبيعي لكن لابد أن يكون حب الله ورسوله ﷺ والجهاد في سبيله أعظم ، ومن لم يكن كذلك كان متوعداً بعقوبة من عند الله منتظراً حلول بأس الله به ، وهو من الفاسقين الذين أضلهم الله ولم يهدهم بسبب فسقهم وخروجهم عن شرعه عز وجل .

فجنسُ المحبَّةِ ، تكون لله ولرسوله (١) ؛ كالطَّاعَة : فإنَّ الطَّاعَةَ لله ولرسوله ، والإرضاءُ لله ولرسولِه : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : ٦٢] ، والإيتاءُ لله ولرسولِه : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة : ٥٩] .

وأمَّا العبادةُ وما يناسبها من التوكلِ ، والخوف ، ونحو ذلك ، فلا تكون إلا لله وحده ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩) ﴾ [التوبة : ٥٩] .

فالإيتاءُ لله وللرسولِ ﷺ ، كقوله : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [الحشر : ٧] . وأمَّا الْحَسْبُ - وهو الكافي - فهو اللّهُ وحده ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ

---

(١) قال هنا جنس المحبة لاختلاف نوعها ، فحب الله هو عبادة له ، وحب رسوله ﷺ ليس عبادة للرسول ﷺ ، فهو نوع آخر وإن كان جنس المحبة معلوماً محسوساً لكنه أنواع ، فحب الرسول ﷺ هو في الله فهو عبادة لله عز وجل ، كما أن الطاعة كذلك ، فطاعة الرسول ﷺ ليس ذلاً له ولا عبادة له ، بل إنما يُطاع لأن الله أمر بطاعته فطاعة العبودية هي لله وحده لا شريك له ، وطاعة الرسول ﷺ لم تجب لذاته ، بل لأنه يأمر بطاعة الله ، والله قد شرع لخلقه طاعته لأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، وكذلك معنى الإيتاء ، فإيتاء الله رزقه ومنته وخلقه الأرزاق لعباده وإيصالها لهم من غير حول منهم ولا قوة ، وإيتاء الرسول ﷺ قسْم بأمر الله ، كما قال ﷺ : « إنما أنا قاسم أضع حيث أمرت » ، فانتبه لهذا الفرق .

إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل (١٧٣) ﴾ [آل عمران : ١٧٣] .

وقال تعالى : ﴿ **يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين (٦٤)** ﴾ [الأنفال : ٦٤] ، أيّ : حَسْبُك وحَسْبُ من اتّبعَك من المؤمنين: اللهُ ، ومَنْ ظَنَّ أنَّ المعنى حَسْبُك اللهُ والمؤمنون معه ، فقط غَلَطَ غَلَطًا فاحشًا ، كما قد بسطناهُ في غيرِ هذا الموضعِ (١) .

وقَالَ تعالى : ﴿ **أليس الله بكاف عبده** ﴾ [الزمر : ٣٦] .

لفظ [العبد] يُراد به أمران :

وتحريرُ ذلك: أنَّ العبدَ يُرادُ به المعبَّد الذي عبَّده اللهُ فذَلَّلَهُ ، ودَبَّرَهُ ،وصَرَّفَه ، وبهذا الاعتبار: فالمخلوقون كلُّهم عبادُ الله ، الأبرارُ منهم والفجَّارُ ، والمؤمنون والكفَّارُ ، وأهلُ الجنَّةِ وأهلُ النَّارِ ، إذ هو ربُّهم كلِّهم ومليكُهم ، لا يخرجون عن مشيئتِه وقدرتِه ، وكلماته التَّامَّات (٢) التي لا يجاوزها برٌّ ولا فاجرٌ ، فما شاءَ كان ، وإن لم يشاؤوا ، وما شاؤوا إن لم يَشأْهُ لم يكن ، كما قالَ تعالَى : ﴿ **أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعًا وكرهًا وإليه يرجعون (٨٣)** ﴾ [آل عمران : ٨٣] .

---

(١) ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ في هذه الآية عن الشعبي قال : « حسبك وحسب من شهد معك » ، وذكر عن ابن أبي حاتم أنه قال : وروى عن عطاء الخراساني وعبد الرحمن بن زيد مثله ، ولم يذكر ابن كثير غير هذا الوجه .

(٢) كلمات الله التامَّات ، تمت صدقًا في الأخبار وعدلاً في الأوامر ، والمقصود بها هنا كلماته الكونية التي يكوّن بها ما شاء ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون (٨٢) ﴾ [يس : ٨٢] ، وهذه الكلمات هي التي لا يجاوزها بر ولا فاجر ، ولا خروج لهم أبدًا عن حكمه الكوني ، أما حكمه الشرعي فقد فسق وخرج عنه الكفار والفجار وجعلوه وراءهم ظهريا .

فهو سبحانه ربُّ العالمين ، وخالقُهم ورازقُهُم ، ومحييهم ومميتُهم ، ومُقلِّبُ قلوبهم، ومصرِّفُ أمورهم، لا ربَّ لهم غيره ،ولا مالكَ لهم سواه ، ولا خَالِقَ لهم إلا هو ، سواءٌ اعترفوا بذلك أو أنكروه ، وسواءٌ علموا ذلك أو جهلوه ، لكنَّ أهلَ الإيمانِ منهم عرفوا ذلك ، وآمنوا به ، وشكروه بعبودية الإلهية رغبًا ورهبًا [1] ، بخلاف مَنْ كان جاهلاً بذلك ، أو جاحداً له ، مستكبراً على ربِّه ، لا يقرُّ ولا يخضعُ له ، مع علمه بأنَّ اللهَ ربُّه وخالقُه ، فالمعرفةُ بالحقِّ إذا كانت مع الاستكبار عن قَبُوله والْجَحْد لـه ،كان عذابًا على صاحبه ،كما قال تعالى : ﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤)** ﴾ [2] [النمل : ١٤] ، وقال تعالىَ : ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)** ﴾ [3] [البقرة :١٤٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ **فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)** ﴾ [4] [الأنعام : ٣٣] .

---

(١) أي وحدوه وعبدوه بأفعالهم هم ليس فقط المعرفة والإقرار بأفعاله هو عز وجل الذي هو توحيد الربوبية .

(٢) الآية في آل فرعون في جحدهم أي نفيهم وانكارهم لآيات الله التسع التي آتى الله موسى مع حصول اليقين في أنفسهم بصدقها وأحقية ما جاء به موسى ، ولكن حملهم على الإنكار الظلم والكبر ، فدل ذلك أوضح دلالة على أن الإيمان والعبادة لا يكفي فيها المعرفة كما تقول الجهمية .

(٣) الآية في أحبار اليهود الذين يعرفون النبي ﷺ وصفته كما وردت في التوراة كما يعرف الواحد منهم ابنه لا يشك فيه ومع ذلك كتموا ذلك وهم يعلمون فكانوا رؤوسًا في الكفر والصد عن سبيل الله .

(٤) الآية في مشركي قريش ، أخبر الله عنهم أنهم في حقيقة بواطنهم لا يملكون تكذيب الرسول ﷺ وهم يعلمون صدقه وصحة ما جاءهم ولكنهم لظلمهم

فإذا عَرَفَ العبدُ أنَّ اللهَ ربُّه وخَالقُهُ ، وأنَّه مفتقرٌ إليه ، محتاجٌ إليه ، عَرَفَ العبودية المتعلِّقَةَ بربوبيَّة الله ،وهذا العبدُ يسألُ ربَّه ، ويتضرَّعُ إليه ويتوكَّلُ عليه ، لكن قد يطيعُ أمْرَهُ وقد يعصيه ، وقد يعبدهُ مع ذلك ، وقد يعبدُ الشيطانَ ، والأصنامَ ، ومثلُ هذه العبودية لا تفرِّقُ بين أهلِ الجنَّة وأهلِ النَّار ، ولا يصيرُ بها الرَّجُلُ مؤمنًا ، كما قَالَ تعالىَ : ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ** (١٠٦) ﴾ [يوسف : ١٠٦] .

فإنَّ المُشركين كانوا يُقرُّون أنَّ اللهَ خالقُهُم ورازقُهُم وهم يعبدون غَيْرَهُ ، قَالَ تَعالىَ : ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾ [الزمر : ٣٨] .

وقَالَ تعالىَ : ﴿ **قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩)** ﴾ [المؤمنون : ٨٤ – ٨٩] .

وكثيرٌ مِّمَّنْ يتكلَّمُ في الحقيقة ، فيشهدها لا يشهد إلا هذه الحقيقة ، وهي الحقيقةُ الكونيةُ التي يشتركُ فيها وفي شهودها وفي معرفتها المؤمنُ والكافرُ ، والبرُّ والفاجرُ ، بل وإبليسُ معترفٌ بهذه الحقيقة ، وأهلُ النَّار ، قَالَ إبليسُ : ﴿ **رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ** (٧٩) ﴾ [ص : ٧٩] ، وقَالَ : ﴿ **رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** (٣٩) ﴾ [الحجر : ٣٩] ، وقَالَ : ﴿ **فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** (٨٢) ﴾ [ص : ٨٢] ، وقَالَ : ﴿ **أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً** (٦٢) ﴾ [الإسراء : ٦٢] .

وكبرهم يجحدون « أي ينفون » بآيات الله وينكرونها وهذه الآية والتي تليها كذلك تدل أوضح دلالة على أن الإيمان لا يكفي فيه المعرفة والتصديق ، بل لابد من عمل القلب وانقياده ومحبته وتعظيمه لله عز وجل .

وأمثالُ هذا من الخطاب الذي يُقرُّ فيه بأنَّ اللهَ ربُّه وخالقُه وخالقُ غيره ، وكذلكَ أهلُ النَّارِ، قالوا : ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) ﴾ .

[المؤمنون : ١٠٦] .

وقال تعالى عنهم : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾ [الأنعام : ٣٠] .

فَمَنْ وَقَفَ عند هذه الحقيقة ، وعند شهودها ، ولَم يَقُمْ بما أَمَر اللهُ به من الحقيقة الدينية ، التي هي عبادتُه المتعلّقَةُ بألوهيته وطاعة أمره ، وأمر رسوله ﷺ ، كَانَ من جنس إبليسَ وأهلِ النَّارِ ، فإنَّ ظَنَّ مع ذلكَ أنَّه من خَواص أولياء الله وأهلِ المعرفة والتحقيقِ ، الذين يسقطَ عنهم الأمرُ والنَّهْيُ الشرعيان ، كَانَ مِنْ شَرِّ أهلِ الكُفرِ والإلحادِ .

وَمَنْ ظَنَّ أنَّ الْخَضِرَ وغيرَهُ سَقطَ عنهم الأمرُ لمشاهدةِ الإرادَةِ ونحو ذلك، كَانَ قَولُه هذا مِنْ شَرِّ أقوالِ الكافرين باللهِ ، ورسولِهِ (١) .

---

(١) كثيراً ما يحتج هؤلاء بالخضر على ما يزعمون ويقولون أن الخضر صاحب الحقيقة وأن موسى صاحب شريعة ، ولابد أن يتبع صاحبُ الشريعة صاحب الحقيقة وإن خالف الشريعة ، وهذا كام فاسد غاية الفساد ، والخضر وإن كان قد كان في زمن موسى عليه السلام فإنه غير ملزم بشريعته وقد قال لموسى : « يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه » [رواه البخاري] أما في زمان النبي ﷺ وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فقد قال رسول الله ﷺ : « ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بُين لكم » [رواه أحمد والطبراني في الكبير عن أبي ذر] ، وقال : «وبعثت إلى الناس كافة » [متفق عليه] ، وأما الخضر فهو إما نبي وإما أنه متبع شرع نبي آخر غير موسى على القول بعدم نبوته ، قال الله عنه ﴿ وعَلَّمْنَاهُ من لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ ، وقال هو عن نفسه : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ ، ويستحيل أن يجزم بأن

قال : حتَّى يدخلَ في النوعِ الثاني من معنى العبدِ [١] .

قال : وهو العبدُ بمعنى العابدِ ، فيكون عابداً لله ، لا يعبدُ إلا إياه ، فيطيع أمرَهُ وأمرَ رُسُله ، ويوالي أولياءَه المؤمنين المتَّقين ، ويُعَادي أعداءَه الكافرين والفاسقين [٢] ، وهذه العبَادةُ متعلِّقَةٌ بالإلهيَّةِ لله تعالى ، ولهذا كان عنوانُ التوحيد : لا إله إلا الله ، بخلافِ مَنْ يُقرُّ بربوبيتِه ولا يعبدُهُ أو يعبدُ مَعَهُ إلهًا آخرَ .

فالإلهُ: هو الذي يَأْلَهُهُ القلبُ بكمالِ الحبِّ والتعظيمِ ، والإجلالِ والإكرامِ، والخوفِ والرجاءِ ونحو ذلك .

وهذه العبادةُ : هي التي يحبُّها اللهُ ويرضاها ، وبها وَصَفَ المصطَفَيْنَ مِنْ عبادِه وبها بَعَثَ رُسُلِه . وأمَّا العبدُ بمعنى المعبَّد ، سواءٌ أقَرَّ بذلك أو أنكره ، فهذا المعنى يشتركُ فيه المؤمنُ والكافرُ . وبالفرقِ بين هذين النوعين ، يُعرفُ الفرقُ بين

هذا العلم من عند الله ، أي « علم لدني » ، إلا بوحي إلى معصوم خصوصًا ما يتعلق بقتلِ الغلام ، فإن الولي مهما بلغت مرتبته لا يجزم بأن هذا الطفل إذا عاش يموت كافراً فإنه من علم الغيب الذي استأثر الله به ، والأولياء غير الأنبياء ليسوا بمعصومين حتى يقدموا بمجرد الكشف والإلهام على قتل من لم يبلغ الحنث بزعم أنهم علموا كفره في كبره فلا يقول بذلك إلا ضال ، ولذا نقول أن الخضر ما قتل الغلام إلا بوحي إما إليه فيكون نبيا ، وإما لنبي آخر بلغه أمر الله .

(١) فيظل في ضلاله حتى يدخل في النوع الثاني والذي هو تحقيق الحقيقة الدينية وهو أن يكون العبد بمعنى العابد ، والنوع الأول بمعني العبد المذلل المقهور .

(٢) وهذه المسألة مسألة الولاء والبراء أوثق عرى الإيمان كما قال رسول الله ﷺ : «أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله » ، فلا تغتر بمن يزعم الولاية وهو يوالي أعداء الله ، ويحارب أهل الإسلام ، فهو من رؤوس النفاق ؛ وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم، حتى يحب في الله ويبغض في الله ،ويوالي في الله ويعادي في الله .

الحقائقِ الدينيةِ الداخلةِ في عبادةِ اللهِ ودينِه ، وأمرِه الشرعيِّ – التي يُحبُّها ويرضاها ، ويوالي أهلَها ويُكرمُهُم بجنَّتِه – وبين الحقائقِ الكونيةِ التي يشتركُ فيها المؤمنُ والكافرُ ، والبَرُّ والفاجرُ ، التي مَنْ اكتفى بها ، ولم يتَّبع الحقائقَ الدينيةَ ، كَانَ من أتباعِ إبليسَ اللعينِ ، والكافرين بربِّ العالمين . ومَنْ اكتفى فيها ببعضِ الأمورِ دونَ بعضٍ ، أو في مقامٍ دون مقامٍ ، أو حالٍ دون حالٍ ؛ نقصَ من إيمانِه وولايتِه للهِ بحسبِ مَا نقصَ من الحقائقِ الدينيةِ [١] .

وهَذا مَقامٌ عظيمٌ غَلطَ فيه الغالطون وكثر فيه الأشتباه على السالكين حتى زلق فيه مِن أكابرِ الشيوخِ المدَّعين للتحقيق والتوحيد والعِرفانِ ما لا يُحصيه إلا اللهُ الذي يعلمُ السرَّ والإعلانَ .

وإلى هذا أشارَ الشيخُ عبدُ القادرِ [٢] – رحمه الله – فيما ذُكِرَ عنه ، فَبَيَّنَ أن كثيراً من الرجالِ إذا وصلوا إلى القضاءِ والقَدَرِ أمسكوا ، إلا أنا فإنِّي انفتحت لي فيه رَوْزَنَةٌ [٣] ، فنازعتُ أقدارَ الحقِّ بالحقِّ للحقِّ ، والرَّجُلُ مَنْ يكون منازعًا

---

(١) فالعبد يراد به المعبد الذي عبده الله وقهره وأذله ، فهذا معنى عام يشترك فيه المؤمن والكافر والبر والفاجر ، وشهود هذا الأمر هو شهود للحقيقة الكونية ، وأن الكل بقضاء الله وقدره لا يكفي في تحقيق الولاية ، بل لا يكفي في دخول الإسلام فإن هذه المعرفة كانت لدى المشركين وعباد الأصنام والتي هي مقدمة وتوطئة للمعرفة الأخرى الجليلة ، وهي شهود الحقيقة الدينية والتي بها يصير العبد عبداً حقًا . . . فإن أدلة الربوبية مدعاة النظر والتفكر والتعقل والتذكر وإلا كان من الذين لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يُبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها . أما عبودية العابد فعبودية حب وانقياد لأوامر الله ، فالنوع الأول قيام الحجة والنوع الثاني القيام على المحجة .

(٢) هو أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح موسى بن عبد الله الجِيْلاني .

(٣) الروزنة : هي الفتحةُ في السقفِ .

للقَدَرِ ، لا مَنْ يكون موافقًا للقَدَرِ (١) .

قال : والذي ذكرهُ الشيخُ – رحمهُ اللهُ – وهو الذي أَمَرَ اللهُ به ورسولُهُ ، ولكنَّ كثيراً من الرجال غَلطوا فيه ؛ فإنَّهم قد يشهدون ما يُقَدَّرُ على أحدهم من المعاصي والذنوبِ ، أو ما يُقَدَّرُ على النَّاسِ من ذلك ، بل من الكفرِ ، ويشهدون أنَّ هذا جاء بمشيئةِ اللهِ وقضائه وقَدَرِه ،داخلٌ في حُكْمِ ربوبيَّتِه ومقتضى مشيئته ، فيظنُّون أنَّ الاستسلامَ لذلك وموافقَتَه والرِّضَى به ، ونحو ذلك : دينٌ وطريقٌ وعبادةٌ (٢) .

---

(١) أراد أنه نازع أقدار الحق المكروهة التي لا يحبها الله ولا يرضاها من أقدار المعاصي ونحوها بالحق أي بالاستعانة بالله عز وجل وبالتوكل عليه « للحق » أي لله عز وجل إخلاصاً وعبودية فالرجل هو الذ ي ينازع القدر المكروه بالقدر المحبوب لا من يكون موافقًا للقدر حتى ما يكره من المقدورات شرعًا ، أما المصائب والبلايا والمحن فنوعان ، نوع للإنسان فيه قدرة على الأخذ بالأسباب فيجب أو يستحب أو يباح له أن يأخذ بالمشروع منها كقدر الجوع يدفعه بقدر الأكل وقدر المرض يدفعه بقدر الدواء ولو امتنع المضطر عن الطعام حتى مات أثم ولو لم يقاوم الغريق الموج حتى هلك كان قاتلاً لنفسه طالما قدر على ذلك ، ونوع آخر لا قدرة للمرء عليه وليس لدفعه أسباب لديه ، فهذا يرضى بقدره طواعية ويسلم أمره لله كمرض لا علاج له معروف أو موت قريب أو ذهاب مال لا يستطيع طلبه .

(٢) وهذا والعياذ بالله من أصول الكفر أن يقول العبد : طالما أن الله شاء وجود أنواع من الملل المختلفة كالشرك والكفر ، وكذا شاء وجود العصيان كما شاء وجود الطاعة والإيمان ،فالكل إذاً سواء ، فهذا من المناقضة لصريح القرآن ومن التكذيب بما جاء به الرسول ﷺ من أن الدين عند الله الإسلام ، وأنه ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران :٨٥] .

فلم يشرع الله لنا أن نستسلم لقضاء الله بالكفر والعصيان بل أوجب الله على من وقع منه شيء من ذلك أن يرده بقضاء من عند الله بالتوبة والإنابة والدخول في

قال : فَيُضاهِئُون [١] المشركين الَّذين قالوا : ﴿ **لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام : ١٤٨] .

وقالوا : ﴿ **أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ** ﴾ [يس : ٤٧] .

وقالوا : ﴿ **لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم** ﴾ [الزخرف : ٢٠] [٢] .

قال : ولو هُدُوا لعلموا أنَّ القَدَرَ أمرنا أن نرضى به ، ونصبَر على مُوجَبه [٣] في المصائب التي تُصيبنا ؛ كالفقرِ والمرضِ والخوفِ ، قالَ اللّهُ تعالى : ﴿ **مَا أَصَابَ**

الإسلام وأن يجاهد من ابتلى به ويدعوه إلى طاعة ربه ، فيرد هذا البلاء بقدر الجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله ليبطل الكفر والفسوق والعصيان ، حتى لا يبقي في الأرض كفر ظاهر أو نفاق ظاهر .
وهذا هو الذي يوافق العقل السليم كما يوافق أدلة الشرع الحنيف فما بالهم التفتوا عنه إلى ما زينه الشيطان لهم بل ربما أخذه عنهم فإنه ما كان يحسن مثله فإنه سمى ما فعله غواية فقال : ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ ولم يسمه هداية ولا عبادة ولا أنه يرضى الله ويتقرب إليه بذلك ، وهم قالوا بذلك كله فلذلك كان شياطين الإنس ممن يوحى بهذا الكلام فروجه الشيطان فيمن على طريقتهم وملتهم بدعوى أنه علم الحقيقة وعلم اليقين ، فإن الشيطان كان همه في التنغيص على الناس في طاعة ربهم حتى جاء هؤلاء يزعمون أنه قد رفع عنهم التكاليف .

(١) تُشَابِهُونَ .

(٢) فهذا كله من ضلالات الكفار وشبهاتهم الباطلة احتجوا بأن الله تركهم يفعلون الشرك ويحرمون ما حرموا على أن يرضاه منهم ويشرعه لهم . وليس هناك تلازم بين الرضا والمشيئة ، فقد يشاء الله وجود ما لا يرضيه سبحانه لحكمة بالغة وبعلمه عز وجل قدر ذلك .

(٣) موجَب القدر : بالفتح ، ما أوجبه القدر من المصائب .

مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن : ١١] (١) .

قَالَ : **قَالَ بعضُ السَّلفِ** : هو الرجلُ تُصيبُه المُصيبَةُ ، فيعلَمُ أنَّها من عند اللهِ فيرضى ويُسَلِّم (٢) .

وقَالَ تعالىَ : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ (٣) [الحديد : ٢٢ ، ٢٣] .

---

(١) فالفقر والمرض والخوف وجودها ابتداءاً حاصل لكل إنسان ولكن لابد أن يرضى بما قدر الله ولا يقول لماذا قدر الله عليّ ذلك ، ولكن شرع له أن يبحث عن الأسباب التي تذهب عنه ما يكره إذا كان مما يَقْدِر عليه ، فالفقير الذي لا يجد كفايته شرع له أن يعمل ويجتهد في إزالة ما به من حاجة ، وكذا المريض وغيرهما ، فإذا نزل بالمرء ما لا قدرة له عليه بإصابة ضر أو عجز عن كسب فهذا يرضى ويسلم ولا يسخط على المقدور ، إذ الأصل حصول الابتلاء بوقوع البلاء فإذا تيسر بالأسباب كشف الضر بإذن الله فذاك وإلا فليس إلا الرضا والتسليم .

(٢) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم بسند صحيح عن علقمة .

(٣) قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ فِي كِتَابٍ ﴾ أي : اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه المقادير قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وقوله : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾ فالضمير إما يعود على الأرض أو الأنفس أو المصيبة ، أو يعود على الثلاثة وهو الذي رجحه ابن كثير وهو الظاهر ويؤيده الحديث السابق : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة » [رواه مسلم والترمذي وأحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما] .

وقوله : ﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ أي أخبركم الله بذلك لكي لا تحزنوا على ما فاتكم من أمر الدنيا ولا تفرحوا بما آتاكم فرح الأشر والبطر والغرور وهو الفرح المذموم ، وهو الذي يجعل الإنسان يظن أن الفضل له ، وأن ما حصل له من خير فمن عنده وبجهده وسعيه ، ولذا قال عقبها ﴿ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ

وفي « الصحيحين » : عن النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قَالَ : « **احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسى ، فَقَالَ مُوسَى : أَنْتَ آدَمُ الذي خَلَقَكَ اللهُ بيده ، ونَفَخَ فيكَ من رُوحِه ، وأسْجَدَ لكَ مَلائكتَهُ ، وعلَّمكَ أسْمَاءَ كُلِّ شيء ، فلماذا أخرَجْتَنا ونَفْسَكَ من الْجَنَّة ؟ فَقَالَ آدمُ : أَنْتَ مُوسَى الَّذي اصْطَفَاكَ اللهُ برسالاته وبكلامه ، فهل وَجَدْتَ ذلكَ مَكْتُوبًا عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فحَجَّ آدمُ مُوسَى** » [١] .

وآدَمُ عليه السلام لم يحتجَّ على موسى بالقَدَرِ ظَنًا أنَّ المذنبَ يحتجُّ بالقَدَرِ ، فإنَّ هذا لا يقولُهُ مسلمٌ ولا عاقلٌ؛ولو كَانَ هذا عُذرًا لكان عُذْرًا لإبليسَ ، وقومِ نوحٍ وقومِ هودٍ وكلِّ كافرٍ ، ولا موسى لامَ آدمَ أيضًا لأجلِ الذنب ، فإنَّ آدمَ قد تاب إلى ربِّه فاجتباه ، وهَدَى ، ولكن لامَهُ لأجلِ المصيبةِ التي لحقتهم بالخطيئة ، ولهذا قالَ : « **فَلِمَاذَا أخْرَجْتَنا وَنَفْسَكَ من الْجَنَّة ؟** » ، فأجابه آدَمُ : « **إنَّ هذا كان مكتوبًا عليَّ قبل أن أُخْلَقَ** » ، فكَانَ العملُ والمصيبةُ المترتِّبَةُ عليه مُقَدَّرًا ،

مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ يرى أن النعمة حصلت بجهد نفسه ، ولذا فهو لا يعطي فضله ويمنعه الناس ويبخل به عليهم لأنه يراه ملكًا له بسعيه ونصبه ... أما مجرد السرور بنعمة الله فهذا ليس مذمومًا ، ولكن كما قال الله عز وجل ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ وهذه هي النعمة في الدين وما أعطى الله عبده من الحلال فاستعان به على طاعته كمال،أو زوجة صالحة أو ولد صالح هو من فضل الله ورحمته ، ولو آمن العبد بأن الكل من عند الله قد سبق في كتاب لما حصلت له هذه الأمراض « الكبر والاختيال والفخر والبخل » ، فالإيمان بالقدر يزيل من القلب أمراض الأسى والحزن على ما فات من أمر الدنيا ، وكذلك العجب ، فأين كان جهدك ونصبك في هذا الغيب البعيد قبل الخلق بخمسين ألف سنة حتى تنسب الفضل لنفسك وتفخر به وتختال ، وقد أعطاكه الله قبل أن تولد ، بل قبل أن توجد الأرض ومن عليها ، وهذا من أحسن مقامات تقرير العبودية .

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ومَا قُدِّرَ مِنَ المصائبِ يجبُ الاستسلامُ له ، فإنَّه من تَمَامِ الرِّضَى باللهِ ربًا (١) .

قال : وأمَّا الذنوبُ ، فليس للعبدِ أن يُذْنِبَ ، وإذا أذْنَبَ فعليه أن يستغفرَ ويتوبَ ، فيتوبُ من صنوفِ المعايبِ ، ويصبرُ على المصائبِ .

قَالَ تعالى : ﴿ **فاصْبِرْ إنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ واسْتَغْفِرْ لذَنْبِكَ** ﴾ [غافر : ٥٥] . وقَالَ تعالى : ﴿ **وإن تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا** ﴾ [آل عمران : ١٢٠] ، وقَالَ تَعالى : ﴿ **وإن تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا فَإنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ** ﴾ . [آل عمران : ١٨٦] . وقَالَ يوسفُ عليه السلام : ﴿ **إنَّهُ مَن يَتَّقِ ويَصْبِرْ فَإنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [يوسف : ٩٠] .

وكَذَلكَ ذنوبُ العبادِ ، يجبُ على العبدِ فيها أن يَأْمُرَ بالمعروفِ ويَنْهَى عن المنكرِ بحسبِ قدرَتِه ، ويُجاهدَ في سبيلِ اللهِ الكفَّارَ والمنافقين، ويُوالي أولياءَ اللهِ ، ويُعادي أعداءَ اللهِ ، ويحبَّ في اللهِ ويُبْغِضَ في اللهِ ، كَما قَالَ تَعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا**

---

(١) كلام شيخ الإسلام هنا فيه نظر ، فالذي لا شك فيه أن موسى لام آدم – عليهما السلام – على الذنب الذي ترتبت عليه المصيبة ولو تتبع شيخ الإسلام الروايات لظهر ذلك ، فقد رواه أبو سلمة عن أبي هريرة بلفظ : « أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك » ، ورواه عمرو بن أبي عمرو عن الأعرج عن أبي هريرة : « فنهاك عن شجرة واحدة فعصيت » ورواه محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة : « فبكم تجد في التوراة أنه كتب عليّ العمل الذي عملته قبل أن أخلق ، قال : بأربعين سنة ، قال : فكيف تلومني عليه » ، وهذا صريح في أنه إنما لامه على الذنب ومثله رواية مسلم « قال آدم : فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن يخلقني ؟ ، قال : بأربعين سنة قال : فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى ؟ ، قال : نعم ، قال : فكيف تلومني على أمر قد كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟ » .

جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ

وفي رواية يزيد بن هرمز عن أبي هريرة « فأهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض » ، وفي رواية حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة : « أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنَّة » .

فهذا كله يدل على أن آدم عليه السلام إنما احتج بالقدر على الذنب ولكن بعد التوبة ، ولو أن نبي الله موسى عليه السلام استحضر وقت المحاجة أنه لا يصح اللوم على الذنب بعد التوبة لما عاتب ، وأما القول بأن موسى أعلم من أن يلوم أباه على ذنب قد تاب منه ، فالمصائب أولى عند جميع العقلاء أن لا يلام عليها ، ولذلك كانت حجة موسى عليه السلام ضعيفة ، ولذلك قال ﷺ : « فحج آدم موسى » ، وقد تقدم أن الذنب بعد التوبة بمنزلة المصيبة ، أما قبل التوبة المقبولة فالعبد لا يزال مكلفًا بإزالة أثر الذنوب عن نفسه ، فإذا احتج بالقدر قيل له : كلمة حق يراد بها باطل لأنه يريد أن يبرئ نفسه بالقول بأن الله قدر ذلك فهو يرضاه حيث قدره .

وفي قصة كعب بن مالك رضي الله عنه قوله :« فهممت أن أرتحل فأدركهم فياليتني فعلت غير أنه لم يقدر لي ذلك » [متفق عليه من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه] ففي قوله : «ياليتني فعلت» إظهار للندم الذي هو من كمال التوبة ، فما زال يؤكد على ندمه وهو في ذات الوقت يعزي نفسه بأن ذلك لم يقدر له ، ولا شك أن تخلفه عن رسول الله ﷺ كان ذنبًا ، ولكن ماذا عساه أن يصنع غير ما صنع وهو لا يزال نادمًا تائبًا مُقرًا بذنبه خائفًا من ربه .

أما من يصر على الباطل ويتمادى فيه ثم لا يظهر منه ندم على فعله ولا إقلاع عن ذنبه ولا رجوع إلى ربه ، ويقول : هذا قدره الله عليّ فهذا مستهزئ بأحكام الشريعة معتل على الله بعلة إبليس اللعينة الذي يحاربه ويعاديه ويعزم على معصيته ويقول ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) ﴾ وأما من وقع في الذنب فأظهر الندم وسعى في التوبة وظهرت علامات قبولها منه فإذا احتج بالقدر فقد شابه أباه ، ومن شابه أباه فما ظلم .

أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة ١ ـ ٤] [١] .

كسارق سرق فقطعت يده فأظهر الجزع من ذنبه وأحاط به ندمه وخوفه من ربه ، فقيل له : بما قدمت يداك ، فقال بما قضى الله وقدر عليّ وأنا تائب إلى الله وما زلت نادماً على عصياني مولاي ومتابعتي عدوى ، فهذا منه احتجاج صحيح وتحرير مستقيم وهو به لن يزال نادماً تائباً خائفاً من ربه حيث نهاه فعصاه متأولاً سائلاً إياه كما قدر الذنب أن يقدر قبول التوبة .

ومن لامه على ذنبه بعد توبته فهو مخطئ وإنما يلومه على شيء عسى الله أن يغفره له وقد أخذ بأسباب المغفرة وتعلق بالخوف من الله وحُسن الظن به ، والله عند ظن عبده المؤمن به ، فإن الذنب بعد التوبة بمنزلة المصيبة ، وإن الله لم يكلفه غير ذلك فكيف تكلفه أنت فوق ما كلفه الله ، ولقد قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم » [رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه] .

وقد رجح ابن القيم ـ رحمه الله ـ أن موسى عليه السلام إنما لامه على الذنب الذي ترتبت عليه المصيبة وهو الصحيح .

(١) وكان سبب نزول هذه الآية أن حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه كان راسل كفار مكة ببعض أمر رسول الله ﷺ وجاء الوحي بخبر المرأة التي ذهبت بالرسالة فسأل النبي ﷺ حاطباً عن صنيعه هذا فقال : « يا رسول الله والله ما فعلت ذلك ردة عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام ولكن أردت أن تكون لي عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي » [متفق عليه بنحوه من حديث عليّ] .

وقوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ فالذين آمنوا معه يشمل جميع الأنبياء ـ عليهم السلام ـ فإن إبراهيم لم يكن معه جماعة مؤمنة في زمنه وإنما كان معه واحد وهو ابن أخيه لوط عليه السلام والذين معه هم الذين

قال : وَقَالَ تَعالىَ : ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ

على دينه وملته ومنهجه وإن تباعدت بينهم الأزمنة والأمكنة .

﴿ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ ﴾ وفي هذا إبطال لرابطة القومية والوطنية لأن إبراهيم والذين آمنوا معه عارضوا أهل وطنهم ونابذوا قومهم وتبرأوا منهم، فتلك الروابط الجاهلية لا يجوز بناء الحب والبغض عليها وهي إن ربطت بينهم اليوم حلت عقدها غداً ، حتى يصير بعضهم لبعض عدواً ، وإنما تقتضي هذه الروابط مزيد النصح والدعوة إلى الله ، ﴿ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ ، وقوله تعالى عنهم ﴿ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ فهو يتبرأ من عقيدتهم الباطلة ومن آلهتهم المزعومة ، ثم لم يقل كفرنا بآلهتكم فقط ، إنما قال كفرنا بكم ليدل على البرأة من الكفر وحصول البغض والعداوة للكفار أنفسهم ، فليس الأمر معاداة لأمور نظرية غائية عن الواقع بل من يمثل الكفر وينتصر له لابد من وجود العداوة والبغضاء منه كما قال تعالى عنهم ﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا ﴾ يعني ظهر ذلك بيننا وبينكم حتى تؤمنوا ولا يلزم من تلك العداوة قتال في كل الأحوال ، فإن إبراهيم لم يؤمر بقتال وكثير من الرسل لم يؤمروا بقتال ، فالعداوة والبغضاء لازمة أبداً حتى يحكم الله بينهم فيما كانوا فيه يختلفون .

وهذه مسألة يغلط فيها كثير من الناس ممن يعجز عن مجاهدتهم فيقع في حبهم وموالاتهم ، والصحيح أن تلك المسائل العقائدية أعمال قلبية ، أول ما تكون وهي مقدورة لكل أحد اذ لا سلطان لأحد على قلب أحد إلا الله عز وجل مقلب القلوب ثم تكون الأمور العملية من هجرة أو قتال أو غير ذلك حسب القدرة وحسب التكليف الشرعي في كل حال ، فلابد إذاً من الحب في الله والبغض في الله والموالاة والمعاداة حتى مع من لا يقاتلون كالمعاهدين والذميين ومن لم يشرع قتالهم بوجه عام .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ تمام الإعلام بإظهار العداوة والبغضاء ، وفي قوله ﴿ أَبَدًا ﴾ دوامها وفي قوله ﴿ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا ﴾ بيان قصر الجمع على

اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ (١) [المجادلة : ٢٢] .

قال : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) ﴾ [القلم : ٣٥] .

قال : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) ﴾ [ص : ٢٨] .

قال : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الإيمان وإنه الشيء الوحيد الذي يؤلف بيننا وبينكم وإلا يكن فإنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ، وهذا يلزم منه تمام النفور والإعراض عنهم ، فلا نبدأهم بالسلام ولا نهنؤهم بأعيادهم ، ولا نشيع ميتهم وهم يرفعون الصليب ويمشون خلفه يقودهم إلى النار ، وإذا جلسوا في سرادقاتهم ومحافلهم قالوا في خطبهم باسم الأب والابن والروح القدس والرب يسوع المسيح وغير ذلك ، مما تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ، ولا نتشبه بهم ولا نتابعهم على باطلهم ولا نناصرهم وندخل تحت لوائهم وقيادتهم .

(١) فنفى الله الإيمان بالله واليوم الآخر عمن أحب الكفار وودهم ، ولو كانوا أقرب الناس إليه من الآباء والأبناء والإخوة والعشيرة ، ومن علامة النفاق أن ينابذهم المؤمنون بالعداوة والبغضاء ثم تجد قوماً يصرحون بمحبتهم ويسارعون فيهم ولما يعلموا أن الحب في الله والبغض فيه من أوثق عرى الإيمان .

وكثير من الناس ممن ينتسب إلى الإسلام يزعم أن اليهود والنصارى الذين غضب الله عليهم ولعنهم إخوانهم ، فإن أنكر عليهم منكر واعترض عليهم قالوا : أليس قد خلقهم الله كما خلقنا وأرسل لهم رسولاً كما أرسل إلينا وأنزل عليهم كتاباً كما أنزل علينا ؟ ، فهذا مما قد يذهب بالإيمان بالكلية ومما يتعرف به على فساد الطوية ، إذ قد خلق الله الشياطين فهل تحبونهم ؟ ، وأرسل إلى فرعون وهامان وقبلهم قوم نوح وعاد وثمود فهل توالونهم ؟! .

الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) ﴾ (١) [الجاثية : ٢١] .

قال : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ (٢٠) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ ﴾ (٢) [فاطر : ١٩ - ٢٢] .

وقال : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ (٣) [الزمر : ٢٩] .

---

(١) فلا يجعل الله أولئك كهؤلاء أبداً فرق بينهم في الدنيا وفرق بينهم في الآخرة وجعل أولياءه حزبه وجعل أعداءهم حزب الشيطان وجعل حزبه الغالبين ،وجعل أعداءهم الخاسرين ، ولذلك لا تجد شيئا جُعل بين شيئين فاروقًا هو أوضح فرقانًا وأظهر تبيانًا من التفرقة بين المؤمنين والكافرين فتبًا لمن أراد التسوية بين ما فرق الله بينه .

(٢) والأعمى الكافر والبصير المؤمن والظلمات ظلمات الكفر والنفاق ، والنور نور الإيمان ، والظل حال المؤمنين الذين هم في راحة وطمأنينة وسكون ، والحرور حال الكافرين الذين هم في تعب ونكد وشقاء في الدنيا وفي القبر وفي الآخرة ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ ﴾ جماعة المسلمين ﴿ وَلا الأَمْوَاتُ ﴾ جماعة الكافرين ، وهذا كله من تمام الضددية والمخالفة بين القوم المؤمنين والذين لا يؤمنون ، وما تم للمؤمنين إيمانهم إلا بالبراءة ممن يخالفهم وينصرف عنهم .

(٣) هذا مثال العبد الذي له عدة أسياد كل منهم مخالف لغيره ، فهذا يأمره بأمر والآخر يأمره بأمر ، ويجب عليه أن يطيع كل سيد ، فهو لا يزال شقيًا مع أسياده المتعددين المختلفين ، وهذا حال المشرك الذي يعبد آلهة متعددة ضرب الله هذا العبد مثلاً له في نكده وشقائه .
﴿ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ ﴾ وهذا مثل المؤمن فهو كالعبد ليس له إلا سيد واحد يأمره فيطيعه وليس لغيره فيه نصيب ، فالمؤمن ليس له إلا رب واحد يعبده والكافر له أرباب متفرقون ﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ ؟ ، وقد ذكر شيخ الإسلام هذه الأدلة ليبرهن على أنه لا يستوى هذا وذاك وأنه لابد من الحب في الله والبغض في الله .

قال : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦) ﴾ [١] [النحل : ٧٥ – ٧٦] .

وقال : ﴿ لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) ﴾ [الحشر : ٢٠] . ونظائرُ ذلك مِمَّا يفرِّقُ اللهُ فيه بين أهلِ الحقِّ وأهلِ

---

(١) اختلف أهل العلم في هذين المثلين ، فمنهم من قال هذا مثل للوثن وللرب سبحانه فالوثن لا يقدر على شيء فمثله مثل العبد المملوك الذي لا يقدر على شيء ، والرب سبحانه ينفق كيف يشاء وهو الذي يُحسن إلى غيره .
وكذا قوله : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ فالوثن مثله مثل هذا الأبكم لا ينطق بخير ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ ﴾يعني حمل وثقل على وليه وكذلك الوثن حمل على من عبده فهو الذي ينقله وهو الذي ينظفه وهذا حال تلك الأوثان التي تُعبد من دون الله تحتاج إلى من يعبدها كما قال تعالى ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ فهم مسخرون كي تظل الألهة التي يعبدونها مهيأة لذلك ، والله عز وجل هو الذي يعطي ويمنع وينفق كيف يشاء بيده خزائن السموات والأرض . وهذا هو القول الأول في تفسير الآية .
والقول الثاني : أن هذا مثل المؤمن والكافر وكأن الشيخ يرجح هذا لأنه جاء به في مقام التفرقة بين المؤمنين والكافرين وأنهم لا يستوون ، فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء هو الكافر لأنه عبد لشهواته محبوس عليها لا يقدر على شيء من الخير ،هل يستوي هو ومن رزقناه منا رزقًا حسنًا وهو المؤمن ، وهذا القول أرجح من سابقه ، فالمؤمن رزقه الله الإيمان وإن أثر إيمانه ليظهر عليه في السر والجهر ، وأما الكافر فإنما هو حبيس هواه ،وكذا المثل الآخر فالكافر أبكم لا ينطق بالحق وهو لا يقدر على شيء من الخير لفساده وعلمه وإرادته ، والمؤمن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم .

والباطلِ ، وأهلِ الطاعةِ وأهلِ المعصيةِ ، وأهلِ البرِّ وأهلِ والفجورِ ، وأهلِ الهدى وأهلِ الضَّلالِ ، وأهلِ الغيِّ وأهلِ الرَّشادِ ، وأهلِ الصِّدقِ وأهلِ الكذبِ (١) .

قال : فَمَنْ شَهِدَ الحقيقةَ الكونيةَ دون الحقيقةِ الدينيَّةِ ، سوَّى بين هذه الأجناسِ المختلفةِ التي فَرَّقَ اللهُ بينها غايةَ التفريقِ ، حتَّى تؤولَ به هذه التسويةُ إلى أن يُسَوِّيَ بين اللهِ وبين الأصنامِ ، كما قالَ تعالى عنهم : ﴿ **تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨)** ﴾ (٢) [الشعراء : ٩٧ ، ٩٨] .

قال : بلْ قد آلَ الأمرُ بهؤلاءِ إلى أن سَوَّوْا اللهَ بكلِّ موجودٍ ، وجعلوا ما يستحقُّه من العبادةِ والطَّاعةِ حقًا لكلِّ موجودٍ ، إذ جعلوه هو وجودَ المخلوقاتِ ، وهذا من أعظمِ الكفرِ والإلحادِ بربِّ العبادِ ، وهؤلاء يصلُ بهم الكفرُ إلى أنَّهم لا يشهدون أنَّهم عبادُ اللهِ ، لا بمعنى أنَّهم مَعَبَّدُونَ ، ولا بمعنى أنَّهم عابدون ، إذ يشهدون أنفسَهم هي الحقَّ ، كما صرَّحَ بذلكَ طواغيتُهم ؛ كابن عربي (٣) صاحبِ

---

(١) أراد رحمه الله أن يبين أن ذنب العبد لابد أن يتوب منه ، وأن ذنوب العباد لابد أن تكره وتُبغض في الله ، فإن الله عز وجل فرق بين الطاعة والمعصية وبين الكفر والإيمان ، وجعل الحزبين غير متحابين ولا متوادين ولا متواصلين بل هما المتباغضان المتنابذان ، فلا يجوز التسوية بينهما بزعم شهود القدر والحقيقة الكونية .

(٢) وهم إنما سووهم به في العبادة ، فعبدوا تلك الأصنام مع الله ، وإنما أتوا من قبل قولهم ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا من شَيْءٍ ﴾ ، فلا بد من شهود الحقيقة الكونية والشرعية جميعًا معًا فتشهد أن الأمور كلها لله وتصريفها بقضائه وقدره وتشهد أنه أحب منها أمورًا وكره أمورًا وأمر بأمور ونهى عن أمور فتحب ما أحب وتُبغض ما أبغض وتوالي أولياءه وتُعادي أعداءه .

(٣) ابن عربي : هو أبو بكر محيي الدين محمد بن علي بن محمد الحاتمي الطائي الأندلسي ، وألَّفَ « الفتوحات المكية » و « الفصوص » وغيرهما ، وهو ممَّن يقولُ بوحدةِ الوجودِ ، وأنَّ العبدَ عينُ الربِّ ، والرَّبَّ عينُ العبدِ ، وهو القائلُ في

« الفصوص » وأمثالِه من الملحدين المفترين كابن سبعين ⁽¹⁾ وأمثالِه ، ويشهدونَ أنَّهم هم العابدون والمعبودون .

وهذا ليس بشهودٍ للحقيقة لا الكونية ولا الدينية ، بل هو ضلالٌ وعمًى عن شهود الحقيقةِ الكونيَّةِ ، حيثُ جعلوا وجُودَ الخَالقِ هو وجودَ المخلوقِ ، وجعلوا كلَّ وَصْفٍ مذمومٍ وممدوحٍ نَعْتًا للخالقِ والمخلوقِ ، إذ وجودُ هذا هو وجودُ هذا عندهم ⁽²⁾ .

« فصوصه » في تعريف ربِّه : « هو عينُ ما ظهرَ ، وهو عينُ ما بَطَنَ في حال ظهورِه ، وما ثَمَّ مَنْ يراه غيره ، وما ثَمَّ مَنْ يبطنُ عنه ، فهو ظاهرٌ لنفسه ، باطنٌ عنه ، وهو المسمّي أبا سعيد الخرَّاز ، وغير ذلك من أسماء المرئيات » .

(1) ابن سبعين : هو أبو محمد عبد الحقِّ بن إبراهيم بن محمد بن نصر الأشبيلي ، وهو من القائلين بوحدة الوجود أيضًا .

(2) هؤلاء هم الاتحادية وهم كفار خارجون من الثنتين وسبعين فرقة من فرق الأمة نوعًا وعينا ، وهم يصرحون بأنواع الكفر الذي يناقض أصل هذا الدين صراحة من التصريح بألوهية كل شيء وأن لا فارق بين العابد والمعبود ، كما يقول قائلهم :

العبد رب والرب عبد ... فياليت شعري من المكلف
إن قلت عبد فذاك رب ... وإن قلت رب أنّى يكلف

ويقول إبراهيم الدسوقي في تائيته وهو يتحدث عن إلهه ومحبوبه ـ تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ـ :

تجلى لي المحبوب في كل وجهة ... فشاهدته في كل معنى وصورة
وخاطبني مني بكشف سرائري ... فقال أتدري من أنا قلت مُنيتي
فأنت مُنائي بل أنا أنت دائماً ... إذا كنت أنت اليوم عين حقيقتي
فقال كذاك الأمر لكنه إذا ... تعينت الأشياء كنت كنسختي
فأوصلت ذاتي باتحادي بذاته ... بغير حلول بل بتحقيق نسبتي

[الطبقات الكبرى للشعراني (جـ ١ ، ص ١٨٣ - ٢٠٢)] .

وأمَّا المؤمنون بالله ورسوله، عوامُّهم وخواصُّهم، الذين هم أهلُ القرآن ، كما قَالَ النَّبيُّ ﷺ : « **إنَّ لله أهلين من النَّاس** » ، قيلَ : مَنْ هُم يا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : «**أهْلُ القُرآن ، هُمْ أهْلُ الله وخَاصَّتُهُ** » [١] . فهؤلاء يعلمون أنَّ اللهَ ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُهُ وخالقُهُ ، وأنَّ الخَالقَ سبحانهُ مباينٌ للمخلوقِ ، ليس هو حَالٌ فيه

ويقول ابن الفارض في نظم السلوك وهو يتكلم عن الذات الإلهية ـ تعالى الله عن قوله علواً كبيراً ـ :

لها صلواتي بالمقام أُقيمها — وأشهد فيها أنها لي صلت
كلانا مصل واحد ساجد إلى — حقيقته بالجمع في كل سجدة
وما كان لي صلى سواى ولم تكن — صلاتي لغيري في أدا كل ركعة

ويقول :

ففي الصحو بعد المحو لم أك غيرها — وذاتي بذاتي إذا تحلت تجلت

ويقول في الدفاع عن عُبَّاد الأوثان والنيران واليهود والنصارى وأن الإنكار عليهم تعصب لا وجه له :

وإن خرّ للأحجار في البيد عاكف — فلا وجه للإنكار بالعصبية
وإن عبد النار المجوس وما انطفت — كما جاء في الأخبار في ألف حجة
فما قصدوا غيري وإن كان قصدهم — سواي وإن يظهروا عقد نية
رأوا ضوء نوري مرة فتوهموه — ناراً فضلوا في الهدى بالأشعة
وما عقد الزنار حكماً سوى يدي — وإن حُل الإقرار بي فهي حلت
وإن نار بالتنزيل محراب مسجد — فما بار بالإنجيل هيكل بيعة
وما زاغت الأبصار من كل ملة — وما راغ بالأفكار في كل نحلة

فإذا علمت هذه العقائد تيقنت أنها تخالف أصل دين الإسلام بالكلية رغم أن أتباعها يرون قائليها سادات الأولياء ، ولذا شدد شيخ الإسلام ابن تيمية النكير وأكد مسألة الفرقان بين الحق والباطل في مواضع شتى من كتبه رحمه الله تعالى .

(١) أخرجه : ابن ماجة في « المقدمة » من « سُننه » عن أنس بن مالك رضي الله عنه وفيها : في الزوائد إسناده صحيحٌ ،« سُنن ابن ماجة » (١ / ٧٨ / ٢١٥) . وأخرجه : أحمد في

ولا مُتَّحدٌ به ، ولا وجودُه وجودَه ، والنَّصارى إنَّما كَفَّرَهُم اللهُ إذ قالوا بالحلول واتحادِ الربِّ بالمسيح خاصَّةً ، فكيفَ مَنْ جَعَلَ ذلك عامّاً في كلِّ مخلوقٍ ؟!! .

ويعلمون مَع ذَلكَ أنَّ اللهَ أمَرَ بطاعته وطاعة رسوله ﷺ ، ونهَى عنْ معصيته ومعصية رسوله ﷺ ، وأنَّه لا يُحبُّ الفَسَادَ ، ولا يرضى لعباده الكفرَ ، وأنَّ على الخلقِ أن يعبدوهُ فيطيعوا أمره ، ويستعينوا به على كلِّ ذلك ، كما قَالَ في فاتحة الكتابِ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ [الفاتحة : ٥] .

ومنْ عبادتِه وطاعتِه : الأمرُ بالمعروفِ والنَّهْيُ عن المنكرِ، بحسب الإمكان ، والجهادُ في سبيله لأهلِ الكفرِ والنِّفاقِ فيجتهدونَ في إقامة دينه مستعينينَ به(١) ، دافعين مزيلين بذلك ما قُدِّرَ من السَّيئات ، بذلك ما قد يُخَافُ من آثارِ ذلك،كما يُزيلُ الإنسانُ الجوعَ الحاضرَ بالأكلِ ، ويَدْفَعُ به الجوعَ المستقبلَ ، وكذلك إذا آن أوانُ البرد دَفَعَهُ باللِّبَاسِ ، وكذلك كلُّ مطلوبٍ يُدْفَعُ به كل مكرُوه ، كما قَالوا للنَّبيِّ ﷺ : يَا رَسُولَ اللهِ أرأَيْتَ أدْويَةً نَتَداوىَ بهَا ، وَرُقًى نَسْتَرْقي بهَا ، وَتُقًى نَتَّقي بهَا هَلْ تَرُدُّ منْ قَدَرِ اللهِ شَيْئًا؟ فَقَالَ: « **هيَ منْ قَدرِ اللهِ** »(٢) . وفي

«مسنده» (٣/ ١٢٧ ، ١٢٨ ، ٢٤٢) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه بسند صحيح ، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ ، وصححه المنذريُّ في «الترغيب والترهيب» .

(١) بخلاف من يرون الملل كلها شيئًا واحداً ، وأن من عبد غير الله فقد عبده سبحانه وضلوا في الهدى كما مر بك من أشعارهم، فلا يرى فرقًا بين الطاعة والمعصية،والإيمان والكفر ، فلا أمر بالمعروف ولا نهي عن المنكر ،ولا جهاد لأعداء الله ولا غرابة أن نجد أعداء الإسلام يحبذون نشر هذه المذاهب المنحرفة ويقولون أن الحل في هذا النوع من التصوف .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٤٢١) ، عن ابن أبي خزامة به ـ وهو مجهول ـ عن أبيه ، وابن ماجه والترمذي وقال : هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ ، وقد ضعَّف الشيخُ الألباني - رحمه الله - « ضعيف سُنن ابن ماجة » رقم (٧٤٩) .

الحديث : « **إِنَّ الدُّعَاءَ وَالْبَلاءَ لَيَلْتَقِيَانِ ، فَيَعْتَلِجَانِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ** »[1] .

فـهـذا حَالُ المؤمنينَ باللهِ ورسـولِه ، العـابـدين للهِ ، وكلُّ ذلك من العـبـادة ، وهؤلاء الذين يشـهـدُون الحـقـيـقـة الكونيـةَ – وهي ربوبيتُـهُ تَعالىَ لكلِّ شيءٍ ، ويجعلونَ ذلك مانعًا من اتِّبَاعِ أمرِهِ الدينيِّ الشرعيِّ على مَرَاتبَ في الضَّلال .

فَغُلاتُهم يجعلون ذلك مطلقًا عامًا ، فيحتجُّون بالقَدَرِ في كلِّ ما يخالفون فيه الشريعةَ .

وقَولُ هؤلاءِ شرٌّ من قولِ اليـهـود والنَّصَارى ، وهو منْ جنسِ قولِ المشركين الذين قَالوا : ﴿ **لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا من شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام : ١٤٨] ، وقالوا : ﴿ **لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم** ﴾ [الزخرف : ٢٠] .

وهؤلاء من أعظمِ أهلِ الأرضِ تناقضًا،بل كلُّ مَنِ احتجَّ بالقَدَرِ فإنَّه متناقضٌ ؛ فإنَّه لا يُمكن أن يُقرَّ كلَّ آدميّ على ما يفعلُ ، فلا بُدَّ إذا ظَلَمَهُ ظالمٌ ، أو ظَلَمَ النَّاسَ ظَالمٌ ، وسعى في الأرضِ بالفسادِ ، وأخَذَ يسفكُ دماءَ النَّاسِ ، ويستحلُّ الفروجَ ، ويُهلك الحرثَ والنَّسْلَ ، ونحو ذلك من أنواعِ الضَّرَرِ التي لا قَوامَ للنَّاسِ بها ، أن يدفعَ هذا القَدَرَ ، وأن يُعَاقِبَ الظالمَ بما يَكُفُّ عُدْوَانَهُ وعُدْوَانَ أمثاله .

فيُقَالُ له : إن كانَ القَدَرُ حُجَّةً ، فَدَعْ كُلَّ أحدٍ يفعلُ ما يشاءُ بك وبغيرك ؛ وإن لم يكن حُجَّةً ، بَطَلَ أَصْلُ قولِك : إنَّ القَدَرَ حُجَّةٌ .

وأصحابُ هذا القولِ الذين يحتجُّون بالحقيقةِ الكونيَّة ، لا يُطَرِّدون هذا القولَ ولا يلتزمونه ، وإنَّما هم يتَّبعون آراءَهم وأهواءَهم ؛ كما قَالَ فيهم بعضُ العلماءِ : أَنتَ عند الطَّاعَةِ قَدَريٌّ ، وعند المعصيةِ جَبْرِيٌّ ، أيُّ مذهبٍ وَافَقَ هَواكَ

---

(١) **رواه الطبراني والحاكم والبزار من حديث عائشة رضي الله عنها بنحوه وإسناده جيد ، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ « سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (١٥٤) .**

تَمَذْهَبْتَ بِهِ [١] .

قال : ومنهم صِنْفٌ يدَّعون التحقيقَ والمعرفةَ ، ويزعمون أنَّ الأمرَ والنَّهْيَ لازمٌ لَمنْ شَهِدَ لنفسه فعالاً ، وأثبتَ له صنعًا ، أمَّا مَنْ شَهِدَ أنَّ أفعالَة مخلوقةٌ ، أو أنَّه مجبورٌ على ذلك ، وأنَّ اللهَ هو المتصرِّفُ فيه كما يحرِّكُ سائرَ المتحركات ، فإنَّه يرتفعُ عنه الأمرُ والنهيُ ، والوعدُ والوعيدُ [٢] .

قال: وقد يقولون :مَنْ شَهِدَ الإرادةَ سَقَطَ عنه التكليفُ،ويزعمون أنَّ الْخَضِرَ [٣]

---

(١) يعني : فيقول عند الطاعة أنا عملت وعملت ، وينسب الفضل لنفسه ويحب أن يثني عليه الناس بما أصاب من نعمة الله وهو عند المعصية جبري يقول : ماذا عساي أن أعمل وهذا قضاء وقدر جرى عليّ من الله .

(٢) فيزعمون أن قضية الاحتجاج بالقدر خاصة وعامة فالعوام لابد لهم من أمر ونهي ووعد ووعيد ، أما الخواص الذين شهدوا أن أفعال العباد مخلوقة فهؤلاء ليس عليهم أمر ولا نهي ، ولا وعد ولا وعيد ، فلا يجعلون القدر حجة لكل أحد ، ولكن من شهد الحقيقة فلا أمر عليه ولا نهي ، أما الذين يظلمون من الناس فيقولون عنهم : هؤلاء من العوام فهم مسئولون عن أعمالهم ومحاسبون عليها .
فالعوام لا يشهدون أن الإرادة الإلهية وراء كل شيء حيث يستشعرون أعمالهم وأنهم أصحابها ، أما الخواص الذين شهدوا الإرادة فكلما نظر أحدهم إلي شيء أيقن أن الله من وراء ذلك ، فإذا استشعر ذلك حتى في أفعاله سقط عنه التكليف ، وهذا أيضًا من الكفر والزندقة إذ قد آمن الرسل جميعًا بالقدر وشهدوه وما تركوا الأمر والنهي والحق أنه لابد من شهود الجمع والفرق ، فبالجمع يعلم أن كل شيء مردود إلى أمر الله ، وبالفرق يعلم أن هناك أشياءً محبوبة لله وأخرى مكروهة له، وأن العبد يفعل بإرادته ما قدره الله له وطالما خلق له إرادة فهو محاسب مسئول، فيشهد الجمع ولا يغيب به عن الفرق والفرق به يتم اثبات إرادة العبد وأن لها أثرًا في الفعل البشري .

(٣) الْخَضِرْ : هو العبدُ الصالحُ ، صاحبُ موسى عليه السلام ، قال الله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الكهف : ٦٥].

سَقَطَ عنه التكليفُ لشهوده الإرادةَ (١) .

قال : فهؤلاء يفرِّقون بين العامَّة ، والخاصَّة الذين شهدوا الحقيقةَ الكونيةَ ، فشهدوا أنَّ اللهَ خالقُ أفعال العباد ، وأنَّه مريدٌ ، ومدبِّرٌ لجميع الكائنات وقد يفرِّقون بين مَنْ يعلمُ ذلك علمًا ، وبين مَنْ يراه شهودًا فلا يُسقطون التكليفَ عمَّنْ يُؤمنُ بذلك ويعلمُه فقط ، ولكنْ يسقطونه عمَّنْ يَشهدُهُ ، فلا يرى لنفسه فعلاً أصلاً (٢) .

قال : وهؤلاء لا يجعلون الجبرَ وإثباتَ القَدَرِ مانعًا من التكليفِ على هذا

---

(١) والصواب في مسألة الخضر أن خرقه السفينة وقتله الغلام وإقامته الجدار كان طاعة لله تعالى منه ولذلك قال: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ فإنه كانت له شريعة مستقلة عن شريعة موسى فلم يسقط عنه التكليف فإن هذا من اختلاف الشرائع. وقد اختلف فيه ـ في الخضر ـ هل هو نبي أو ليس بنبي والصحيح الوقف وعدم القطع بشيء من ذلك ، لأن إثبات نبوته يحتاج إلى دليل واضح وكذا انتفاؤها ، ولكن أمره إنما كان عن الله ، بالوحي مباشرة إن كان نبيًا أو عن طريق نبي أوحى الله إليه وأمره أن يأمر الخضر بذلك إن لم يكن نبيًا ، فالمقطوع به أن هذه الأوامر من عند الله ، فانشغل هؤلاء عن حكمه المقطوع به بشبهة المشكوك فيه وهؤلاء كالذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة .

(٢) وتحرير ذلك عندهم أن يقال : لو سألت أفسق الناس من المسلمين ممن لا يتورع عن ذنب عن الجنة والنار لأقر بوجودهما ولآمن بهما ، ولكنه ليس كإيمان رجل بهما لو سألته عنهما بكى رغبة ورهبة ، فإن الأول يعلم ولكن لا شهود عنده فلا يستحضر هذا الأمر كانه يراه بخلاف الآخر ، فكذلك لو سألت الناس : هل هناك إرادة لله في خلقه لقالوا : نعم ، ولكن مجرد الإقرار لا يسقط عنهم التكليف ، إنما يسقط التكليف عمن شهد الإرادات الربانية وغاب بها عن شهود إرادة المريدين سواه ، فهذا تحرير قولهم وهو في غاية الضلال مع السفه وضعف العقل ، فإنه به تخرج طائفة من الناس عن العبودية أصلاً بإسقاط التكليف عنهم لأن عندهم أن الأوامر الشرعية تنافي شهود الحقيقة الكونية .

الوجهِ ، وقد وقعَ في هذا طوائفُ من المنتسبين إلى التحقيق والمعرفةِ والتوحيدِ .

وسببُ ذلك: أنَّه ضاقَ نطاقُهُم عن كونِ العبدِ لا يُؤْمَرُ بما يُقَدَّرُ عليه خلافُه ، كما ضاق نطاقُ المعتزلةِ ونحوهم من القدريةِ عن ذلك .

ثمَّ المعتزلةُ أثبتت الأمرَ والنهيَ الشرعيين دون القضاءِ والقدرِ ، اللَّذَين هما إرادةُ اللهِ العامَّةُ وخَلْقُهُ لأفعالِ العبادِ ، وهؤلاء أثبتوا القضاءَ والقَدَرَ ، ونَفَوْا الأمرَ والنَّهْيَ في حقِّ مَنْ شَهِدَ القَدَرَ؛ إذ لم يمكنهم نفي ذلك مطلقًا، وقولُ هؤلاءِ شَرٌّ من قولِ المعتزلةِ ؛ لهذا لَمْ يكن في السَّلَفِ من هؤلاء أحدٌ ، وهؤلاء يجعلون الأمرَ والنهيَ للمحجوبين الذين لم يشهدوا هذه الحقيقةَ الكونيةَ،ولهذا يسقطون عَمَنْ وَصَلَ إلى شهودِ هذه الحقيقةِ الأمرُ والنهيُ، ويقولون: إنَّه صار من الخاصَّة، وربَّما تأوَّلوا على ذلكَ قوله تعالىَ: ﴿ **وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ** ﴾ [الحجر: ٩٩] فاليقينُ عندهم هو معرفةُ هذه الحقيقةِ،وقولُ هؤلاء كفرٌ صريحٌ (١).

قال: وإن وَقَعَ فيه بالتقليد طوائفُ لم يعلموا أنَّه كفرٌ (٢).

---

(١) فالشريعة عندهم للمحجوبين الذين حجبوا عن شهود إرادة الله لأنهم حجبوا أصلاً عن تلك المعارف الربانية وإنما الأمر والنهي للعوام ، وأما الخاصة فقد حسن انقيادهم فلا يحتاجون إلى وعد ووعيد وزجر وتهديد ونهاية قولهم أن رسول الله ﷺ لم يأته اليقين من ربه لأنه ظل يعبد الله إلى أن مات ، وهذا يقتضي كفر هؤلاء بغير شك .

وكذلك استحلال ترك الواجبات مما هو معلوم من الدين بالضرورة كترك الصلوات الخمس وترك صيام رمضان وغير ذلك وكذا استحلال فعل المحرمات بزعم أنه وصل إلى اليقين كفر ناقل عن الملة .

(٢) ومثل هؤلاء قد يكون وقع لهم في الأمر شبهة ، ولا يحتاج الأمر إلى إقامة الحجة في مثل الصلوات الخمس وصوم رمضان ، وفعل الفواحش من الزنا ونحوه ، لأن الحجة بهذا قائمة على كل أحد وهي من المعلوم بالدين بالضرورة ، فلا يعذر أحد =

قال : فإنَّه قد عُلِمَ بالأضطرارِ من دينِ الإسلام : أنَّ الأمرَ والنَّهْيَ لازمان لكلِّ عبدٍ ما دامَ عقلُهُ حاضرًا إلى أن يموتَ ، لا يسقطان عنه ، لا بشهودِه القَدَرَ ، ولا بغيرِ ذلك ، فَمَن لم يعرف ذلك عُرِّفَهُ وبُيِّنَ له ، فإن أصرَّ على اعتقادِ سقوطِ الأمرِ والنهي فإنَّه يُقْتَلُ كُفرًا ، وقد كَثُرَتْ مثلُ هذه المقالاتِ في المستأخرين ، وأمَّا المتقدِّمون من هذه الأمَّة ، فلم تكن هذه المقالاتُ معروفةً فيهم ، وهذه المقالاتُ هي محادَّةٌ للهِ ورسولِه ، ومعاداةٌ له ، وصَدٌّ عن سبيلِه ، ومشاقَّةٌ له ، وتكذيبٌ لرسُلِه ، ومضادَّةٌ له في حكمِه ،وإن كَانَ مَنْ يقولُ هذه المقالاتِ قد يجهلُ ذلك ، ويعتقدُ أنَّ هذا الذي هو عليه ، هو طريقُ الرسولِ ، وطريقُ أولياءِ اللهِ المحقِّقين ، فهو في ذلكَ بمنزلةِ مَنْ يعتقدُ أنَّ الصلاة ، لا تجبُ عليه ؛ لاستغنائه عنها بما حصلَ له من الأحوالِ القلبية ، أو أنَّ الخمرَ حلالٌ له ؛ لكونِه من الخواصِّ الذين لا يضرُّهم شُرْبُ الخمرِ ، أو أنَّ الفَاحِشَةَ حَلالٌ له ؛ لأنَّه صار كالبحرِ لا تُكَدِّرُهُ الذنوبُ ونحو ذلك .

فلا ريبَ أنَّ المشركين الذين كذَّبوا الرسلَ يتردَّدون بين البدعةِ المخالفةِ لشرعِ اللهِ ، وبين الاحتجاجِ بالقَدَرِ على مخالفةِ أمرِ اللهِ ، فهؤلاء الأصنافُ فيها شَبَهٌ من المشركين ؛ لأنَّهم إمَّا أن يبتدعوا ، وأمَّا أن يحتجُّوا بالقَدَرِ ، وإمَّا أن يجمعوا بين الأمرين [١] .

في تأويل يتأوله في تركها استحلالاً ، إلا أن يكون في بيئة يحتمل فيها أن يخفى عليه مثل ذلك ، فهذا يحتاج الأمر فيه إلى إقامة الحجة عليه قبل تكفيره .

(١) والحقيقة أن من يتأول هذا التأويل لا عذر له في بلاد الإسلام وقد انتشر بين الناس علم ذلك بلا خلاف بينهم فيه وهم يقرأون القرآن ويعلمون وجوب الصلوات وغير ذلك ، وقد نشأ فيهم وعلم علمهم فلو تأول أي تأويل فإنه لا يُقبل منه . راجع كلام الخطابي ـ رحمه الله ـ نقله النووي في شرح مسلم » .

قال : كما قالَ تَعالى عن المشركين : ﴿ **وإذا فعلُوا فاحشةً قالُوا وجدْنا عليْها آباءنا واللَّهُ أمرنا بها قُلْ إنَّ اللَّه لا يأْمُرُ بالْفحْشاء أتقولُون على اللَّه ما لا تعْلمُون (٢٨)** ﴾ [الأعراف : ٢٨] ، وكما قالَ تعالى عنهم : ﴿ **سيقُولُ الَّذين أشْركُوا لوْ شاء اللَّهُ ما أشْركْنا ولا آباؤُنا ولا حرَّمْنا من شيْءٍ** ﴾ [الأنعام : ١٤٨] .

وقد ذكَر عن المشركين ما ابتدعوه من الدِّينِ الذي فيه تحليلُ الحرام ؛ وعبادةُ الله بما لم يَشْرَعِ اللهُ،في مثلِ قوله تَعالىَ :﴿ **وقالُوا هذه أنْعامٌ وحرْثٌ حجْرٌ لاَّ يطْعمُها إلاَّ من نَّشاءُ بزعْمهمْ وأنْعامٌ حُرّمتْ ظُهُورُها وأنْعامٌ لا يذْكُرُون اسْم اللَّه عليْها افْتراءً عليْه سيجْزيهم بما كانُوا يفْترُون (١٣٨)** ﴾ إلى آخرِ السورة [الأنعام: ١٣٨- ١٦٥] .

وكذلك في سورة الأعراف في قوله : ﴿ **يا بني آدم لا يفْتنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كما أخْرج أبويْكُم مّن الْجنَّة** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وإذا فعلُوا فاحشةً قالُوا وجدْنا عليْها آباءنا واللَّهُ أمرنا بها قُلْ إنَّ اللَّه لا يأْمُرُ بالْفحْشاء أتقولُون على اللَّه ما لا تعْلمُون (٢٨) قُلْ أمر ربّي بالْقسْط وأقيمُوا وُجُوهكُمْ عند كُلّ مسْجدٍ** ﴾ إلى قوله: ﴿ **وكُلُوا واشْربُوا ولا تُسْرفُوا إنَّهُ لا يُحبُّ الْمُسْرفين (٣١) قُلْ منْ حرَّم زينة اللَّه الَّتي أخْرج لعباده والطَّيّبات من الرّزْق** ﴾ إلى قوله :﴿ **قُلْ إنَّما حرَّم ربّي الْفواحش ما ظهر منْها وما بطن والإثْم والْبغْي بغيْر الْحقّ وأن تُشْركُوا باللَّه ما لمْ يُنزّلْ به سُلْطانًا وأن تقُولُوا على اللَّه ما لا تعْلمُون (٣٣)** ﴾ [الأعراف : ٢٧ - ٣٣] (١) .

قال : **وهؤلاءِ قد يُسمُّون ما أحدثوه من البدعِ** : حقيقةً ، كما يُسمُّون ما

---

(١) فقد ذم الله المشركين أعظم الذم على كونهم يبتدعون ويشرعون ويحللون ويحرمون وينسبون ذلك إلى أمر الله على أنه قضاء الله وقدره وهذا هو الاحتجاج بالقدر مع البدعة يقولون : لما تركنا الله وما نشاء ـ ولو شاء لما فعلنا ـ فهو يرضى ما نفعل ، وهذا من الضلال المبين .

يشهدون من القَدَرِ : حقيقةً ، وطريقُ الحقيقةِ عندهم ، هو السُّلُوكُ الذي لا يتقيَّدُ صاحبُهُ بأمرِ الشارعِ ونهيِهِ ، ولكن بما يراهُ ، ويذوقُهُ ، ويجدُهُ ونحو ذلك .

وهؤلاء لا يحتجُّونَ بالقَدَرِ مُطلقًا [١] ، بل عمدتُهم اتِّباعُ آرائِهم وأهوائِهم، وجعلُهُم ما يَرَوْنَهُ وما يَهْوَوْنَهُ حقيقةً،ويأمرون باتِّبَاعِهَا دون اتِّبَاعِ أمرِ اللهِ ورسولِهِ ، نظيرَ بِدَعِ أهلِ الكلامِ من الجهميَّةِ وغيرِهم ، الذين يجعلون ما ابتدعوهُ من الأقوالِ المخالفةِ للكتابِ والسُنَّةِ حقائقَ عقليةً يجبُ اعتقادُها ، دون ما دلَّت عليه السَّمْعيَّاتُ .

ثُمَّ الكتابُ والسُّنَّةُ ، إمَّا أن يحرِّفوا القولُ فيهما عن مواضعِهِ ، وإمَّا أن يُعرضوا عنه بالكُلِّيَّةِ ، فلا يتدبَّرونه ولا يعقلُونَهُ ، بل يقولون : نُفَوِّضُ معناه إلى اللهِ مع اعتقادِهم نقيضَ مدلولِهِ .

وإذا حُقِّقَ على هؤلاء ما يزعمونه من العقلياتِ المخالفةِ للكتابِ والسُّنَّةِ ، وُجدت جهلياتٍ واعتقاداتٍ فاسدةً . وكذلك أولئك الصوفية إذا حُقِّقَ عليهم ما يزعمونه من حقائقِ أولياءِ اللهِ ، المخالفةِ للكتابِ والسُنَّةِ ، وُجِدَتْ من الأهواءِ التي يَتَّبِعُهَا أعداءُ اللهِ لا أولياؤهُ .

وأصلُ ضلالِ مَنْ ضَلَّ ، إنَّما هو بتقديمِ قياسِهِ على النَّصِّ المُنزَّلِ من عندِ اللهِ ، وتقديمِ اتِّباعِ الهوى على اتِّباعِ أمرِ اللهِ [٢] .

---

(١) يعني : لابد لهم في مصالح دنياهم من الأخذ بالأسباب ، فلابد لهم من طعام وشراب ولباس وحركة ، فلماذا لم يكن شهود القدر مانعًا من الأخذ بهذه الأسباب ، وبهذا يعلم انتقاض حجتهم .

(٢) وهذه هي العلة الإبليسية فإن إبليس هو أول من قدم القياس على النص فإن الله أمر فقال : ﴿ اسْجُدُوا لآدَمَ ﴾ فعارضه إبليس بقياسه وقال : ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ وقد صح عن الحسن وابن سيرين قالا : أول من قاس إبليس زاد =

الذوق والوجد :

قال : فإنَّ الذَّوْقَ والْوَجْدَ ونحو ذلكَ هو بحسبِ ما يُحبُّه العبدُ ويهواه ، فكلُّ مُحبٍّ له ذَوْقٌ وَوَجْدٌ بحسبِ مَحَبَّته وهواه .

فأهلُ الإيمان لهم من الذَّوْق والوَجْد مثل ما بيَّنه النبيُّ ﷺ بقوله في الحديث الصحيح : « **ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإيْمَان : مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ،وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلا لله ، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ** » (١) .

وقَالَ ﷺ في الحديث الصحيح : « **ذَاقَ طَعْمَ الإيْمَانِ مَنْ رَضِيَ باللهِ رَبَّاً ، وَبالإِسْلامِ دِيْنًا ، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيّاً** » (٢) . وأَمَّا أهلُ الكُفْرِ والبِدَعِ والشَّهَوَاتِ ، فَكُلٌّ بِحَسَبِه (٣) .

ابن سيرين وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس . [رواهما ابن جرير] ، وهذا هو قياس العقل الفاسد لأنه لو كان عقلاً صحيحًا لعلم أن الحق ما جاء من عند الله وأن أصح ما يجده من الذوق والوجد ما وافق الكتاب والسُنَّة .

(١) متفق عليه من حديث أنس رضي الله عنه .

(٢) رواه مسلم من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه .

(٣) فأهل الإيمان عندهم ذوق ووجد لا كما عند هؤلاء فإن كلاً بحسبه فإن من كان له معشوق يجد من ذلك بحسبه ، ومن كانت له إرادة في شيء ما فأصاب منه وجد من ذلك بحسبه ، والذين يشهدون موالد أوليائهم ويزورون الأضرحة ويطوفون حولها يجدون من ذلك أيضًا فتجد أحدهم يدعي راحة في نفسه وسكينة راسخة من الذوق إذا ما زار ضريح الحسين مثلاً فإذا ما أنكرت عليه قال : أنك لم تجرب تجربتي فلم تعرف معرفتي ثم إنك لا تجد أحدًا من أهل الملل ولا صاحب هوى إلا وهو يجد من الذوق والراحة في نفسه ما يدفعه إلى القول بأنه على شيء لأن هذا المستقر لديه ليس من ورائه مطلوب يطلبه .

قال :قيل لسفيان بن عُيَيْنَةَ : ما بالُ أهلِ الأهواء لهم محبَّةٌ شديدةٌ لأهوائِهم ؛ فَقَالَ : أَنَسِيْتَ قولَه تعالىَ : ﴿ **وأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ** ﴾ ، [البقرة : ٩٣] ، أو نحو هذا من الكلامِ [١] .

قال :فَعُبَّادُ الأصنامِ يُحبُّون آلهتَهُم ، كَمَا قَالَ تَعالىَ : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ** ﴾[البقرة :١٦٥] .

وَقَالَ : ﴿ **فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ** ﴾ [القصص : ٥٠] [٢] .

وليس الشأن في أن تجد فإن الناس كلهم واجدون وتلك محنة الخلق ولكن الشأن في حقيقة هذا الوجدان فمن كانت رغبته وذوقه عند صليب مرفوع أو ضريح مصنوع هل يستوي ومن يذوق بالقرآن حلاوة الإيمان ويأنس بالقرب من الله ويستوحش مما سواه ، فإذا ما فاء صاحب الهوى إلى ربه فيئة حسنة أدرك أن الذي كان عليه من سكر الهوى ولوعة الجوى هو الذي كان أرداه غاية الردى فانصرف بالغي عن مطلب الهدى .

(١)فنسوا الله الذي أنجاهم من فرعون وعمله وعبدوا من دونه عجلاً جسداً صنعه السامري أمامهم وأحبوه غاية الحب حتى اشربت قلوبهم محبته فانصرفت أذواقهم عن محبة الله إلى محبة العجل حتى ما يجدون في أنفسهم منه بدلاً ولا عن محبته حولاً ، فسبحان الذي صرف قلوبهم عنه إلى عجل جسد له خوار

(٢)وهذا هو الميزان السليم والقسطاس المستقيم الذي لا تطفيف فيه ولا تأثيم أن من أحب شيئًا لهواه عرضه على أمر الله ، فما كان موافقًا اجتبى وقُرب وما كان مخالفًا عودي وغُرب ،وإلا ابتلى بما يجد في نفسه من أخلاط رديئة وارادات وبيئة بها يحب ما يحب ويُبغض ما يبغض وعندها ذوقه ووجده فيصبح وغاية ما يهواه ما يجده وشتان ما هما من وجدين ، وجد بمستقر الهوى وآخر على الرأس والعين .

والحق أن يقال أن النفس البشرية لو صفت لما وجدت لذة في معصية ، بل تجد الألم والضيق ، وإنما السكينة الحقة في طاعة الله وما يرضيه ، وإنك لتجد الذي

وَقَالَ : ﴿ إن يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ ومَا تَهْوَى الأنفسُ ولَقدْ جاءَهُم مّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ [النجم : ٢٣] . ولهذا يميلُ هؤلاء ويُغْرَمُون بِسَمَاعِ الشِّعْرِ والأصواتِ والآلات الموسيقية التي تهيِّجُ المحبَّةَ المطلقةَ،التي لا تختصُّ بأهلِ الإيمان،بل يشتركُ فيها مُحبُّ الرحمن، ومُحبُّ الأوثان، ومُحبُّ الصُّلْبَان، ومُحبُّ الأوطان ،ومُحبُّ الإخوان، ومُحبُّ الْمُرْدَان [١] ومُحبُّ النِّسْوَان،وهؤلاء هم الذين يتَّبعون أذواقَهم ومواجيدَهم من غير اعتبارٍ لذلك بالكتابِ والسُّنَّة،وما كَانَ عليه سَلَفُ الأمَّة [٢] .

يتعاطى المخدرات ويشرب الدخان ونحو ذلك في حالة من النشوة والذوق مع خبث الرائحة وفساد الطعم ، وما أقرب ما مثل به ابن القيم ـ رحمه الله ـ ما يجده هؤلاء من لذة بما يجده الأجرب منها إذا حك جسده ، وهذا الأجرب كلما ازداد حكه ازدادت لذته وازداد مع ذلك ضرره ولا سبيل إلى انقاذه مما هو فيه إلا بعلاجه ، لأنه حدث له خلل بجسده جعله بهذه المثابة فما تجد من ملتذ هو أعجب من ملتذ كلما طاوع هواه زادت لذته فزاد ضرره .

فأشهى ملاذ المنصرفين عن الله أضر على ملتذيها من حكة المبتلي بجلده الأجرب ، فإن هذا منصرفه إلى حكة مضرة ، وأولئك منصرفهم إلى فتنة مضلة ، وهذا ضرره في بدن يبلى بعد حين ، وأولئك تموت قلوبهم فتضيع آخرتهم .

(١) جمعُ أمْرَد : والأمْرَدُ : الشابُّ الذي بَلَغَ خروجَ لحيته .

(٢) فكما يقال في الأمور الاعتقادية بعدم تقديم الأقيسة العقلية والأراء الجدلية على الأدلة السمعية فكذا يقال في الأعمال القلبية بعدم تقديم الأذواق الوجدية والأهواء النفسية على الكتاب والسُنة ، وكذا في الأمور العملية والحكمية لا نقدم أراء العلماء وأقيسة الفقهاء على الأدلة الشرعية .

ثم إنه خالف في ذلك أقوام في القضايا الاعتقادية بتقديهم العقل الفاسد والمنطق الموروث عن أهل اليونان على الأدلة السمعية القرآنية والسُنية ، وخالف آخرون في الأمور العملية لاتباعهم الأقيسة العقلية والتقليد ، وخالف في مسائل القلوب أتباع الهوى من الصوفية وأمثالهم ثم الله من ورائهم محيط يحكم بينهم فيما فيه يختلفون وهو القائل سبحانه ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

قال : فالمخالفُ لمَا بَعثَ اللهُ به رسولَهُ من عبادته وحده ، وطاعته وطاعة رسوله لا يكون مُتَّبعًا لدينِ شرعه اللهُ أبدًا ، كَمَا قَالَ تعالىَ : ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩)** ﴾ [الجاثية : ١٨ ، ١٩] ، بل يكون مُتَّبعًا لهواه بغير هدىً من الله ، قَالَ تَعالىَ : ﴿ **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ** ﴾ [الشورى : ٢١] .

وهم في ذلك تارةً يكونون على بدعةٍ يُسمُّونها حقيقةً ويقدِّمونها على ما شرعه اللهُ ، وتارةً يحتجُّون بالقَدَرِ الكونيِّ على الشريعة ، كما أخبرَ اللهُ عن المشركين ، كما تقدَّمَ ، ومنْ هولاء طائفةٌ هم أعلاهم عندهم قَدْرًا وهم مستمسكون بما اختاروا بهواهم من الدِّين في أداءِ الفرائضِ المشهورةِ ، واجتناب المحرَّمات المشهورةِ ، لكن يَضلُّون بترك ما أُمروا به منْ الأسبابِ التي هي عبادةٌ ، ظانِّين أنَّ العارفَ إذا شَهدَ القَدَرَ أعرضَ عن ذلك ، مثل مَنْ يجعلُ التوكُّلَ منهم أو الدعاءَ ونحو ذلك من مقامات العامَّة دون الخاصَّة (١) .

قال : بناءً على أنَّ مَنْ شَهِدَ القَدَرَ ، عَلِمَ أنَّ ما قُدِّرَ سيكون ، فلا حاجةَ إلى ذلك ، وهذا ضلالٌ مُبينٌ (٢) .

---

(١) ومن هؤلاء الشيخ الهروي صاحب منازل السائرين والذي يحسن الظن به شيخ الإسلام وابن القيم وهو الذي يقول عن مقام التوكل أنه من مقامات العوام ، ويجعل الدعاء من عبادات العوام ، وكذا الخوف والرجاء فهذا وأمثاله من أفضل هؤلاء ، ولكن مثل هذا القول منهم هو أصل تلك المحنة وهذا البلاء .

(٢) فيقال نعم ما قدر سيكون ولكن أضلهم في الجملة ما يوردونه من تفصيل مضل حيث أنه لابد من الأخذ بالأسباب وخاصة في المسائل الشرعية ، فإن الدعاء مثلاً من الأسباب التي يمكن أن تقدر فترفع البلاء الذي كان سينزل لولا الدعاء .

قال : فإنَّ اللهَ قدَّرَ الأشياءَ بأسبابها ، كما قدَّرَ السعادةَ والشَّقَاوَةَ بأسبابهمَا ، كما قَالَ النَّبيُّ ﷺ : « **إنَّ اللهَ خلقَ للجنَّة أهْلاً ، خلقَها لَهُمْ وَهُمْ في أصْلاب آبَائِهم ، وبعَمَلِ أهْلِ الْجنَّةِ يعْمَلُونَ ، وَخَلَقَ للنَّارِ أهْلاً ، خلقَها لَهُمْ وَهُمْ في أصْلاب آبَائِهِمْ ، وبعَمَلِ أهْلِ النَّار يعْمَلُونَ** » [١] .

وكَما قَالَ النَّبيُّ ﷺ لَمَّا أخبرهم : « **بأنَّ اللهَ كتَبَ الْمَقَادِير** » ، فَقَالُوْا : يا رَسُولَ الله : أفَلا نَدعُ الْعَمَلَ ، ونَتَّكِلُ عَلَى الْكِتَاب ؟ فَقَالَ : « **لا ، اعْمَلُوا ، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ** » [٢] يعني : مَنْ كَانَ منْ أهْلِ السَّعَادَة ، فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أهْلِ السَّعَادَة ،وأمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أهْلِ الشَّقَاوَة ، فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أهْلِ الشَّقَاوَة .

فكلُّ ما أمَرَ اللهُ به عبادَه من الأسباب فهو عبادةٌ ،والتوكُّلُ مقرونٌ بالعبادة ؛ كما في قوله تعالى ﴿ **فَاعْبُدْهُ وتَوكَّلْ عَلَيْه** ﴾ [هود : ١٢٣] ، وفي قوله : ﴿ **قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ** ﴾ [الرعد : ٣٠] ، وقول شُعيب

ومن هذا ما يذكرونه عن أحدهم أنه وقع في بئر فأراد أن يستعين بالناس ليخرجوه فتذكر أن هذا ينافي التوكل فترك ما همّ به حتى أدلى له بعض المارة حبلاً فصعد به.
فهذا أولاً مخالف لقضيته لأن تمسكه بالحبل حتى صعد مناف للتوكل على زعمه لأنه أخذ بالأسباب.
ثانيًا : أنه إنما أتى من قبل جهله وقلة عقله وربما أنقذه الله لموافقته التوكل في أصله وله منه شيء حصل له بالضرورة لأنه لابد أن يصح له منه شيء ثم غفر الله له جهله بأصل توكله ولكن ذلك لا يعني أن هذا هو التوكل الصحيح فإن النبي ﷺ كان يأخذ بالأسباب في كل أموره وهو أعظم المؤمنين توكلاً على الله تعالى ، وقد ظاهر ﷺ بين درعين بأحد وشاور الناس واختفى في الغار ، وقال : « من يحرسني الليلة » وأمر بغلق الباب وغير ذلك مما هو معلوم من حاله ﷺ .

(١) رواه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه ، وأحمد عن عائشة رضي الله عنها .

(٢) رواه الجماعة من حديث عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه .

عليه السلام : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود : ٨٨] .

ومنهم طَائفةٌ قَد تتركُ المستحبَّات من الأعمالِ دون الواجباتِ ، فتنقص بِقَدْرِ ذلك . ومنهم طَائفةٌ يغترُّون بما يحصلُ لهم من خَرْقِ عادةٍ ، مثل مكاشفةٍ أو استجابةِ دعوةٍ مخالفةٍ للعادة ، ونحو ذلك (١) .

قال : فيشتغلُ أحدُهُم بهذه الأمورِ عمَّا أُمِرَ به من العبادة والْشُّكْرِ ، ونحو ذلك فهذه الأمورُ ونحوها ، كثيرًا ما تَعْرِضُ لأهلِ السلوكِ والتَّوَجُّه ، وإِنَّما ينجو العبدُ منها بملازمةِ أمرِ الله الذي بعثَ به رسولَه، في كل وقتٍ ،كما قَال الزُّهْرِيُّ : كَانَ مَنْ مَضىَ منْ سَلَفِنَا يَقُولُونَ : الاعْتِصَامُ بِالسُّنَّة نَجَاةٌ ، وَذَلكَ أنَّ السُّنَّةَ كَمَا قَالَ مَالِكٌ – رَحِمَهُ اللهُ – : مِثْلُ سَفِينَةِ نُوحٍ ، مَنْ رَكِبَهَا نَجَا ، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ .

والعِبَادةُ والطاعَةُ والاستقامَــةُ ، ولزومُ الصراطِ المستقيمِ ، ونحو ذلك من الأسماءِ مقصودُها واحدٌ ولها أصلان :

أحدهما : أن لا يُعبد إلا الله .

الثــانــي : أن يُعْبَدَ بما أَمَرَ وَشَرَعَ ، لا بغيرِ ذلك منْ البِدَعِ .

قَالَ تَعالىَ : ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾ [الكهف : ١١٠] . وَقَالَ تَعالىَ : ﴿ **بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ**

---

(١) فإن خوراق العادات لا يلزم منها ضرورة أنها من كرامات الأولياء لأن منها ما يحصل لأولياء الشيطان كما يقع من السحرة وغيرهم فلو صدر من مبتدع من ذلك شيء فإن ذلك لا يعني أنه على الحق ، وهذا مما يلبس به على الجهال فيظنون أن وقوع مثل هذه الأحوال ممن يدعي مقاما في الولاية لا يكون إلا باصطفاء الله إياه واختصاصه بهذه المزية ولا شيئ أشد على الناس من الجهل وقلة العلم .

فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) ﴾ [البقرة : ١١٢] .
وَقَالَ تَعالَى : ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥)** ﴾ [النساء : ١٢٥] .

ما هو العملُ الصالحُ :

فالعملُ الصالحُ : هو الإحسانُ وهو فِعْلُ الحسناتِ ، **والحسناتُ** : هي ما أحبَّه اللهُ ورسُولُهُ ، وهو ما أَمَرَ به أمرَ إيجابٍ أو استحبابٍ ، فما كَانَ مِنْ البِدَعِ في الدِّينِ التي ليست في الكتاب ولا في صحيح السُّنَّة ، فإنَّها – وإن قَالَها مَنْ قَالَها، وعَمِلَ بها مَنْ عَمِلَ- ليست مشروعةً ؛ فإن اللهَ لا يُحبُّها ولا رسولُهُ ، فلا تكون من الحسناتِ ولا من العملِ الصالحِ ، كما أنَّ مَنْ يعملُ ما لا يجوزُ،كالفواحشِ والظلمِ، ليس من الحسناتِ ولا من العملِ الصَّالحِ [١] .

قال : وأَمَّا قولُه : ﴿ **وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾ [الكهف : ١١٠] ، وقولُه : ﴿ **أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ** ﴾ [البقرة : ١١٢] ، فهو إخلاصُ الدِّينِ لله وحده .

وكَانَ عمرُ بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقولُ : « اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحًا وَاجْعَلْهُ لِوَجْهِكَ خَالِصًا ، وَلا تَجْعَلْ لأحَدٍ فِيْه شَيْئًا » [٢] . [٣] .

قال : وقَالَ الفُضَيلُ بنُ عِيَاض [٤] في قولِهِ تَعالَى : ﴿ **لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ**

---

(١) فهذان أصلا العمل المتقبل : إسلام الوجهة لله تعالى وهو الإخلاص والثاني فعل الحسنات التي جاء بها الرسول ﷺ ولا يدخل فيه ما ليس منه كالبدع والفواحش والظلم .
(٢) فقوله : اجعل عملي كله صالحًا ، هو الأصل الثاني وهو الاتباع « واجعله لوجهك خالصًا ولا تجعل لأحد فيه شيئًا هو الأصل الأول وهو الإخلاص ، والمراد من العباد تجريد الإخلاص وتحقيق المتابعة .
(٣) رواه أحمد في الزهد بسند صحيح عن الحسن عن عمر ولم يسمع منه .
(٤) الفُضَيْل بنُ عِياض ، الزاهدُ المشهورُ ، أحدُ العلماءِ الأعلامِ .

عملاً ﴾ [الملك : ٢] ، قَالَ : أخْلَصُهُ وَأصْوَبُهُ ، قَالُوا : يَا أبَا عَلِيٍّ ، مَا أخْلَصُهُ وأصوبه ؟ قَالَ : إنَّ الْعَمَلَ إذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ ،وَإذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يُقْبَلْ ، حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا ، وَالْخَالِصُ: أَنْ يَكُونَ لله ، وَالصَّوَابُ: أَنْ يَكُونَ عَلَى السُّنَّةِ (١) .

بيان وجه عطف غير العبادة عليها وهو منها :

قال : فإن قِيلَ : فإذا كان جميعُ ما يُحبُّهُ اللهُ داخلاً في اسم العبادة ، فلماذا عَطَفَ عليها غيرها ؟ ، كقوله في فاتحة الكتاب ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** (٥) ﴾ [الفاتحة : ٥] ، وقوله لنبيِّه : ﴿ **فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ** ﴾ [هود : ١٢٣] ، وقَوْلِ نوح عليه السلام : ﴿ **اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ** (٣) ﴾ [نوح : ٣] ، وكذلك قولِ غيرِهِ مِنْ الرُّسُلِ ؟ .

قيل: هذا له نظائرٌ ، كما في قوله :﴿ **إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ** ﴾ [العنكبوت :٤٥] ، والفحشاءُ من المُنكر ، وكذلكَ قَولُه : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ** ﴾ [النحل: ٩٠] ، وإيتاءُ ذي القُرْبى: هو منْ العدل والإحسان ،كما أنَّ الفحشاءَ والبغيَ من المنكر ، وكذلك قوله : ﴿ **وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ**

(١) وهذا من أحسن الكلام وأبينه في تفسير قوله تعالى ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) ﴾ ففسره الفضيل رحمه الله بهذين الأصلين اللذين لابد منهما وليس بأحدهما غنى عن الآخر فمن تصدق وصلى وجاهد لغير وجه الله قيل له : إنما تصدقت ليقال جواد وجاهدت ليقال جريء وتعلمت ليقال عالم ، فهذا عمل صواب صاحبه غير مخلص فهو مردود عليه ، والآخر يخلص العمل لله ولكنه يتقرب إليه بالبدعة وبما لم يشرعه ولم يأذن به فلا يقبل منه حتى يكون على السُّنَّة .

الْمُصْلِحِينَ (١٧٠)﴾[الأعراف : ١٧٠] وإقامةُ الصَّلاة من أعظم التَّمَسُّك بالكتاب وكذلك قوله عن أنبيائه : ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا** ﴾ [الأنبياء : ٩٠]، ودعاؤُهم رَغَبًا ورَهبًا من الخيرات ، وأمثالُ ذلك في القرآن كثيرٌ [١] .

قال :وهذا البابُ يكون تارةً مع كَوْن أحدهما بعضَ الآخر ، فيُعْطَفُ عليه تخصيصًا له بالذِّكْرِ ؛ لكونه مطلوبًا بالمعنى العامِّ والمعنى الخاصِّ .

وتارةً تَتَنوَّعُ دلالةُ الاسمِ بحالِ الانفراد والاقتران ، فإذا أُفْرِدَ عمَّ ، وإذا قُرِنَ بغيرِه خصَّ ، كاسمِ : « الفقيرِ » و « المسكينِ » لَمَّا أُفْرِدَ أحدُهما في مثل قولِه :

---

(١) **فهذا كله من عطف الخاص على العام أو من عطف العام على الخاص وتخصيص الخاص المعين بالذكر من جملة العام إشارة إلى أهميته .**

فإذا قيل لجماعة فيهم من اسمه محمد اسمعوا واسمع أنت يا محمد كان تخصيص محمد بالذكر بعد دخوله في العام توكيداً وخصوصية له حتى يحسن الاستماع هو خاصة . فقوله تعالى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) ﴾ دليل على أهمية الاستعانة مع أنها ضمن العبادة ، وكذلك ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ فهو في الحقيقة لن يتمكن من عبادة الله إلا إذا استعان به وكذلك لن يتمكن من عبادة الله إلا بمتابعة الرسول ﷺ ، ولذلك قال : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ ، فهذا العطف لمزيد بيان حتى لا يعتل معتل بعلة عليلة وحتى تكون الحجة البالغة لله تعالى على خلقه .

وقول الله تعالى عن الأنبياء عليهم السلام ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ ظاهر في أن طريق الأنبياء المسارعة في الخيرات بين الخوف والرجاء وهذا مبطل لما يدعيه هؤلاء الصوفية المنحرفون من أنهم لا يعبدون الله رغبة فيما عنده ولا رهبة مما عنده فإن هذا انحراف وزيغ عن طريق الهداية التي كان عليها النبيون أجمعون ، وإنما أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين ، وأنزل الكتاب على عبده لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين .

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢٧٣] ، وقوله : ﴿ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ ﴾ [المائدة : ٨٩] دَخَلَ فيه الآخَرُ، ولَمَّا قَرَنَ بينهما في قوله : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ [التوبة : ٦٠] ، صَارَا نَوْعَين [١] .

قال : وقد قِيلَ : إنَّ الخاصَّ المعطوفَ على العامِّ ، لا يدخلُ في العامِّ حَالَ الاقترانِ ؛ بل يكون من هذا الباب .

والتحقيقُ أنَّ هذا ليس لازمًا ، قَالَ تَعالىَ :﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ [البقرة: ٩٨] ،وقَالَ تعالىَ : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ [٢] [الأحزاب : ٧] .

قال : وذِكْرُ الخاصِّ مع العامِّ يكون لأسبابٍ متنوِّعَةٍ ، تارةً لكونه له خاصِّيَّةٌ ، ليست لسائر أفرادِ العامِّ كما في نوح وإبراهيمَ وموسى وعيسى [٣] .

قال : وتارةً لكون العَامِّ فيه إطلاقٌ قد لا يُفْهَمُ منه العمومُ ، كما في قوله : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣)

---

(١) فهذا ليس من باب عطف العام على الخاص أو الخاص على العام ، لأن الفقير نوع والمسكين نوع آخر ، وفيهما وصف مشترك بينهما وهو الحاجة ، وفي أحدهما وصف ليس في الآخر أو يغايره فأحدهما يسأل الناس والآخر لا يسأل الناس ، ولهذا افترقا .

(٢) فمحمد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى من النبيين صلى الله عليهم وسلم ، وإنما خصوا بالذكر تأكيداً لشرفهم ، ولا شك أن النبيين كلهم شرفاء ولكن هؤلاء المخصوصين بالذكر منهم هم أشرف الشرفاء .

(٣) فنوح أول رسول أرسل إلى أهل الأرض ، وإبراهيم خليل الرحمن وموسى كليمه وعيسى روح الله وكلمته فقد اجتمع في هؤلاء ـ صلى الله عليهم وسلم ـ ما لم يجتمع في غيرهم ، كما اجتمع في محمد رسول الله ﷺ ما لم يجتمع في غيره .

وَالَّذين يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ من قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) ﴾ [البقرة : ٢ – ٤] ، فقولُه : ﴿ **يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ** ﴾ يتناولُ كلَّ الغيبِ الذي يجبُ الإيمانُ به ، لكن فيه إجمالٌ ، فليس فيه دلالةٌ على أنَّ من الغيبِ : ﴿ **بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ من قَبْلِكَ** ﴾ [(١)] .

قال : وقد يكون المقصودُ أنَّهم يؤمنون بالْمُخْبَر به وهو الغيبُ ، وبالإخبار بالغيبِ وهو ﴿ **بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ من قَبْلِكَ** ﴾ . ومن هذا الباب : قَولُه تعالى : ﴿ **اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ** ﴾ [العنكبوت : ٤٥] ، وقولُه : ﴿ **وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ** ﴾ [الأعراف : ١٧٠] ، وتلاوةُ الكتابِ هي : اتِّبَاعُهُ والعملُ به ، كما قَالَ ابن مسعودٍ ﷺ في قوله تَعالَى : ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ** ﴾ [البقرة : ١٢١] ، قَالَ : يُحِلُّون حلالَه ، ويحرِّمون حرامَه ، ويؤمنون بمتشابِهِه ويعملون بمحكمِهِ [(٢)] .

قال : فاتِّباعُ الكتابِ : يتناولُ الصَّلاةَ وغيرَها ، لكنْ خَصَّهَا بالذِّكرِ لمزيتها ،

---

(١) فيتضح بذلك دخول أفراد من العام فيه لا تتضح بذكر العام وحده حتى يذكر هذا الخاص فيتأكد أنه داخل ضمن العام ، فقوله : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ يشمل كل الغيب وحتى يتأكد دخول ما أنزل الله على رسوله في الغيب خص بالذكر ، وفائدة ذلك أن الإيمان بالغيب يوجب التسليم ، فإذا تبين أن من أفراده ما أنزل الله على رسوله صح الانقياد بوجوب التسليم .

(٢) المتشابه من القرآن هو ما احتمل أوجهًا أو كان من الغيب ، أو كان مجهول الكيفية فنعرف معناه ونفوض كيفيته إلى الله ، وقوله : ويعملون بمحكمه وهو الحلال والحرام والأوامر والنواهي . رواه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ومنصور عن ابن مسعود وله شاهد رواه أبو العالية عن ابن معسود ، وصح عنه ﷺ قال : «يتبعونه حق اتباعه» ، قال أبو العالية : قال ابن مسعود ﷺ : والذي نفسي بيده ، إنَّ حقَّ تلاوته : أن يُحلَّ حلالَه ، ويُحرِّمَ حرامَه ، ويقرأه كما أنزله اللهُ ، ولا يحرِّفَ الكَلِمَ عن مواضعه ، ولا يتأوَّلَ منه شيئًا على غير تأويله .

وكذلك قوله لموسى عليه السلام : ﴿ **إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري** ﴾ [طه : ١٤] ، وإقامةُ الصلاة لذكره : منْ أجلِّ عبادته ، وكذلك قوله : ﴿ **اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً** ﴾ [الأحزاب : ٧١] ، وقوله : ﴿ **اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ** ﴾ [المائدة : ٣٥] ، وقوله : ﴿ **اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾ [التوبة : ١١٩] ، فإنَّ هذه الأمور هي أيضًا من تمامِ تقوى الله ، وكذلك قوله : ﴿ **فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ** ﴾ [هود : ١٢٣] ، فإنَّ التوكُّلَ هو الاستعانةُ ، وهي من عبادةِ الله ، لكن خُصَّتْ بالذِّكْرِ ، ليقصدَهَا المتعبِّدُ ، بخصوصيتهَا ، فإنَّها هي العونُ على سائرِ أنواعِ العبادةِ ؛ إذ هو سُبحانه لا يُعْبَدُ إلا بمعونته .

بيانُ ما به كمال المخلوق :

إذا تبيَّن هذا ، فكمالُ المخلوق في تحقيق عبوديته لله ، وكلَّما ازدادَ العبدُ تحقيقًا للعبودية ، ازدادَ كمالُه وعَلَتْ درجتُه ، ومَنْ توهَّمَ أنَّ المخلوق يخرجُ من العبودية بوجهٍ من الوجوه ، أو أنْ الخروجَ عنها أكملُ ؛ فهو من أجهلِ الخلْقِ ، بل من أضلِّهم .

قَالَ تَعالىَ : ﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨)** ﴾ [الأنبياء : ٢٦ – ٢٨] .

وقَالَ تَعالىَ : ﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً (٩٥)** ﴾ [مريم :

٨٨ – ٩٥] ، وقَالَ تَعالىَ في المسيح عليه السلام : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْه وجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) ﴾ [الزخرف : ٥٩] . وقَالَ تَعالىَ : ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِه وَلا يَسْتَحْسِرُونَ [(١)] (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ (٢٠) ﴾ [الأنبياء : ١٩ ، ٢٠] .

وقَالَ تَعالىَ : ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ [(٢)] أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِه وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِه وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (١٧٣) ﴾ [النساء : ١٧٢ ، ١٧٣] .

وقَالَ تَعالىَ : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ [(٣)] (٦٠) ﴾ [غافر : ٦٠] .

وقَالَ تَعالىَ : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ (٣٨) ﴾ [فصلت : ٣٧ ، ٣٨] .

وَقَالَ تَعالىَ : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦) ﴾ [الأعراف : ٢٠٥ ، ٢٠٦] .

---

(١) ﴿ لا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ : أي : لا يَفْتُرون ، ولا يُعْيَوْن ولا يملُّون .

(٢) ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ ﴾ : أي : لن يأنفَ ، ويستكبر ، ويتعظَّمَ .

(٣) ﴿ دَاخِرِينَ ﴾ : أي : صاغرين .

وهذا ونحوه – ممَّا فيه وصفُ أكابر الخلقِ بالعبادة وذمُّ مـن خرجَ عـن ذلك – متعدِّدٌ في القرآن – وقد أخبر أنَّه أرسلَ جميعَ الرُّسُلِ بذلك ، فقَالَ تَعالَى : ﴿ **وما أَرْسَلْنَا من قَبْلكَ من رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْه أَنَّهُ لا إِلَه إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُون (٢٥)** ﴾ [الأنبياء : ٢٥] . وقَالَ : ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾ [النحل : ٣٦] . وقَالَ تعالى لبني إسرائيل : ﴿ **يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُون (٥٦)** ﴾ [العنكبوت : ٥٦] ، ﴿ **وَإِيَّايَ فَاتَّقُون** ﴾ [البقرة : ٤١] . وقَالَ : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)** ﴾ [البقرة : ٢١] .

وقَالَ : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون (٥٦)** ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

وقَالَ تَعَالَى : ﴿ **قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ** ﴾ [الزمر : ١١ – ١٥] .

وكلُّ رسولٍ مِنْ الرُّسُلِ افتتحَ دعوتَهُ بالدُّعَاء إلى عبادة الله ، كقول نوحٍ ومَنْ بعدهُ – عليهم السَّلامُ – : ﴿ **اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** ﴾ [الأعراف : ٥٩] .

وفي « المُسند » عن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما عن النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قَالَ : « **بُعِثْتُ بالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَي السَّاعَة حَتَّى يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي ، وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي** » [١] .

وقد بَيَّن أنَّ عبادَهُ المخلَصينَ ، هُمُ الذين يَنْجُوْنَ من السَّيئَات التي زيَّنَها الشيطانُ ، قَالَ الشيطانُ : ﴿ **رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)** ﴾ [الحجر : ٣٩ ، ٤٠] .

---

(١) أخرجه البخاري في « صحيحه » عن ابن عمر رضي الله عنهما [فتح الباري (٦ / ١١٥)] .

قَالَ تعالىَ : ﴿ **هَذَا صِراطٌ عَليَّ مُسْتَقيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادي لَيْس لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَن اتَّبعَكَ منَ الْغَاوين (٤٢)** ﴾ [الحجر : ٤١ ، ٤٢] . وقَالَ تعالى : ﴿ **فَبعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)** ﴾ [ص ٨٢ ، ٨٣] .

وقَالَ في حَقِّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَام : ﴿ **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** ﴾ [يوسف : ٢٤] . وقَالَ تعالىَ : ﴿ **سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠)** ﴾ [الصافات : ١٥٩ ، ١٦٠] .

وقَالَ : ﴿ **إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)** ﴾ [النحل : ٩٩، ١٠٠] .

العبودية نعت كلِّ مَن اصطفاه الله من خلقه :

وبالعبودية نَعَتَ كلَّ من اصطفى منْ خَلقه في قوله : ﴿ **وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ (٤٧)** ﴾ [ص : ٤٥ – ٤٧] .

وقوله : ﴿ **وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾ [ص ١٧] .

وقوله عن سليمان عَلَيْهِ السَّلَام : ﴿ **نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾ [ص : ٣٠] .

وعن أيوبَ عَلَيْهِ السَّلَام : ﴿ **نِعْمَ الْعَبْدُ** ﴾ [ص ٤٤] .

وقَالَ عنه : ﴿ **وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ** ﴾ [ص ٤١] .

وقَالَ عن نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام : ﴿ **ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣)** ﴾ .

[الإسراء : ٣] .

وقَالَ عن خاتمِ رُسُله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا** ﴾ [الإسراء : ١] .

وقَالَ : ﴿ **وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ** ﴾ [الجن : ١٩] .

وقالَ : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ [البقرة : ٢٣] .

وقَالَ : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) ﴾ [النجم : ٦] .

وقَالَ : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ﴾ [الإنسان : ٦] .

وقَالَ : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾[الفرقان : ٦٣] .

ومِثْلُ هذا كثيرٌ متعدِّدٌ في القرآن .

فصل في
تفاضل الناس في حقيقة الإيمان

إذا تبيَّن ذلك ، فمعلومٌ أنَّ النَّاسَ يتفاضلون في هذا الباب تفاضلاً عظيمًا ، وهو تفاضُلُهم في حقيقة الإيمان ، وهم ينقسمون فيه إلى عامٍّ وخاصٍّ ، ولهذا كانت إلهة الرب لهم فيها عموم وخصوص [١] .

قال : ولهذا كان الشِّركُ في هذه الأمَّة أَخفى من دبيب النَّملِ .

وفي الصحيح عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قَالَ : « **تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّيْنَار ، تَعِسَ عَبْدُ الْقَطِيْفَة ، تعس عَبْدُ الْخَمِيْصَة ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ ، وإِذَا شِيْكَ فَلا انْتَقَشَ ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ ، وإِنْ مُنِعَ سَخِطَ** » [٢] .

فَسَمَّاهُ النَّبيُّ ﷺ « **عبدَ الدِّرهم وعبدَ الدِّينار ، وعبدَ القَطيفة ، وعبدَ الخميصة** » ، وذكر فيه ما هو دعاءٌ وخبرٌ ، وهو قَولُه : « **تَعِسَ وَانْتَكَسَ ، وإِذَا شِيْكَ فَلا انْتَقَشَ** » ، والنَّقْشُ : إخراجُ الشوكةِ من الرِّجْلِ ، والمِنْقَاشُ : ما يُخرجُ به الشوكةُ .

---

(١) فأصحاب هذه الخصوصية يكملون معنى العبادة لله عز وجل ، وهناك من في عبوديته نقص وبين الطائفتين تفاوت عظيم وتفاضل .

(٢) رواه البخاري والترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وهذه حـالُ مَنْ إذا أصابه شَـرٌّ لم يخـرج منه ،ولم يُفلح لكونه تعسَ وانْتَكَسَ ، فلا نَالَ المطلوبَ ، ولا خلصَ من المكروه ، وهذه حالُ مَنْ عَبَدَ المالَ ، وقد وَصَفَ ذلك بأنَّه إذا أُعطِيَ رَضِي ، وإذا مُنع سَخِطَ كما قَالَ تَعالىَ : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) ﴾ [التوبة : ٥٨]، فرضاهم لغيرِ الله ، وسخطُهم لغيرِ الله وهَكَذا حالُ مَنْ كان متعلِّقًا برئاسةٍ أو بصورةٍ – ونحو ذلك من أهواءِ نفسِه – إن حصلَ له رضي ، وإن لم يحصل له سَخِطَ [١] .

---

(١) فهذه العبودية في الحقيقة إما أن تكون شركًا أصغر كما أشار إليه في أول الكلام ، وهذا في حال إذا ما قدم طاعة ما يهواه أو تحصيله على طاعة الله ولكنه لا يبيع دينه من أجل ما قدّم ، فهذا كعبد الدرهم وعبد الدينار وعبد الخميصة ، وقد تصل عبادة المال وعبادة الجاه إلى الشرك الأكبر ، إذا كان يبيع دينه بعرض الدنيا كما قال ﷺ : « بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا » ، [رواه مسلم والترمذي وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه] وهذه العبادة شرك أكبر .
وتحقيق ذلك أن أحداً لا يعبد الدرهم والدينار بأن يسميها آلهة ويركع ويسجد لها ولكنه من أجلها يمكن أن يبيع دينه ويترك أصل الإيمان لها ، وهكذا من كان متعلقًا بصورة كمحبة العشاق يمكن أن يكفر بالله حتى ينال مطلوبه ، بل يمكن أن تصل محبته للصورة إلى الكفر بالله تعالى مع يأسه من الظفر بها كما يذكرونه عن بعض الشعراء وقد كان تعلق بشاب أمرد ، فقال وهو في النزع وقد يئس منه :

أسلمُ يا راحة العليل ... رفقًا على الهائم النحيل
وصلك أشهى إلى فؤادي ... من رحمة الخالق الجليل

فقيل له : اتقِ الله ما هذه العظيمة ، فقال : قد كان ... فلم يلبث أن قضى =

قال : فهذا عبدٌ ما يهواه من ذلك ، وهو رقيقٌ له ؛ إذ الرِّقُّ والعبودية في الحقيقة : هو رِقُّ القلبِ وعبوديتُه ؛ فما استرقَّ القلبَ واستعبده فهو عبدُهُ ، ولهذا يُقال :

الْعَـبْـدُ حُـرٌّ مـا قَنِعْ وَالْحُـرُّ عَـبْـدٌ مَـا طَمِعْ

وقال القائلُ :

أَطَعْتُ مَطَامِعِي فَاسْتَعْبَدَتْنِي وَلَو أَنِّي قَنِعْتُ لَكُنْتُ حُـرًا

ويُقال : الطمعُ غُلٌّ في العنقِ ، وقيدٌ في الرِّجْلِ ، فإذا زالَ الغُلُّ من العنقِ زالَ القيدُ من الرِّجْلِ .

ويُروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنَّه قال : « الطَّمَعُ فقرٌ ، واليأسُ غنىً ، وإنَّ أحدكم إذا يَئِسَ من شيءٍ استغنى عنه » [١] ، وهذا أمرٌ يجده

= وأخبرني بعضهم عن شاب أحب فتاة نصرانية وأبى أهلهم أن يزوجوه إلا أن يتنصر فكان موافقًا على ذلك من أجلها ، فهذا عبودية لغير الله كفر أكبر ، وكذلك من يريد الرياسة والزعامة والإمارة ، فيوالي أعداء الله ويحارب الدين ، وهؤلاء من كان منهم يظلم الناس ويسفك الدم الحرام لأجل تعضيد ملكه وتمكن رياسته إلا أنه لا يقدم على الكفر ، ففعله هذا من الشرك الأصغر ، ومن كان منهم بحيث أنه لا يضره أن يبيع دينه لأجل ملكه ، فهذا من الشرك الأكبر .

فعلى قدر شدة محبة ما سوى الله تكون العبادة فإذا انصرف بالمحبة عن الله إلى محبوبة تحول بعبادته عن الله إلى محبوبه ، فإنه معاقد الاعتقاد منصرفة إلى أحوال القلوب .

(١) رواه أحمد في الزهد ومن طريقه أبو نعيم في الحلية عن هشام بن عروة عن أبيه قال : قال عمر وهذا منقطع ، وقد وصله أحمد بن سعيد ثنا ابن وهب عن الثوري عن هشام عن زيد بن الصلت عن عمر وهو وهم من ابن سعيد وقد لينه النسائي .

الإنسانُ من نفسه ؛ فإنَّ الأمرَ الذي ييأسُ منه لا يطلبُهُ ولا يطمعُ فيه ، ولا يبقى قلبُهُ فقيراً إليه ، ولا إلى مَنْ يفعلُه ، وأمَّا إذا طَمِعَ في أمرٍ من الأمور ورجاه ، فإنَّ قلبَه يتعلَّقُ به ، فيصير فقيراً إلى حصوله ، وإلى مَنْ يظنُّ أنَّه سببٌ في حصوله ، وهذا في المال والجاه والصُّوَر وغير ذلك .

قال الخليل: ﴿ **فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ [العنكبوت : ١٧] . فالعبدُ لابُد له من رزقٍ ، وهو محتاجٌ إلى ذلك ، فإذا طَلَبَ رزقَهُ من اللهِ صار عبداً لله ، فقيراً إليه ، وإذا طَلَبَهُ من مخلوقٍ صارَ عبداً لذلك المخلوقِ فقيراً إليه .

■ مسألة المخلوق محرَّمةٌ في الأصل :

ولهذا كانت مسألةُ المخلوق محرَّمةً في الأصل ، وإنَّما أُبيحت للضرورة ، وفي النَّهي عنها أحاديثُ كثيرةٌ في « الصِّحَاحِ » و « السُّنن » و « المسانيد » ؛ كقوله ﷺ : « **لا تَزَالُ المَسْأَلَةُ بأحَدِكُم حتَّى يأتي يومَ القِيامَةِ ولَيْس فِي وَجْهِهِ مُزْعَةٌ مِنْ لَحْمٍ** » (١) . (٢) .

قال : وَقَوله : « **مَنْ سَأَلَ النَّاسَ ولَهُ ما يُغْنيه ، جَاءَتْ مَسْأَلَتُهُ يَومَ القِيامَةِ خُدُوشًا أو خُمُوشًا ، أو كُدُوحًا في وَجْهِهِ** » (٣) . وَقَوله : « **لا**

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) وهذا سؤال الناس أموالهم وطعامهم وشرابهم ونحو ذلك وهو مستغن عنه ، فمن سأل الناس غير محتاج جاء يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم من كثرة ما سأل الناس والمزعة بالضم القطعة الصغيرة . وإذا كان لأحد عند أحد حاجة فهو أيضا من هذا الباب يكره له أن يسأل الناس إلا أن يضطر إليه ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبَّر يصبِّره الله ، فطلب الاستغناء عن الناس مشروع ولذا كان سؤالهم ممنوعًا مكروهًا .

(٣) رواه أصحاب السنن عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وصححه الألباني « سلسلة الأحاديث الصحيحة » رقم (٤٩٩) .

تَحلُّ الْمَسْأَلَةُ إلا لذي غُرْمٍ مُفظعٍ، أوْ دمٍ مُوْجعٍ، أوْ فَقرٍ مُدْقعٍ »[(١)] [(٢)].

قال : وهذا المعنى في الصحيح، وفيه أيضًا : « **لأَنْ يأخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَذْهَبَ فَيَحْتَطِبَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أنْ يَسْأَلَ النَّاسَ، أعْطَوْهُ أوْ مَنَعُوهُ** » [(٣)] . [(٤)] .

قال : وقَالَ : « **مَا أتَاكَ منْ هَذَا الْمَالِ وأَنْتَ غَيْرُ سَائلٍ، ولا مُسْتَشْرِفٍ فَخُذْهُ، ومَا لا فَلا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ** » [(٥)] ، فَكَرِهَ أخْذَهُ منْ سؤالِ اللسانِ، واسْتَشرافِ القلبِ [(٦)] .

---

(١) رواه أبو داود من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ : « إنَّ الْمَسْأَلَةَ لا تَصْلُحُ إلا لثَلاثَة : لذي فَقْرٍ مُدقعٍ، أوْ لذي غُرْمٍ مُفْظعٍ، أَوْ لذي دَمٍ مُوْجعٍ »، ورواه الترمذي عن حبش بن جنادة رضي الله عنه .

(٢) والغرم المفظع الدين الثقيل والدم الموجع يعني الدية في قتل عمد أو خطأ، والفقر المدقع وهو الفقر الشديد الذي ألصقه بالدقعاء وهي الأرض، وظاهر هذا الحديث التحريم وكذا الذي قبله وقوله ﷺ « فقر مدقع » يدل على أن المسألة لم تبح للفقير إلا مع شدة الحاجة، وهذا من طلب صيانة المسلم نفسه وعدم افتقاره إلى الناس حتى يضطر إلى الله مفتقرًا إليه .

(٣) أخرجه البخاري في « صحيحه » [فتح الباري (٣/ ٣٩٢، ٣٩٣)] .

(٤) وإذا ما تعرض العبد للعطاء والمنع من الناس فيرغب إذا أعطوه ولم ييأس إذا منعوه ضعفت عبوديته لله تعالى الذي لا مانع لما أعطى ولا مُعطي لما منع، ولو أنه يئس منهم إذ منعوه لاستراح ولكنه لا يزال راغبًا فيهم، وهذا الذي يوجب عبودية القلب لهم للعطاء الذي يُعطاه إذا أعطوه ولعدم الإياس منهم إذا منعوه فلا يزال متعلقًا بهم على الحالين، فيضعف تعلقه بالله الذي بيده الخير والذي له مقاليد السموات والأرض .

(٥) متفق عليه من حديث عمر رضي الله عنه .

(٦) فما يعطاه من مال الله الذي بيد ولي الأمر دون أن يسأله إياه أو تتطلع إليه نفسه فلا شبهة فيه، وما لم يكن كذلك قال : « فلا تتبعه نفسك » أي لا =

قال : وَقَالَ ﷺ في الحديث : « **مَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِه اللّٰهُ ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفُّهُ اللّٰهُ ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللّٰهُ ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ** » (١) . (٢) .

قال : وأوصى خَوَاصَّ أصحابه ﷺ : «**أَنْ لا يَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا**» (٣) .

وفي « المسند » أَنَّ أَبَا بَكْرٍ ﷺ كَانَ يَسْقُطُ السَّوْطُ مِنْ يَده ، فَلا يَقُولُ لأَحَدٍ : نَاوِلْنِي إِيَّاهُ ، وَيَقُولُ : « **إِنَّ خَلِيلِي أَمَرَنِي أَنْ لا أَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا** » (٤) . (٥) .

تجعلها تطلبه وقاوم هذه الرغبة منك ، فإن العبد إنما يحسن به أن يرغب إلى ربه ويستغني عن العباد .

(١) متفق عليه من حديث أبي سعيد ﷺ .

(٢) وهذا لما جاءه ﷺ مال فجاء ناس من الأنصار فسألوه فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم حتى نفذ كل شيء بيده ، فقال : ما يكون من هذا المال فلن أدخره عنكم ، ومن يستغن يغنه الله .. فذكره .

فهذا يذكره لهم وهم أصحابه وهو رسول الله ﷺ وإنما تعرضوا له للخصاصة والحاجة ، فكيف بمن شأنه السؤال والرغبة إلي الناس ؟! .

وإنما يغني الله من استغنى عن الناس ويصبر من تصبَّر وهذه الأخلاق تكتسب بترويض النفس عليها لأنها على خلاف هوى النفس وقد قيل :

تكرَّم لتعتاد الجميل فلن ترى … أخا كرم إلا وأن يتكرّما

والنفس إنما تشرس على صاحبها إن لم تصب هواها ، فمن راضها على طاعة الله وعلى الخلق الحسن انقمعت له وهو إنما يروضها بتلك الأحوال القلبية التي يكتسبها بعبوديته لله تعالى .

(٣) رواه مسلم والنسائي وأبو داود من حديث عوف بن مالك الأشجعي ﷺ ، ورواه ابن ماجه من حديث ثوبان ﷺ .

(٤) ضعيف لانقطاعه .

(٥) وهذا ليس من سؤال الناس أموالهم وغيرها ولكنه من سؤال ما جرت بمثله

قال :وفي صحيح مسلم وغيره عن عوف بن مالك أنَّ النَّبيَّ ﷺ : « **بَايَعهُ في طَائفة ، وَأَسرَّ إِلَيْهِم كَلمَةً خَفيَّةً : أن لا تَسْأَلُوا النَّاس شَيْئًا ، فَكَانَ بَعْضُ أُولْئكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ السَّوْطُ مِنْ يَدِ أحَدِهِمْ ، وَلا يَقُولُ لأَحَدٍ نَاوِلْني إِيَّاهُ** » [(١)] .

وقد دلَّت النصوصُ على الأمرِ بمسألةِ الخالقِ ، والنَّهي عن مسألة

العادة وحتى هذا وأمثاله كان هؤلاء الصفوة يمتنعون منه مع أن أبا بكر كان خليفة المسلمين وطاعته عليهم واجبة ولكنه كان يستغنى بغنى الله الذي لم يدع لمستغن به حاجة يسألها غيره .

وأما القرض فليس من هذا الباب ، لأن الرسول ﷺ اقترض ولم يسأل ، لأنه لا يكون غالبًا إلا مع الحاجة فيباح بغير كراهة لأن المكروه الذي كره لسد الذريعة تزول الكراهة فيه مع الحاجة ، ثم هو في مقابلة ما حرم الله من الربا فكانت الفسحة والتوسعة به لئلا يقع الإنسان فيما حرم الله عليه ، واستعمال الوسائط والشفعاء من الأمور الجائزة ولكن ذلك ليس كتمام الاستغناء عن الناس ، فإن من استغنى عن الناس أغناه الله عنهم ، وبقدر استغنائه عنهم يكون احتياجه إلى ربه وبقدر احتياجه إلى ربه وافتقاره إليه تكون عبوديته لله عز وجل ، ولابد من ملاحظة فقره إلى ربه ومعرفة حاله وما هو عليه وأنه لو أوكله الله إلى نفسه لهلك في الهالكين فكيف لو أوكله إلى غيره ، فلابد أن يشهد كما شهد النبي ﷺ فقال في الدعاء الذي علمه زيد بن ثابت : « وأشهد أنك إن تكلني إلى نفسي تكلني إلى ضيعة وعورة وذنب وخطيئة وإني لا أثق إلا بك » [أخرجه الإمام أحمد في « مسنده » والطبراني والحاكم عن زيد بن ثابت وهو حديث ثابت] .

ثم إنه لا يصل إلى كمال الاستغناء عن الناس بالله إلا من عرف عنه كمال التوكل كالصدِّيق رضي الله عنه ، فأما إذا أعطاه أحد شيئًا أو صنع إليه معروفًا فليس من هذا المكروه ، وإنما المكروه أن يسأل كما في مسألة الاسترقاء .

(١) سبق تخريجه .

المخلوق في غير مَوْضِعٍ ؛ كقوله تَعالىَ : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾ ﴾ [الشرح : ٧ ، ٨] .

وقَولُ النَّبيِّ ﷺ لابن عباسٍ رضي الله عنهما : « إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ ، وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ » (١) .

ومنْهُ قولُ الخليلِ ﷺ : ﴿ فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ [العنكبوت : ١٧] ، ولم يَقُلْ : فابتغوا الرِّزقَ عند الله ؛ لأنَّ تقديمَ الظَّرْفِ يُشْعِرُ بالاختصاصِ والْحَصْرِ ، كأنَّه قال : لا تبتغوا الرِّزْقَ إلا عند الله (٢) .

قال : وقَدْ قَالَ تعالىَ : ﴿ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ﴾ [النساء : ٣٢] .

والإنسانُ لأبُدَّ له من حصولِ ما يحتاجُ إليه من الرِّزْقِ ونحوه ، ودَفْعِ ما يَضُرُّهُ ، وكلا الأمرين شُرِعَ له أن يكونَ دعاؤُهُ لله ، فلا يسألُ رزقَه إلا من الله ، ولا يَشْتكي إلا إليه ، كَمَا قَالَ يعقوبُ عليه السلام : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [يوسف : ٨٦] .

---

(١) رواه أحمد والترمذي عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما وصححه الألباني - رحمه الله - في « صحيح سُنن الترمذي » (رقم ٢٠٤٣) .

(٢) وهذا كقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ قدم المفعول على خلاف الأصل لاختصاص الرب بالعبودية وحده وبالاستعانة به وحده إذ أن عادة العرب في الكلام تقديم الأهم لأنه بالتقديم أولى وهم به أعنى .
ومنه ما علمه النبي ﷺ ابنته فاطمة أن تقوله إذا أصبحت وإذا أمست : «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث فأصلح لي شأنه كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبدًا » [رواه النسائي والحاكم عن أنس بسند حسن] .
فقال : برحمتك أستغيث ولم يقل : أستغيث برحمتك مع أن الأصل تقديم الفعل ليظهر شدة التعلق بالرحمة مع غاية التلهف بقوله : أستغيث .

والله تعالى ذَكَرَ في القرآن : « الهجرَ الجميلَ، والصَّفْحَ الجميلَ ، والصَّبْرَ الجميلَ »، وقد قيل : إنَّ الهجرَ الجميلَ هو : هَجْرٌ بلا أذى ، والصَّفْحَ الجميلَ :صَفْحٌ بلا معاتبة،والصَّبْرَ الجميلَ: صبرٌ بلا شكوى إلى مخلوقٍ(١) .

قال : ولهذا قُرِئَ على الإمام أحمد بن حنبلٍ ـ رحمه الله ـ في مَرضِه : أنَّ طاوسًا كان يكره أنينَ المريضِ ويقولُ : إنَّه شكوى ، فما أنَّ أحمدُ حتى مات » (٢) .

---

(١) وهذا من تخليص الأعمال القلبية مما قد يشوبها ويعلق بها فإن من عادة الهاجر أن يهجر على لوم وبغضة ، مما يترتب عليه أذى المهجور ، وكذا الصفح قد يكون بعتب ولكن الصفح الجميل فكصفح النبي ﷺ عن مشركي مكة ، وقد كانوا آذوه وأبعدوه وأخرجوه وقاتلوه وألبوا عليه الناس ، وكذا صفح يوسف عليه السلام عن إخوته لما قال: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ ولم يعد عليهم باللوم وإنما قال : ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ .
والصبر الجميل صبر بغير شكاة ، كما قال يعقوب عليه السلام ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ والعبد بين حاجتين : تحصيل ما ينفعه ودفع ما يضره ، والصبر الجميل يوجب ترك الشكاية إلى الناس والتوجه إلى الله في كشف الضر .

(٢) والصحيح والله أعلم أن أنين المريض لا يلزم أن يكون من الشكوى ، فإن النبي ﷺ قد قال لعائشة : « بل أنا وارأساه » [رواه ابن ماجه بسند حسن] ، وقيل له : إنك توعك وعكًا شديداً ، قال : « أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم » ، فقالوا : ذلك بأن لك أجرين ، قال : « أجل » [رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه] .
فهناك من الأنين ما يكون شكوى ومنه ما لا يكون شكوى وذلك بحسب حال القلب ، فمن أكثر التأوه ليظهر ذلك للناس يشتكي إليهم فهذا أنينه مذموم ، ومن كان يتأوه تخفيفًا من شدة الألم الذي يجده وهو إنما يشتكي

قال : وأمَّا الشكوى إلى الخالقِ فلا تُنافي الصَّبرَ الجميلَ ؛ فإنَّ يعقوب عليه السلام قَالَ : ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ** ﴾ [يوسف : ٨٣] . وقال : ﴿ **إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ** ﴾ [يوسف : ٨٦] .

وكان عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه يقرأ في الفجرِ بسورةِ يونس ، ويوسف ، والنحلِ ، فَمرَّ بهذه الآيةِ (١) في قراءتِهِ فبكى حتَّى سُمِعَ نشيجُهُ من آخرِ

إلى الله عز وجل ، وقد يبين للناس أنه يتحمل تحملاً شديداً ليكون قدوة في الصبر والتحمل ،كما فعل النبي ﷺ فهذا لا يذم على تأوهه أو أنينه .

ويعلم من تألمه ﷺ في مرضه أنه كالناس يمرض كما يمرض الناس ، ويألم كما يألم الناس حتى لا يغالي فيه ، فإن تلك المغالاة بدعة جاهلية وسبب للشرك ، كما قال الله تعالى عن المشركين ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ ﴾ فكانوا يتعجبون أن يكون الرسول بشراً ويطلبون أن يكون فوق البشر ، فظهر بذلك أن الغلو هو من جاهليتهم .

ويحمل كلام طاوس ـ رحمه الله ـ على الأنين المذموم المحمول على الشكوى وسؤال المخلوق بطريقة خفية ولعل له حاجة إلى من حضره ، فقدم بين يدي حاجته أنينه وتأوهه كما يقدم السائل بين يدي من يسأله من الكلام ما يستدر به عطفه ويلين به قلبه حتى يعطيه إذا سأله ، فضلاً عن كونه قد يكون من السخط على قضاء الله وعدم الرضا بمقدوره .

ولهذا كرهوا هذا الأنين وخاصة إذا كان في مرض الموت فإي حاجة في هذا المقام الشديد تدعو المريض إلى الاحتياج إلى الناس والشكوى إليهم ، وقد قربت الوفادة على الله وأي مراد من وراء السخط على مقدوره ، وليس إلا مقدوره ولا سبيل إلى فرار حيث لا حول ولا قوة إلا بالله ، ولا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه .

(١) أي ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [يوسف : ٨٦] .

الصفوف (١) . (٢) .

قال : ومن دعاءِ موسى عليه السلام : « **اللَّهُمَّ لك الحمدُ ، وإليك الْمُشتكى ، وأنتَ المستعانُ ، وبك المستغاثُ ، وعليك التُّكْلانُ ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بك** » .

---

(١) وهذا من بديع ما يرد في هذا الباب ، فإن عمر رضي الله عنه كانت مسئوليته عظيمة ولا يجد لها إلا الله وليس عنده من الأكفاء الثقات من يعينه على ما هو عليه وقد اتسعت رقعة الدولة وكثرت الأمصار وانتشر الجهاد واحتاج الناس إلى من يعلمهم ويفقههم في أمر دينهم فكانت الشكوى إلى الله عز وجل ، فكان يشكو إلى الله جلد الفاجر وعجز الثقة ، ويتمنى داراً مليئة بأمثال أبي عبيدة بن الجراح يستعملهم ، والجاهل يقول : وأي بث وحزن يشكوه عمر إلى الله وهو أمير المؤمنين وخليفة المسلمين بيده أمور البلاد ، لأنه لا يدري ثقل هذه التبعات وكذلك قوله تعالى عن عبده يعقوب عليه السلام ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ فإنه كان لا يجد من ولده القوي الأمين الذي يعينه في شكاته ولما ذهب ابنه الآخر الذي كان يسلو به عن يوسف تجدد الحزن على يوسف الذي كان حقًا هو القوي الأمين ، فالتجأ إلى ربه يشكو إليه ، ولما ذكروا له أمر بنيامين أخيهم قال : ﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ يقول : ليس يجد من بنيه من يعينه على تلك النوائب . وتأمل شكوى نبي الله نوح عليه السلام لما قل ناصروه وقد علم أنه لا ملجأ من الله إلا إليه فأخلص الشكاية لله وقال : رب إِنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ فنصره من القوم الذين كذبوا بآيات الله ، وكما يسأل المرء ربه رزقه وعافيته وكافة حاجاته يجب أن يسأله كشف الضر عنه ويُظهر التضرع والافتقار إليه .

(٢) روى عبد الرزاق وابن أبي شيبة بسند صحيح عن عبد الله بن شراد قال : سمعت نشيج عمر وأنا في آخر الصفوف في صلاة الصبح وهو يقرأ ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ وثبت عنه كان يكثر من قراءة يوسف والحج في الصبح رواه عبد الرزاق .

وفي الدُّعَاء الذي دعا به النَّبيُّ ﷺ لَمّا فَعَلَ به أهلُ الطَّائف ما فعلوا : « **اللَّهُمَّ إِلَيكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتي ، وَقِلَّةَ حِيلَتي ، وَهَواني عَلَى النَّاس ، يَا أرحَمَ الرَّاحِمينَ ، أنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وأنْتَ رَبِّي ، اللَّهُمَّ إِلَى مَنْ تَكِلُني ؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُني ، أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي ؟ إنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلا أُبَالي ، غَيْرَ أنَّ عَافِيَتَكَ هي أَوْسَعُ لي ، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذي أَشْرَقَتْ بِه الظُّلُمَاتُ وَصَلَحَ عَلَيه أَمْرُ الدُّنيَا وَالآخِرَةِ : أَنْ يَنْزِلَ بي سَخَطُكَ ، أوْ يَحِلَّ عَلَيَّ غَضَبُكَ ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى ، وَلا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله** » .

وفي بعض الروايات : « **وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِكَ** » [(١)] .

وَكلَّما قَوِيَ طمعُ العبدِ في فَضْلِ الله ورحمتِه ورجائه لقضاءِ حاجته ، ودَفْعِ ضرورتِه، قَوِيَتْ عبوديتُهُ له ، وحريتُهُ مِمَّا سواه ؛ فكما أنَّ طمعَهُ في المخلوقِ يُوجبُ عبوديتَهُ له ، فيأسُهُ منه يُوجب غِنَى قلبه عنه ، كَمَا قِيلَ : استَغْنِ عمَّنْ شئتَ تكن نظيرَهُ ، وأفْضِلْ على مَنْ شِئْتَ تكن أميرَهُ ، واحتجِ إلى مَنْ شئتَ تكن أسيرَهُ .

فكَذَلكَ طمعُ العبدِ في ربِّه ورجَاؤُهُ له ، يُوجِبُ عبوديتَه له ، وإِعراضُ قلبِه عن الطَّلَبِ من الله والرجاءِ له ، يُوجِبُ انصرافَ قلبه عن العبودية لله ، لا سيَّما مَنْ كان يرجو المخلوقَ ولا يرجو الخالقَ ، بحيث يكون قلبُهُ معتمداً إمَّا على رئاستِه وجنودِه وأتباعِه ومماليكِه ، وإِمَّا على أهلِه وأصدقائه ، وإِمَّا

---

(١) مرسل ومثله يحتمله الناس في أخبار المغازي والسير مع ما تضمنه من المعاني الجليلة والمعارف النبيلة .

على أمواله وذخائره ، وإمَّا على ساداته وكبرائه [(١)] .

قال : كمالكه ومَلكه وشيخه ومخدومه وغيرهم ممَّن هو قد ماتَ أو يموتُ ، قَالَ تعالىَ : ﴿ **وتوكَّلْ علَى الْحيِّ الَّذي لا يمُوتُ وسبِّحْ بِحمْدِهِ وكفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا** ﴿٥٨﴾ ﴾ [الفرقان : ٥٨] [(٢)] .

حقيقة عبودية القلب :

قال : وكُلُّ مَنْ عَلَّقَ قلبَهُ بالمخلوقين أن ينصروه ، أو يرزقوه ، أو أن يهدوه ، خَضَعَ قلبُهُ لهم ، وصَارَ فيه من العبودية لَهم بقدرِ ذلك ، وإن كَانَ في الظاهرِ أميرًا لهم مُدبِّرًا لأمورِهم ، متصرِّفًا فيهم ، فالعاقلُ ينظرُ إلى الحقائقِ لا إلى الظَّواهرِ .

فالرجلُ إذا تعلَّقَ قلبُهُ بامرأة - ولو كَانَتْ مباحةً له - يبقى قلبُهُ أسيرًا لها تتحكمُ فيها وتتصرَّفُ بما تريدُ ، وهو في الظاهرِ سَيِّدُها لأنَّه زوجُها ، أو مالكُها ، ولكنَّه في الحقيقةِ هو أسيرُهَا ومملوكُهَا ، لا سيَّما إذا علمت بفقرِهِ إليها وعشقهِ لها ، وأنَّه لا يعتاضُ عنها بغيرِهَا ، فإنَّها حينئذٍ تتحكَّمُ فيه تحكُّمَ السيِّدِ القاهرِ الظالمِ في عبدِهِ المقهورِ الذي لا يستطيعُ الخلاصَ منه ، بل أعظمَ .

---

(١) كالملك بين وزرائه وجنوده وحاشيته وكالسيد بين أتباعه ومماليكه ، وإنما هو في ملكه ورياسته بهم فما أشد حاجته إليهم ، وإن قيل ملك أو سلطان ، فإنما هو بهم ملك ولذلك لابد أن يرضيهم ، وهذا من ضعف التوكل على الله وسوء الظن به وقلة الزاد إليه .

(٢) فهذه الآية في كمال التوكل على الله وعلة وجود التوكل عليه أنه هو الحي الذي لا يموت سبحانه ، ومن سواه يموت ، فكيف يُترك من لا يموت ويُتوكل على من يموت ؟! .

فإنَّ أَسْرَ القلبِ أعظمُ من أسرِ البدنِ ، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن ؛ فإنَّ مَنْ استُعْبِدَ بدنُهُ واسْتُرِقَّ وأُسِرَ لا يُبالي إذا كان قلبُهُ مستريحًا من ذلك مطمئنًا ، بل يمكنه الاحتيالُ في الخلاصِ ، وأمَّا إذا كان القلبُ – الذي هو مَلِكُ الجسمِ – رقيقًا مُستَعبَدًا ، مُتَيَّمًا لغيرِ الله ، فهذا هو الذُّلُّ والأسرُ المحضُ ، والعبوديَّةُ الذليلةُ لما استعبدَ القلبَ (١) .

قال : وعبوديةُ القلبِ وأَسْرُهُ هي التي يترتَّبُ عليها الثوابُ والعقابُ ؛ فإنَّ المسلمَ لو أَسَرَهُ كافرٌ أو استرقَّه فاجرٌ ، بغير حَقٍّ لم يضرُّه ذلك إذا كان قائمًا بما يقدرُ عليه من الواجبات ، ومَنْ استُعبِدَ بحقٍّ ، إذا أدَّى حقَّ اللهِ وحقَّ موَاليه فله أجران (٢) .

قال : ولو أُكره على التكلُّمِ بالكفرِ فتكلَّم به وقلبُه مطمئنٌّ بالإيمان لم يضرُّه ذلك . وأمَّا مَنْ استُعبِدَ قلبُهُ فصارَ عبداً لغيرِ الله ، فهذا يضرُّه ذلك كل الضرر ، ولو كانَ في الظَّاهرِ مَلِكَ النَّاسِ .

فالحريةُ حريةُ القلبِ ، والعبوديةُ عبوديةُ القلبِ ، كما أنَّ الغِنَى غِنَى

---

(١) فهذا تعلق قلب رجل بامرأة مباحة له ،فأما إذا كانت محرمة عليه كانت المصيبة بها أعظم ، فتزداد عبوديته لها في الحرام ،و في هذا ما يوجب تخليص القلب لله وتفريغه مما سواه حتى ما يحب إلا لله وما يُبغض إلا لله ، حتى إذا ما جرت نفسه على أهوائها خطمها بخطُم الشريعة ، وهذا مما ترثه القلوب من تخليصها من أهوائها .

(٢) فالمملوك عند سيده إذا كان حر القلب لم تضره عبودية العبد ، وإن له لأجرين أجر لحرية قلبه من عبودية غير الله ، وأجر لعبودية بدنه ، وهذا الذي يؤدي حق الله وحق مواليه كما ثبت في الحديث ، وأما إذا كان العبد حر البدن عبد القلب فإنه لا تفيده حرية البدن وقلبه مأسور .

النَّفْسِ ، قَالَ النَّبيُّ ﷺ : « **لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ ، وإِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ** » [١] .

وهذا لَعَمْرُ اللهِ إذا كان قد استعْبَدَ قَلْبَهُ صورةٌ مباحةٌ ، فَأَمَّا مَنْ استعبدَ قلبَهُ صورةٌ محرَّمَةٌ، امرأةٌ أو صبيٌّ ، فهذا هو العذابُ الذي لا يدانيه عذابٌ .

وهؤلاء عُشَّاقُ الصُّورِ: من أعظمِ النَّاسِ عذابًا وأقلِّهم ثوابًا ، فإنَّ العاشقَ لصورةٍ ، إذا بقيَ متعلِّقًا بها مستعبَدًا لها ، اجتمعَ له من أنواعِ الشَّرِّ والخسرانِ والفسادِ ما لا يُحصيه إلا ربُّ العبادِ ، ولو سَلِمَ من فعلِ الفاحشةِ الكبرىَ ، فدوامُ تعلُّقِ القلبِ بها ، بلا فعلِ الفاحشةِ أشدُّ ضَرَرًا عليه ممَّن يفعلُ ذنبًا ثم يتوبُ منه ، ويزولُ أثرُهُ مِنْ قلبِهِ [٢] .

قال : وهؤلاء يُشَبِّهون بالسُّكَارى والمجانينَ كما قيلَ :

سَكْرَانُ سُكْرَ هَوىً وَسُكْرَ مُدَامَةٍ ... وَمَتَىَ إِفَاقَةُ مَنْ بِهِ سُكْرَانِ ؟!

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) فضرر دوام تعلق القلب بعشق الصور وإن لم يفعل الفاحشة أشد من ضرر الذنب على صاحبه حين يتوب منه ويزول أثره ، فلو زنى وتاب إلى الله لم يعد قلبه أسير هواه حيث قيده الذنب فأطلقته التوبة ، فهو مشغول بالرجوع إلى الله فما أبغض القيد إليه ، أما عشاق الصور فهم وإن لم يفعلوا الفاحشة لكن قلوبهم أسيرة لأهوائهم ، ولا يزال أحدهم مشغولاً بصاحبته شغلاً يصرفه عن عبودية الله إلى عبودية من يهواه ، فأما هذا فالقيد جيدب حبيب إليه ، وعامة ما يتكلم الناس عنه من الحب في زماننا هو من عشق الصور - أي الأشكال - سواء كانت مشاهدة على المباشرة كمن ينظر إلى وجه امرأة أو أمرد أو كانت بالنظر إلى الصور المرسومة أو الضوئية أو من خلال الأفلام ونحوها .

وقيل :

قَالُوا : جُنِنْتَ بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ :

الْعِشْقُ أعْظَمُ مِمَّا بِالْمَجَانِينِ

الْعِشْقُ لا يَسْتَفِيقُ الدَّهْرَ صَاحِبُهُ

وإِنَّمَا يُصْرَعُ الْمَجْنُونُ فِي الْحِينِ

ومن أعظم أسباب هذا البلاء :

إعراضُ القلبِ عن الله ؛ فإنَّ القلبَ إذا ذاقَ طعمَ عبادةِ الله والإخلاصِ له ، لم يكن عنده شيءٌ قطُّ أحلى من ذلك ، ولا ألذّ ولا أمتعَ ولا أطيبَ .

والإنسانُ لا يتركُ محبوبًا إلا بمحبوبٍ آخر يكون أحبَّ إليه منه ، أو خوفًا من مكروهٍ ، فالحبُّ الفَاسدُ إنَّما ينصرِفُ القلبُ عنه بالحبِّ الصالحِ ، أو بالخوفِ من الضَّرَرِ [١] .

---

(١) فالحاصل أن من ابتلى بالعشق وجب أن يداويه بمحبة الله عز وجل ، لأن هذا هو الذي سيخرج الحب من قلبه ، فأما من ترك قلبه لمعشوقه فهو كما قيل :

أُحب لحبها السودان حتى　　　أُحب لحبها سود الكلاب

فهذا كان قد تعشق جارية سوداء أحب لحبها كل أسود حتى أحب لحبها سود الكلاب ، والكلب الأسود شيطان ، يقول أحب لحبها الشياطين ، فما أخسر صفقته حين يجمعه الله إليه .

والمؤمن يترك المعصية بحب الله ولخوفه من ضررها عليه حيث قد توجب عليه عذاب الله ومقته في الدنيا والآخرة ، والخوف من الله من الإيمان الذي زينه الله في قلوب عباده المؤمنين خلافًا لما يزعمه الصوفية من أن الخوف منزلة من منازل العوام ناقصة ولو أدركوا مقدار ما يرثه القلب بحسن

قال : قَالَ تعالىَ في حَقِّ يوسفعَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** ﴾ [يوسف : ٢٤] .

فاللهُ يصرفُ عن عبدِهِ ما يسوؤُهُ من الميل إلى الصُّوَرِ والتعلُّقِ بها ، ويصرفُ عنه الفحشاءَ بإخلاصِهِ للهِ (١) .

اللجأ إلى الله والفرار إليه من نفسه وشيطانه فيستشعر بالخوف ثم الطمأنينة والسكينة لأقروا بخلاف ما ذهبوا إليه .
وإنما دعاهم إلى ما دعاهم إليه من ذلك اعتقادهم أن العبادة إنما تكون لله لمحبته لا لخوفه ولا لرجائه ولو علموا لعلموا أن الخوف والرجاء من أعظم المنازل التي ينزلها السالكون إلى محبة الله . . . وأيضاً فالخوف من المقاصد الشرعية الأصلية وهكذا المحبة والرجاء والتوكل وغير ذلك ، ولكل منزلة من تلك المنازل معالمها وآثارها وجناها وإن جناها لدانٍ .
وبالخوف من الله تسري الطمأنينة في النفوس وتستقر في القلوب في مستقر مكين ، وباستقرارها في قرارها يخرج من القلب كل خوف مما سوى الله حيث لا يجتمع خوفان متضادان ولا أمنان .
وتعظيم أمر الله عز وجل والخشية منه وحده مما يذوق به العبد طعم الإيمان ، ونكتة المسألة في أعمال القلوب أن تطهيرها يوجب صفاءها وإن صفاءها يوجب تلهفها كما قال عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : « لو طهرت قلوبنا ما شبعت من كلام الله » .

(١) قوله ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ قد تضمن العلة التي صرف الله بها عنه السوء والفحشاء وهو مما يدل على أن هذا ليس خاصاً بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فكل من حقق الإخلاص لله عز وجل صرف الله عنه السوء والفحشاء ، وهذا كقوله تعالى عن عبده يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ .
وقوله المخلصين قرئ بكسر اللام على أنه اسم فاعل وهو من عمل لله وأخص في عمله وهو تحقيق قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، وقرئ

قال : ولهذا يكونُ قبلَ أن يذوقَ حلاوةَ العبوديةِ لله ، والإخلاصِ له ، بحيثُ تغلبُهُ نفسُهُ على اتِّبَاعِ هواها ، فإذا ذاقَ طعمَ الإخلاصِ للهِ وقَوِيَ في قلبِه ، انقَهَرَ له هواه بلا كبيرِ علاجٍ (١) .

قال : قَالَ تعالىَ : ﴿ **إنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ** ﴾ [العنكبوت : ٤٥] ، فإنَّ الصلاةَ فيها دَفْعٌ لشَرٍّ مكروهٍ ، وهو الفحشاءُ والمنكرُ ، وفيها : تحصيلٌ لخيرٍ محبوبٍ ، وهو ذِكْرُ اللهِ .

وحصولُ هذا المحبوبِ أكبرُ من دَفْعِ ذلك المكروه ؛ فإنَّ ذِكْرَ اللهِ عبادةُ للهِ ، وعبادةُ القلبِ للهِ مقصودةٌ لذاتِهَا ، وأمَّا اندفاعُ الشَّرِّ عنه فهو مقصودٌ لغيرِهِ على سبيلِ التَّبَعِ (٢) .

بالفتح على أنه اسم مفعول وهو من أخلصه الله له فجعله مخلصًا في عمله وهو تحقيق قوله ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وهذان متلازمان .

(١) أي بلا كبير مدافعة لتلك المعصية التي وقع في هواها ، وأما من ضعف إخلاصه ضعفت إرادته على ترك المعصية واشتدت منازعته نفسه إذا أرادها على تركها فلا يزال في ضيق وحرج .

(٢) فذكر الله الذي في الصلاة أكبر من كونها تنهى عن الفحشاء والمنكر لأن الذكر مطلوب تحصيله والمنكر مطلوب دفعه وتغييره وهذا ما فسر به شيخ الإسلام الآية .
وقيل في تفسيرها أن ذكر الله لعبده أكبر من ذكر عبده إياه في الصلاة ، وتفسير شيخ الإسلام حسن جدًا فإن ذكر الله هو المقصود الأصلي لها كما قال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾ ، فالصلاة غذاء القلب وشفاؤه من الأدواء التي تصيبه وحاجته إلى الغذاء أعظم من حاجته إلى الدواء ، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وفيها ذكر الله الذي هو أكبر ، وهو سبب لذكر الله للعبد الذي هو أعظم من ذكر العبد لربه كما قال ﷺ فيما يرويه عن ربه « وإن ذَكرَني في ملأ ذكرته في ملأٍ خير منه » [متفق عليه

قال : والقلبُ خُلِقَ يُحبُّ الحقَّ ويريدُهُ ويطلبُهُ ، فلمَّا عَرَضَتْ له إرادةُ الشَّرِّ طَلَبَ دَفْعَ ذلك ؛ فإنَّها تُفْسِدُ القلبَ ، كما يَفْسدُ الزَّرْعُ بما يَنْبُتُ فيه من الدَّغَلِ (١) .

ولهذا قَالَ تعالىَ : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠)** ﴾ [الشمس : ٩ ، ١٠] . وَقَالَ تَعالىَ : ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ** ﴾ [النور : ٣٠] . وَقَالَ تَعالىَ : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ (١٥)** ﴾ [الأعلى : ١٤ ، ١٥] .

وَقَالَ تَعالىَ : ﴿ **وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا** ﴾ [النور : ٢١] .

فجعَلَ سبحانه غَضَّ البصرِ ، وحِفْظَ الْفَرْجِ ، هو أقوى تزكيةٍ للنَّفْسِ ، وبَيَّنَ أنَّ تَرْكَ الفواحشِ من زكاةِ النفوسِ ؛ وزكَاةُ النفوسِ تتضمَّنُ زوالَ جميعِ الشرورِ من الفواحشِ ، والظُّلْمِ والشِّرْكِ ، والكَذِبِ وغيرِ ذلك (٢) .

من حديث أبي هريرة رضي الله عنه] . وقال الله عز وجل : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ ﴾ .

وأيضًا : فإن القول بأن ذكر الله الذي هو من عبادة الله وترك الفحشاء والمنكر الذي هو من تقوى الله متلازمان متعين لعموم قوله ﷺ : « اتق المحارم تكن أعبد الناس » [حديث حسن رواه الترمذي وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه] ، فإن ترك ما حرم الله من الفحشاء ومنكر يلزم منه طهارة القلب وصفاؤه لذكر الله وعبادته .

(١)الدَّغَلُ : الفسادُ .

(٢)فالقلب مفطور على محبة الحق كما قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ ، فهذه الفطرة هي الميل إلى الله عز

قال : وكذلكَ طَالبُ الرئاسةِ والعُلُوِّ في الأرضِ ، قلبُهُ رقيقٌ لمن يُعينه

وجل ، وإرادة الشر من العوارض التي يطلب لدفعها ذكر الله وإقامة الصلاة حتى يرجع القلب إلى ما كان عليه كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾ ، قال سعيد بن المسيب هو القلب الصحيح ، وقال أبو عثمان النيسابوري هو القلب السالم من البدعة المطمئن إلى السُنة .

وقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) ﴾ جرى شيخ الإسلام في تفسيره على القول الثاني وهو قد أفلح من زكى نفسه ، والمشهور الصحيح الذي تدل عليه السُنة أن المعنى قد أفلح من زكي الله نفسه ، ولذلك فإن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية حينما تكلم عن القدر ، وأن الأمر قد فرغ منه ، فالله ألهم كل نفس إما فجورها أو تقواها ، والإلهام هنا بمعنى الخلق والإيجاد ، فأوجد الله في نفس المتقي التقوى وأوجد في نفس الفاجر الفجور حكمة منه وعدلاً .

وأما تزكية العبد نفسه فمن توفيق الله له ولكنها لا تزكو إلا أن يزكيها الله كما قال ﷺ : « اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكَّاها » [رواه مسلم وأحمد عن زيد بن أرقم رضي الله عنه] ، وهذا يدل على صحة التفسير المشهور .

وقوله « وزكِّها أنت خير من زكَّاها » يدل على أن تزكية العبد لنفسه لا يحصل بها المراد حتى يزكيها الله تعالى فتزكو ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ وهذا واضح ، ويرى شيخ الإسلام أن فلاح الإنسان بتزكية النفس بزوال إرادة الشر منه .

وقوله تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ (١٥) ﴾ نص في أن العبد هو الذي يتزكى ثم الله يزكيه ولكنه لا تنفعه تزكيته نفسه حتى يزكيه الله . فالأنفس ثلاثة : نفس زكية ، ونفس فاجرة ، ونفس بينهما فيها زكاة وفجور والعبد فيها إلى الأغلب منهما .

عليها ، ولو كَانَ في الظَّاهِرِ مقدَّمَهُم والمطاعَ فيهم ، فهو في الحقيقة يرجوهم ويخافهم ؛ فيبذلُ لهم الأموالَ والولاياتِ ، ويعفو عمَّا يجترحونه ليطيعوه ويعينوه ؛ فهو في الظَّاهِرِ رئيسٌ مطاعٌ ، وفي الحقيقة عبدٌ مطيعٌ لهم ، والتحقيقُ أنَّ كلاهما فيه عبوديةٌ للآخر ، وكلاهما تاركٌ لحقيقةِ عبادةِ الله [١] .

قال : وإذا كان تعاونُهما على العُلُوِّ في الأرضِ بغيرِ الحقِّ ، كانا بمنزلةِ المتعاونين على الفاحشةِ ، أو قَطْعِ الطريقِ [٢] .

---

(١) فالملك عبد لجنده ومرؤوسيه لحاجته إليهم في تعضيد ملكه وتوطيده ، وهؤلاء عبيد عنده لأنهم يخافون شره ويرجون خيره ، فلا يزال يمنحهم ويعطيهم ليحافظ على ولائهم له ولا يزالون في طاعته وموالاته ليحرزوا رضاه عنهم ، فالحاجة داعية العبودية واسترقاق النفوس ، فإن أساسها الخوف والرجاء ومتى كانت حاجته إلى غير الله كان خوفه ورجاؤه لغيره ، وهذا التوافق من طباع النفوس الخسيسة ومن أمارات الرذالة والدناءة .

(٢) قال الله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ فهذه أربعة أصناف : منهم من يريد العلو ولا يريد الفساد ، كطالب الملك ، ولو كان يحكم بالعدل ، ومنهم من يريد الفساد ولا يريد العلو ، كطالب الشهوات الحيوانية حتى ولو كان بذل النفس وهوانها ، ومنهم من يريد العلو والفساد جميعًا ،كإبليس وكاليهود ، وهؤلاء يريدون فساد العالم وتدميره ، ومنهم من لا يريد علواً في الأرض ولا فساداً ولكن يريد علو الإيمان وظهوره وإن لم يكن له من وراء ذلك حظ ، بل ربما تأذى إذا وجد نفسه في موقع المسئولية ، فهذا الذي له الدار الآخرة . والرئيس والمرءوس إذا كان تعاونهما على العلو في الأرض بغير الحق كانا بمنزلة المتعاونين على الفاحشة أو قطع الطريق .

قال : فكلٌّ واحدٍ من الشخصين لهواه الذي استعبده واسترقَّه مستعبدٌ للآخر (١) .

قال : وهكذا أيضًا طالبُ المال ، فإنَّ المالَ يستعبدُهُ ويَسْتَرِقُهُ .

وهذه الأمور نوعان :

منها : ما يحتاج العبدُ إليه ؛ ككل من يحتاج إليه من طعامه وشرابه ، ومسكنه ومنكحه، ونحو ذَلك ، فهذا يطلُبُه من اللهِ ، ويرغبُ إليه فيه، فيكون المالُ عنده - يستعملُهُ في حاجته - بمنزلةِ حمارِهِ الذي يركبُهُ ، وبساطِهِ الذي يجلسُ عليه ،بل بمنزلةِ الكنيف(٢) الذي يقضي فيه حاجته، من غير أن يستعبدَهُ (٣) .

قال : فيكونَ هلوعًا ، إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جزوعًا ، وإذا مَسَّهُ الخيرُ منوعًا .

ومنها : ما لا يحتاجُ العبدُ إليه ، فهذا لا ينبغي له أن يعلِّقَ قلبَهُ به ، فإذا علَّقَ قَلبَهُ به صارَ مستعبَدًا له ، وربَّما صَارَ معتمِدًا على غيرِ اللهِ ، فلا يبقى

---

(١) يعني أن كلاً منهما لاستعباد الهوى إياه يستعبد صاحبه ويسترقه .

(٢) الكنيفُ : مكان قضاء الحاجة من البول والغائط .

(٣) وهذا تشبيه موافق فإن هذا العبد إنما يكون المال والشهوة والرياسة وأمثال ذلك عنده بمنزلة الكنيف الذي يقضي فيه حاجته ولكنه لا ينشأ عن ذلك محبته لهذا الكنيف ورغبته أن يظل فيه ، أو يكون ذلك عنده كحماره الذي يركبه ليقضي عليه حاجته أو يصل به إلى غايته دون أن يكون بينهما مناسبة فوق ذلك ، ولا شك أن هذا الحمار دون أخس حاجاته وأدنى مقصوداته ، أو تكون هذه الأشياء كالنعل الذي يلبسه في قدمه ولكن أكثر الناس وضعوا النعال فوق رؤوسهم وتاهوا بها كأنها تيجان وافتخر بعضهم على بعض بها ، فما أبخس صفقاتهم .

معه حقيقةُ العبادةِ للهِ ، ولا حقيقةُ التَّوكُّلِ عليه ، بل فيه شُعْبَةٌ من العبادة لغير الله ،وشُعبةٌ من التوكُّلِ على غير الله ،وهذا من أحقِّ النَّاس بقوله ﷺ : « **تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَم ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَار ، تَعِسَ عَبْدُ الْقَطِيفَة ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَة** » [(١)] ، وهذا هو عبدُ هذه الأمورِ ؛ فإنَّه لو طَلَبَهَا من الله ، فإنَّ اللهَ إذا أعطاه إيَّاها رَضِيَ ، وإذا مَنَعَهُ إيَّاها سَخِطَ .

وإنَّما عَبْدُ الله مَنْ يُرضيه ما يُرضي اللهَ ، ويُسخطه ما يُسخط اللهَ ، ويحبُّ ما أحبَّه اللهُ ورسُولُهُ ، ويُبغضُ ما أبغضهَ اللهُ ورسولُه ، ويُوالي أولياءَ الله ، ويُعادي أعداءَ الله تعالى ، وهذا هو الذي استكملَ الإيمانَ ، كما في الحديث : « **مَنْ أَحَبَّ للهِ ، وأبْغَضَ للهِ ، وأَعْطَى للهِ ، ومَنَعَ للهِ ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإيْمَانَ** » [(٢)] .

وقَالَ : « **أوْثَقُ عُرَى الإيْمَان : الحُبُّ فِي اللهِ ، وَالْبُغْضُ فِي اللهِ** » [(٣)] .

وفي « الصحيح » عنه ﷺ : « **ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإيْمَان : مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أحَبَّ إلَيه مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ المَرْءَ لا يُحبُّهُ إلا للهِ ، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرجِعَ إلَى الْكُفْرِ بَعْدَ إذْ أنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ** » [(٤)] .

---

(١) تقدَّم تخريجه .

(٢) رواه أبو داود من حديث أبي أُمامه الباهلي رضي الله عنه والترمذي من حديث معاذ بن أنس الجُهني ، وقال : هذا حديث حسن ، وحسَّنه الألباني .

(٣) أخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وحسنه الألباني .

(٤) متفق عليه من حديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

فهذا وافقَ ربَّه فيما يُحبُّه وما يكرهُه ، فكان اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه ممَّا سواهما ، وأحبَّ المخلوقَ للهِ ، لا لغرضٍ آخرَ ، فكانَ هذا من تمامِ حُبِّه للهِ ؛ فإنَّ مَحَبَّةَ محبوبِ المحبوبِ من تمامِ محبَّةِ المحبوبِ ، فإذا أحبَّ أنبياءَ اللهِ ، وأولياءَ اللهِ لأجلِ قيامِهم بمحبوباتِ الحقِّ ، لا لشيءٍ آخَرَ ، فقد أحبَّهم للهِ لا لغيرِهِ ، وقد قَالَ تعالَى : ﴿ **فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾ [المائدة : ٥٤] [١] .

قال : ولهذا قَالَ تعالى : ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ﴾ [آل عمران : ٣١] ، فإنَّ الرَّسُولَ لا يأمرُ إلا بما يُحبُّ اللهُ ، ولا ينهى إلا عمَّا يُبغضُهُ اللهُ ، ولا يفعلُ إلا ما يُحبُّهُ اللهُ ، ولا يُخبرُ إلا بما يحبُّ اللهُ التصديقَ به ، فَمنْ كَانَ مُحبًّا للهِ ، لَزِمَ أن يَتَّبعَ الرسولَ ؛ فيُصدِّقَهُ فيما أخبرَ ، ويُطيعَهُ فيما أمَرَ ، ويتَأسَّى به فيما فعلَ ، ومَنْ فَعَلَ هذا فقد فَعَلَ ما يُحبُّهُ اللهُ ، فيحبُّهُ اللهُ .

علامتا محبة العبادِ لربهم :

وقدْ جَعَلَ اللهُ لأهلِ محبَّتِهِ علامتين :

اتباع الرسولِ ، والجهاد في سبيلِهِ ، وذلك لأنَّ الجهادَ حقيقتُهُ الاجتهادُ في حصولِ ما يُحبُّهُ اللهُ من الإيمان ، والعملِ الصالحِ وفي دَفْعِ ما يُبغضُهُ اللهُ

---

(١) فمن أحب من يحبه اللهُ ومن يحب اللهَ وما يحب اللهُ فقد أحب بحبهم اللهَ ، ومن أبغض من ذلك شيئًا كان بموئل خزي ومقعد سوء ، ولا يستكمل المرء دينه حتى يكون حبه وبُغضه لله وحتى يوالي أولياء الله ويعادي أعداء الله .

من الكفرِ والفسوقِ والعصيانِ (١) .

قال : قَالَ تَعالَى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) ﴾ [التوبة : ٢٤] .

---

(١) فقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ يدل على وجوب اتباع النبي ﷺ لمن كان صادق المحبة لله تعالى فيلزم المحب لله أن يلتزم ما جاء به النبي ﷺ فعلاً وتركًا وإخبارًا ، فيفعل ما أمر به ويترك ما نهى عنه ، ويصدق بما أخبر به ، لأن النبي ﷺ يأمر بما يحبه الله وينهى عما يُبغضه الله .

وأما الجهاد فغرضه بذل الجهد في تحقيق العبودية وهو قوله ﷺ : « بُعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له » ، فالمؤمن يجاهد ليؤمن الناس ، ولابد له أن يدفع ما يُبغضه الله عز وجل من الكفر والفسوق والعصيان ويمنعه بالجهاد ما استطاع .

فالمراد من تحصيل العلوم الشرعية والدعوة إلى الله والجهاد في سبيله أن تتحقق العبودية لله تعالى في الأرض ، وهذا من كمال حب العبد لله ، ولا يتم للإنسان أمره حتى ينظر في الوسائل والغايات ، فإن للوسائل أحكام المقاصد ولا يغفل عن تحصيل المراد على الوجه المقصود بتكميل الوسائل ، فكما أن الإسناد من الدين ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء ، إلا أننا لا نقف عند ذلك ، وكذا فإن علوم اللغة أمر مطلوب ولولا حفظ العربية ومعرفة قواعدها لما فهم الناس كلام الله ، ولكن لا ينبغي أن يكون تحصيل علوم اللغة هي غاية مراد الإنسان ، فإن هذه وأمثالها علوم وسائل مقصود منها غيرها ، وأن إظهار فضائل علم من العلوم والاكتفاء به عن غيره من العلوم الواجبة خطر عظيم .

فتوعَّدَ مَنْ كَانَ أهلُهُ ومالُهُ أَحبَّ إليه من اللهِ ورسُولِهِ والجهادِ في سبيله بهذا الوعيدِ الشديدِ (١) .

قال : بل قد ثبتَ عنه ﷺ في « الصحيح » أنَّه قَالَ : « **والَّذي نَفْسي بِيَدِهِ لا يُؤْمِنُ أحَدُكُمْ حَتَّى أكُونَ أحَبَّ إلَيهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أجْمَعِينَ** » (٢) ، (٣) .

وفي « الصحيح » أنَّ عُمرَ بن الخطاب رضي الله عنه قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ وَاللهِ لأَنْتَ أحَبُّ إلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيءٍ إلا مِنْ نَفْسِي . فَقَالَ ﷺ : « **لا يا عُمَرُ ، حَتَّى أكُونَ أحَبَّ إلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ** » . قَالَ : فَواللهِ لأَنْتَ أحَبُّ إلَيَّ مِنْ

---

(١) مع أن محبة هذه الأشياء فطرية إلا أنهم لما أحبوها أشد من حبهم لله ولرسوله والجهاد في سبيله صاروا فاسقين مستحقين ، لهذا الوعيد الشديد ، وأنت ترى أن تلك الدلائل الشرعية متواترة على نسق تفيد وجوب محبة الله ورسوله ﷺ وتخليصها مما قد ينازعها أو يقدم عليها .

(٢) رواه البخاريُّ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، ورواه مسلم من حديث أنسٍ ابن مالك رضي الله عنه .

(٣) وهذا أيضًا في الإيمان الواجب فإنه لا يؤمن الإيمان الواجب أحد حتى يكون بهذه المثابة وهذه المحبة كما هو معلوم عمل قلبي يظهر أثره في أعمال الجوارح ، فالواجب تقديم طاعة الرسول ﷺ على طاعة ولده ووالده والناس أجمعين .

وقد يكون المرء مطيعًا ولا يكون محبًا لكن لا يكون محبًا إذا لم يكن مطعيًا ، بل لابد إذا أحب أن يطيع وإذا كان لديه أصل محبة الرسول ﷺ وأراد أن يصل إلى كمال المحبة الواجبة فإن اتباع السُنة سيصل بتلك المحبة إلى كمالها ، فهذا القدر من المحبة الذي في قلبه لا يزال ينمو ويزداد بطاعة الرسول ﷺ ، ويدل على ذلك الحديث الآتي :

نَفْسِي ، فَقَالَ : « الآنَ يا عُمَرُ »[١] .[٢] .

---

(١) رواه البخاري من حديث عبد الله بن هشام .

(٢) أي الآن وصلت إلى حقيقة المحبة وكمالها ، فإنك لا تبلغ منها المرتبة العالية حتى تكون كذلك ، وهذا الحديث يدل على أن الأصفياء لا هوى عندهم بغير هدى إلا هوى خفي عليه هداه فلما استبان الهدى اهتدى الهوى .

هذا وقد قال هنا في هذا الحديث لا يا عمر ولم يقل لا يؤمن كما قال في قوله : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » ، فإن انتفاء الإيمان في مثل هذه الصور يفيد وجوب ما ذكر لتحقيق كمال الإيمان الواجب ، فحيث قال : لا يؤمن من فعل كذا ، وليس بمؤمن أو ما هم بمؤمنين ، ونحو ذلك ، فقد نفى عنه واجبًا من واجبات الإيمان التي لا يتم إلا بها أو يكون الإيمان كله منفيًا كما في قوله تعالى :﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) ﴾ .

وفي خبر عمر رضي الله عنه لم يصرح بنفي الإيمان إنما قال « لا ياعمر » فلعله يكون ذلك لأن عمر قد أعد له منزلة عالية لا يبلغها حتى يكون الرسول ﷺ أحب إليه من نفسه .

وبالفعل فعندما أخبره النبي ﷺ بذلك انتفع فزاد الإيمان عنده حتى صار الرسول ﷺ أحب إليه من نفسه ، فقال الآن يا عمر ، يعني : أنك بلغت الآن حقيقة المحبة الصادقة الكاملة والذي يظهر أن هذا في المستحبات كما قال : « ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه » [رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه] والله أعلى وأعلم ، وهذا يدل على تفاوت محبة المحبين وأن الاستجابة لله وللرسول ﷺ في المداومة على الطاعة ترتفع بها درجة المحبة ، فإذا ما تبين للعبد أن في تمام الاستجابة لله ولرسوله كمال المحبة أحب تلك الطاعات التي تبلغه أشرف الغايات وتنزله أعلى الدرجات فصارت هينة ميسورة بل مرغوبة مطلوبة .

والغرض المقصود من هذا الكلام أن كمال حبه لله بالجهاد لأنه غاية البذل في سبيله ولا أدل على كمال المحبة منه ، وكذا بأن يكون من يحبه الله وما

قال : فحقيقةُ المحبَّةِ لا تتمُّ إلا بموالاة المحبوبِ ، وهو موافقتُه في حبِّ ما يحبُّ، وبُغضِ ما يُبغض ، واللهُ يحبُّ الإيمانَ والتقوى ، ويُبغضُ الكفرَ والفسُوقَ والعصيانَ ، ومعلومٌ أنَّ الحُبَّ يُحرِّكُ إرادة القلبِ ، فكلَّما قويت المحبَّةُ في القلبِ ، طَلَبَ القلبُ فعلَ المحبوباتِ ، فإذا كانت المحبةُ تامَّةً استلزمت إرادةً جازمةً في حصولِ المحبوباتِ ، فإذا كان العبدُ قادراً عليها حصَّلَها ، وإن كان عاجزاً عنها فَفَعَلَ ما يقدرُ عليه من ذلك ، كان له أجرٌ كأجرِ الفاعلِ [١] .

قال : كَمَا قَالَ النَّبيّ ﷺ : « **مَنْ دَعَا إِلَى هُدى كَانَ لَهُ مِنَ الأجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِم شَيءٌ ، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلالة ، كَانَ عَلَيهِ مِنَ الْوِزْرِ مِثْلُ أَوْزَارِ مَنْ تَبِعَه ، مَنْ غَيْرِ أنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيءٌ** » [٢] .

وَقَالَ ﷺ : « **إنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالاً مَا سِرْتُمْ مَسِيراً وَلا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إلا كَانُوا مَعَكُمْ** » ، قَالُوا : وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ ؟ ، قَالَ : « **وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ** ؛

يحبه الله أحب إليه من كل شيء .
والجهاد مما يحبه الله فلابد أن يكون أحب إليه من أبيه وابنه وأهله وعشيرته ، والنبي ﷺ ممن يحبهم الله ، فلا بد أن يكون أحب إليه مما سواه ، والمؤمن ممن يحبهم الله فلابد أن يحب له ما يحب لنفسه من الخير بل أنه ليؤثره على نفسه ويفضله عليها من أمور الدنيا .

(١) فالمحبة الكاملة تستلزم إرادة جازمة فإن كان قادراً على فعل المحبوب دفعته إرادته الجازمة إلى الفعل ، وإن كان عاجزاً فعل ما يقدر عليه من ذلك ، فمتى فعل ما يقدر عليه مع كمال المحبة نال أجر من فعل الفعل كاملاً .

(٢) رواه مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ .

حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ »(١) ، (٢) .

(١) رواه البخاري من حديث أنس ﷺ ، ورواه مسلم عن جابر ﷺ بلفظ : « كُنَّا مَعَ النَّبيِّ ﷺ في غَزَاة ، فَقَالَ : « إنَّ بالْمَدينَة لَرجَالاً مَا سرْتُمْ مَسيراً ، وَلا قَطَعْتُمْ وَاديًا ، إلا كَانُوا مَعَكُمْ ، حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ » .

(٢) والشاهد من الحديث الأول أن حقيقة المحبة لا تتم إلا بموالاة المحبوب وموافقته فيا يحب ، فالله تعالى يحب طاعته سبحانه ويحب تقواه ، وترك معاصيه والعبد يقدر على طاعات نفسه ويحب أن يطيع الناس ربهم ، فيدعوهم إلى الله فينال من الأجر كما لو فعلها ، فإن هذا الواجب ، وهو طاعة الناس ربهم عمل فيه ما يقدر عليه وهو دعوتهم إلى الطاعة .
والذي يعمل المعاصي يود أن لو كان الناس في المعصية على ما هو عليه منها ، ولذا يصيبه من بلائها ما عمله ويحمل من أوزارها مع أوزاره أوزار من عمل بها بسبب دعوته إياهم إليها .
وإذا رضى العبد بالكفر فهو كافر ، وكذا من رضي بالمعصية فهو عاص ، والذي غاب عن الطاعة بعذر أو عجز عن أدائها وفعل منها ما يقدر عليه مع كمال حبه ونصحه لله ورسوله ﷺ كان كمن فعلها كما قال ﷺ : إن بالمدينة رجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم » ، قالوا : وهم بالمدينة ؟ ، قال : وهم بالمدينة ، حبسهم العذر » .
وهذا بيان لقوله تعالى : ﴿ وَلا عَلَى الَّذينَ إذَا مَا أَتَوْكَ لتَحْملَهُمْ قُلْتَ لا أَجدُ مَا أَحْملُكُمْ عَلَيْه تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفيضُ منَ الدَّمْع حَزَنًا أَلاَّ يَجدُوا مَا يُنفقُونَ ﴾
وهذا من كمال حبهم لما يحبه الله من الجهاد وخاصة هذه الغزوة وهي غزوة العسرة استقبل بها النبي ﷺ سفراً بعيداً وحراً شديداً ومفاوز عدوا كثيراً حين طابت الثمار والظلال وكان جلاد بني الأصفر وهو شيء لم يعهدوا مثله قبل قط ، ومع ذلك تاقت نفوسهم إليه فلما لم يقدروا عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع .
فمن عجز عن فعل شيء من الطاعات وقد أحبه كمال الحب إلا أنه لم

يستطع الوصول إليه كتب له كأنه فعله كما قال النبي ﷺ أيضًا : « من سأل الله الشهادة مخلصًا من قلبه أنزله الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه » [رواه مسلم وأصحاب السُنن عن سهل بن حنيف رضي الله عنه] .

ولربما سبق بالنية كثيراً من العاملين كما قيل « نية المؤمن خير من عمله » ، فمن كانت إرادته غير جازمة في فعل الخير كانت محبته ناقصة وإنما يحدو بالنفوس حاديها إلى هواها ، فلم يك ليمنعه من المراد أن يريده إلا ضعف المحبة وإلا فلو أحب لسارع في هواه .

وعلى ذلك فكل من زعم محبة الله ورسوله ﷺ ثم لم يطع كانت محبته ناقصة حيث لو كان كامل المحبة لوافق الرب فيما يحب وهذا يقتضي أن يحب ما يحبه الله ثم إذا كان قادراً عليه سابق إلى فعله وإذا كان غير قادر تمناه وعمل ما يقدر عليه منه فإن حصله فقد حصله وإلا حصل له من الأجر كأجر العاملين كاملاً غير منقوص .

وغزوة تبوك أشد غزوة غزاها رسول الله ﷺ ومع ذلك كان ممن لم يشهدها لعذره من هو أفضل من كثير ممن شهدها مع الرسول ﷺ في شدة الحر وطول السفر من الأعراب والمنافقين وضعاف الإيمان ، وفي بعض الآثار أن رجلاً دخل المسجد فوجدهم قد انصرفوا من الصلاة فشهق شهقة فقال رجل ممن حضر الصلاة يا ليت لي أجر هذه الشهقة ولك أجر صلاتي . والناس يوم القيامة يتفاضلون بقدر ما في قلوبهم أعظم من تفاضلهم بقدر أعمالهم كما قيل :

من لي بمثل سيرك المدللِ تمشي رويداً وتجيء في الأولِ

فربما وجدت صاحب عمل محقور عند البعض قد بلغ به من الدرجات لصدق محبته واخلاصه لله عز وجل ، وهذا كالرجل كان في الدنيا يحدث نفسه بكثير من العمل الصالح ولطالما انشغلت نفسه بهذا الحديث الحبيب إليها لصدق نيته وصفاء نفسه ولكنه لم يقدر له منه إلا اليسير فعمله فهذا يحرز الأجر كله بل لا يعلم أجره إلا الله كما قال النبي ﷺ :

قال :والجِهادُ : هو بَذْلُ الوُسْعِ – وهو كُلُّ ما يُمْلَكُ من القُدْرَةِ – في حصولِ محبوبِ الحقِّ ، ودفعِ ما يكرهه الحقُّ ، فإذا ترك العبدُ ما يقدرُ عليه من الجهادِ ، كان تركُه دليلاً على ضَعْفِ محبَّة اللهِ ورسُولِه في قلبِه .

ومعلومٌ أنَّ المحبوباتِ لا تُنَالُ غالبًا إلا باحتمالِ المكروهاتِ ، سواءٌ كانت

« سبق درهم مئة ألف درهم ، رجل له درهمان أخذ أحدهما فتصدق به ، ورجل له مال كثير فأخذ من عرضه مئة ألف فتصدق بها » [رواه النسائي عن أبي ذر بسند حسن] .

وقد قال النبي ﷺ في إحدى الغزوات وهم قافلون منها :« سبق المفردون » قيل : ومن المفردون يا رسول الله ؟ ، قال : الذاكرون الله كثيراً والذاكرات» [رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه] . فالذكر علامة انشغال القلب بالمحبوب وكثرة الذكر تنفي آفات النسيان والإعراض ، والذين يذكرون الله كثيراً هم أصدق المجاهدين وأكمل المحبين في الحقيقة .

وقد يكون العبد الصالح في حال هي أكمل من حال المجاهد كما روى أحمد وأبو يعلى والبزار بسند حسن عن طلحة بن عبيد الله أن نفراً من بني عذرة ثلاثة أتوا النبي ﷺ فأسلموا قال : فقال النبي ﷺ من يكفينيهم ، قال طلحة : أنا ، قال : فكانوا عند طلحة فبعث النبي ﷺ بعثًا فخرج فيه أحدهم فاستشهد ، قال : ثم بعث بعثًا فخرج فيه آخر فاستشهد ، قال : ثم مات الثالث على فراشه ، قال طلحة : فرأيت هؤلاء الثلاثة الذين كانوا عندي في الجنة فرأيت الميت على فراشه أمامهم ورأيت الذي استشهد أخيراً يليه ورأيت الذي استشهد أولهم آخرهم ، قال : فدخلني من ذلك قال : فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له قال : فقال رسول الله ﷺ : « وما أنكرت من ذلك ليس لأحد أفضل عند الله من مؤمن يعمر في الإسلام لتسبيحه وتكبيره وتهليله » .

والظاهر أن هذا الأخير كان عنده من كمال المحبة والإخلاص ما ليس عند صاحبيه .

محبَّةً صالحةً أو فاسدةً ، فالمحبُّون للمالِ والرئاسةِ والصُّورِ ، لا ينالون مطالبهم إلا بضررٍ يلحقُهُم في الدُّنيا مع ما يُصيبُهُم من الضَّرَرِ في الدنيا والآخرةِ (١) .

قال : فالمحبُّ للهِ ورسُولِهِ ﷺ إذا لم يحتمل ما يرى من تحمل المحبِّين لغيرِ اللهِ ما يحتملون في سبيل حصولِ محبوبهم ، دلّ ذلك على ضعْفِ محبَّتهم للهِ ، إذا كان ما يَسلُكُهُ أولئك – في نظرهم – هو الطريق الذي يُشيرُ به العقل ، ومن المعلومِ أنَّ المؤمنَ أشدُّ حُبًّا للهِ ، كما قَالَ تعالىَ : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] (٢) .

قال : نعم قد يسلُكُ المحبُّ – لضعفِ عقلِهِ وفسادِ تصوُّرِهِ – طريقًا لا

---

(١) فترى الرجل منهم إذا كثر ماله كثرت شواغله فانشغل بها عن زوجه وولده وكثر سهره بالليل وكثر جهده وكده ، وكذا طالب الرياسة لا يزال قلقًا حذرًا خائفًا أن ينال مقعده ما يكره أو أن ينازعه منازع ، وكذا العاشق محترق بتحرقه على معشوقه .
فلابد إذا تعلق قلب العبد بهذه الأشياء أن يناله ضرر ويتحمل المكروه في سبيل تحصيل ما يحب وهذه محبة فاسدة تعود بالنقمة والفتنة على أصحابها في الدنيا والآخرة ، والمحب المحبة الصحيحة والتي هي محبة الله أولى بتحمل المكروه في سبيل من يحب ، وإذا كان مفتون القلب يتحمل البعد عن الله في سبيل مرضاة من يهواه أفلا يتحمل المؤمن ما قد يكره في سبيل الله ؟ .

(٢) ولهذه الآية تأويلان أحدهما : يحبونهم كحبهم لله ، فهؤلاء الذين يعبدون الأنداد من دون الله يحبون الله ويحبون الأنداد ويسوُّون بين محبة الند ومحبة الله ، وهذا جعل محبتهم متفرقة بين شركاء متشاكسين فلا تخلص لواحد من هؤلاء الشركاء ، والذين آمنوا أشد حبًا لله من حب المشركين لله

لأن محبة المؤمنين لله محبة خالصة بلا شرك ، كما قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ ﴾ فحبهم حب العبادة مقصور على ربهم وحبهم لرسوله ﷺ وللمؤمنين وللعمل الصالح تابع لمحبتهم لله ، وهذا ما اختاره شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ.

والتأويل الثاني : يحبونهم كحب المؤمنين لله ، وهو حب العبادة وهو حب لذات المحبوب ، وهو مستلزم الحب فيه والبغض فيه ، فهؤلاء يحبون أندادهم حب العبادة هذا ، والذي يصرفه المؤمنون لله من ذلك هم يصرفونه لغيره ، فتشمل الآية على هذا التفسير كل من أحب أحداً من الخلق حب عبادة سواء كان يحب الله مع ذلك كالمشركين أو لا يحبه أصلاً كالكفار الذين لا يقرون بوجود الله .

فالذين آمنوا أشد حبًّا لله من حب المشركين لشركائهم ، لأن محبة المؤمنين هي الصحيحة فإن القلوب فطرت على أن تتوجه إلى فاطرها وبارئها ، أما تلك القلوب المنصرفة عن الله فقد تغيرت فطرتها حتى أزالها بديل معوج غير مستقر وينفر منها بين الحين والآخر فتأتيه حاجات الدنيا وشواغلها ولكنه يصبر نفسه على ذلك الند ﴿ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ .

فنفسه في الحقيقة تنفر من الباطل وتريد بين الحين والآخر أن تزيله لكنه يدسه في قلبه فيعظم عليه تركه ويلبثه في قراره تعلق النفس الباطل وتخوفه على مقامه بين الناس وحرصه على مصالحه ، رغم أن الله فطر القلوب تميل عن محبة ما سواه إلى محبته سبحانه فإذا ما أريدت على خلاف ذلك تعبت وفسدت وشقيت .

والمقصود من كلامه ـ رحمه الله ـ ههنا أن المحبة تستلزم بذل الجهد والتضحية في سبيل رضا المحبوب سواء كانت صالحة أو فاسدة ، والمؤمن أشد حبًا لله من حب أصحاب المحبات الفاسدة ولذلك لابد أن يكون أعظم تضحية وبذلاً .

يُحَصِّلُ له بهما المطلوبَ ؛ فمثلُ هذه الطريقةِ لا تُحمدُ إذا كانت المحبَّةُ صالحةً محمودةً ، فكيف إذا كَانَتْ المحبَّةُ فاسدةً ،والطريقُ غيرَ موصِّلٍ [١] .

قال : كما يفعلهُ المتهوِّرون في طلبِ المالِ والرئاسةِ والصُّوَرِ ، من حُبِّ أمورٍ تُوجبُ لهم ضررًا ، ولا تُحصِّلُ لهم مطلوبًا ؟! ، وإنَّما المقصودُ : الطُّرُقُ التي يسكلها ذو العقلُ السليمُ لحصولِ مطلوبِهِ [٢] .

قال : وإذا تبيَّنَ هذا ، فكلَّما ازدادَ القلبُ حُبًّا للهِ ازدادَ له عبوديةً ،

---

(١) فيمكن أن يكون هذا الزاعم محبًا حقًا ولكنه يجهل الطريق الموصل إلى الله فيسلك طريقًا غيره كأهل البدع فهؤلاء لا يصلون ، فكيف بمن محبته فاسدة وطريقه غير محمود ، فهذا فاسد الغايات والسُبل ، ولابد من صحة الغاية والمقصد وصحة السبيل والمنهج .

(٢) فالعاقل دائمًا يسلك سبلاً موصلة وهناك من يسلك في غير السبيل فلا يصل إلى المقصود ، وهذا معتد به في الأمور جميعها حقيرها وجليلها كرجل يطلب ملكًا فيحدث هرجًا واضطرابًا فيعقبه فشله أو يؤخذ فيعقبه عقابه أو يقتل فيعقبه حسابه .

وكرجل يحب امرأة فيشبب بها وينشد في مجالسه الشعر فيها فيأبى أهلها أن يزوجوه بها ، وكآخر يحب المال فيسرق فتقطع يده والسلوك في غير السبيل له أسوأ العواقب لأنه موصل إلى هلكة ، أما أرباب العقول فيسلكون سبلاً منضبطة إلى مقاصد حسنة .

فالناس ثلاثة محب محبة صحيحة يسلك طريقًا موصلة ، ومحب محبة فاسدة يسلك طريقة فاسدة ، ومحب محبة صحيحة يسلك طريقًا فاسدة وإنما يصل الأول .

وترى الرجل وقد ملأ رأسه بالأماني والمزاعم الكاذبة والخيالات العقيمة ، يوهم نفسه أوهامًا وما هو في أوهامه إلا في غرور فيزعم أنه صادق المحبة يحب الخير للناس ويتشوق إلى نصرة الإسلام وإعلاء كلمة الدين ويكثر

وكلَّما ازدادَ له عبوديةً ازدادَ له حُبًّا وحرِّيةً عمَّا سواه .

والقلبُ فقيرٌ بالذاتِ إلى اللهِ من وجهتين : من جهةِ العبادة ؛ وهي العلَّةُ الغائيةُ ،ومن جهةِ الاستعانةِ والتوكُّلِ ؛ وهي العلَّةُ الفاعليةُ [١] .

من تلك المزاعم حتى يظن أنه على شيء وما هو إلا شيء من أكاذيب المتخرصين وأوهام الغافلين ثم إنك لا تجده من بعد ذلك قد أفاد شيئًا بقوله أو أصاب حظًا بعمله كالمبتدع ، ولا يزال في حال قد كثر تفصيله وقل تحصيله فهذا غير صادق المحبة .

فلابد من الإرادة الجازمة لأعمال الآخرة ولو صدق في محبته صدق في إرادته فلو كان صادق المحبة صادق الإرادة لوقع منه العمل بحسب ما يقدر عليه ولصار في حال من الشوق واللهفة بمقدار ما فاته مما لم يقدر عليه ، ولود أن لو كان مطاقًا وإذًا لسارع إليه ، فلا يزال في حالين حال من العمل بحسب قدرته وحال من الأمل بحسب لهفته وذلك بأنه جعل الآخرة أكبر همه فجمع الله عليه شمله وجعل الله غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة ، وأما من جعل الدنيا أكبر همه شتت الله عليه شمله ، وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له .

فلا تجد الأول إلا في شواغل الآخرة بين نية صادقة وإرادة جازمة وعمل صالح ورجاء يتلهف على تحصيله قد رضى من حظوظ الدنيا ببلغة يتبلغ بها إلى الآخرة بخلاف الثاني فإن حاجاته من الدنيا لا تنتهي ، ولذلك تجد أهل الكفر يشغلون الناس بالمشاغل الكثيرة في دنياهم يصرفونهم بها عن إرادة الآخرة حتى تصير الدنيا أكبر همهم ونجد أنظمتهم الاقتصادية موجهة أما إلى غنى مطغ أو فقر منسٍ .

(١) فقد خلقه الله وجعل الغاية من وجوده عبادته سبحانه فلذلك كان مفتقرًا إليه بذاته من هذه الجهة لأنه خلق ليعبد ، لا ينفع لغير ذلك أبدًا ، وبذلك لابد أن تجد الخلق يطلبون أمرًا يسدون به جوع القلب هذا كما أن الإنسان يولد جائع عطشان يبحث عن ثدي أمه ليرتضع ، فالقلب كذلك حتى

قال : فالقلبُ لا يصلُحُ ، ولا يُفْلحُ ، ولا يَنْعَمُ ، ولا يُسَرُّ ، ولا يلتذُّ ولا يطيبُ ، ولا يسكُنُ ، ولا يطمئنُّ ، إلا بعبادة ربِّه وحده ، وحبِّه والإنابة إليه ، ولو حَصَلَ له كلُّ ما يلتذُّ به مِنْ المخلوقات لم يطمئنَّ ولم يسكن ؛ إذ به فقرٌ ذاتيٌ إلى ربِّه بالفطنة من حيث هو معبودُه ، ومحبوبُه ، ومطلوبُه، وبذلكُ يحصلُ له الفرحَ والسرورُ واللَّذَّةُ والنعمةُ والسكونُ والطمأنينةُ (١) .

يتعبد وهناك من يُسَكِّن قلبه بمسكنات ولكنها لا تسد جوعه ولا تذهب بمخمصته وهذه المسكنات حب شيء آخر وعبادته غير الله ، ولذلك لا تجد الخلق أبداً إلا عابدين فإذا لم يعبدوا حقًا عبدوا باطلاً ، لابد أن يعبد إلهًا لأنه خُلق عبداً . « كما ذكر بعض المؤرخين أن نابليون لما جاء بحملته إلى مصر كان في قواده قائد كان قد تعلق قلبه بمعشوقة له خلفها في بلاده ، فلما نأى عنها زاد شوقه إليها وكلفه بها ، وكان هؤلاء القوم لا يؤمنون بالله ولا يتدينون بدين ، فكان هذا القائد قد أعد لنفسه خيمة في الصحراء يختلي فيها بنفسه وقد علق فيها صورة محبوبته ، فكان نابليون كثيراً ما يدخل عليه فيراه راكعًا لها وكان يتعمد أن يطأ المكان بحذائه فكان هذا القائد التعس يغيظه ذلك لأن قائده يدنس بوطئه محرابه المقدس .

وهذا عن الكلام عن العلة الغائبة ، وهي الغاية من وجوده والتي هي عبادة الله وحده أما العلة الفاعلية فمعناها المحرك له الدافع للسلوك ، فلابد أن يكون هناك طريق موصلة وبالاستغانة بالله وحسن التوكل عليه يفعل وبعبادة الله وطاعته يصل فهو لا يزال فقيراً إلى ربه لا يستغنى عنه أبداً .

(١) فالقلب فقير من الجهتين من جهة العبادة ومن جهة الاستعانة والتوكل لأنه لن يوفق للعبادة إلا بالله وهو نفسه محتاج إلى أن يعبد ربه سبحانه ، فكما خلق الله البدن محتاجًا إلى الأكل والشرب ولا قوام له إلا بذلك فقد خلق القلب محتاجًا إلى أن يحب ويستعين ويتوكل على إلهه الحق .

والقلب العاصي قلب سكران مريض كالبدن إذا سكن بالمسكرات

قال : وهذا لا يحصلُ إلا بإعانةِ اللهِ له ، فإنَّه لا يقدرُ على تحصيلِ

والمخدرات فينسى حاجته وفقره وجوعه ثم سرعان ما يفيق فيجد نفسه أكثر جوعًا ، وهكذا حتى يموت ، فلو أنهم تركوه جائعًا لكان أهون عليه ولكان أحسن حالاً من الذي أسكرته لذة الشهوات فتمتع قليلاً بغير نعيم لذة العبادة ، فبدلاً من أن يحب الله الذي خلقه وهداه أحب المال أو الرياسة أو الجاه أو الصور ولكنه مفتقر بالضرورة إلى أن يحب مولاه وأن يتوكل عليه وإن رفعوه وسودوه فيظل في شقاء وصراع نفسي لا ينتهي وحسرة وندم ، فما متاعهم إلا قليل .

وإنما كانت الجنة جنة بالقرب من الله وتحصيل عفوه ورضاه ، وتلك القلوب لما اتصلت بأسباب الرضا منه سبحانه وصلت إلى مرضاته ، والجنة وما فيها من نعيم تابعة في الحقيقة لهذا الأصل العظيم ، ونعيمها المقيم من هذا الرضا الذي لا يتبدل ، فإنه رضا بغير سخط أبدًا كما ثبت في الحديث القدسي في قول الله لأهل الجنة : « أحل عليكم رضائي فلا أسخط عليكم بعده أبدًا » ، وهذا النوع من السعادة يحدث كثيراً للصالحين في الدنيا قبل حصولهم في الآخرة كعبد فقير يتوجه إلى الله غير منشغل بملك أو رياسة راضٍ بقليل الزاد مع يبس العيش ، قد أراحه الله من عنت الدنيا وقد أدبرت وتولت ، فلا يزال في منأى عنها ، وقد أقصاها الله عنه فذهبت بلذتها وطراوتها .

وقد قال بعضهم : إنه لتمر بي الساعة فأقول إن كان أهل الجنة في هذا النعيم إنهم لفي نعيم طيب وإن كان هذا في الحقيقة لا يمكن أن يصل إلى نعيم الجنة لأن قرب أهل الجنة من الله أعظم من قربهم منه في الدنيا ورضاه عنهم أتم .

فإذا استغنى القلب بالله صار العطاء الدنيوي والمنع عنده سواء بمقام الرضا بقضاء الله سبحانه والانشغال به عما سواه ، ولو حصل له كل ما يلتذ به من مخلوق لم يطمئن إلى هذا العطاء حتى يفوز بالقرب من الله عز وجل لأنه محتاج بالضرورة إليه ، وإلى محبته والإنابة إليه .

السرور والسكون له إلا اللهُ ، فهو دائمًا مفتقرٌ إلى حقيقة : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)** ﴾ ، فإنَّه لو أُعينَ على حصولِ كلِّ ما يُحبُّهُ ويطلبُهُ ويشتهيه ويريدُهُ ، ولم يحصل له عبادةُ الله ، فلن يحصلَ إلا على الألمِ والحسرةِ والعذابِ ، ولن يخلصَ من آلامِ الدنيا ونَكَدِ عَيْشِها إلا بإخلاصِ الحبِّ لله ، بحيث يكون اللهُ هو غايةَ مرادِه ونهايةَ مقصودِه ، وهو المحبوبَ له بالقصدِ الأوَّلِ،وكلُّ ما سواه إنَّما يحبُّه لأجله لا يُحبُّ شيئًا لذاته إلا اللهَ، ومتى لم يحصل له هذا لم يكن قد حَقَّقَ حقيقة : **[لا إله إلا الله]**(١) .

قال : ولا حَقَّقَ التوحيدَ والعبوديةَ والمحبَّةَ لله ، وكان فيه من نَقْصِ التوحيدِ والإيمان ، بل من الألمِ والحسرةِ ، والعذابِ بحسبِ ذلك .

ولو سعى في هذا المطلوبِ ، ولم يكن مستعينًا بالله ، متوكِّلاً عليه ، مفتقرًا إليه في حصولِهِ ، لم يحصل له ، فإنَّه ما شاءَ اللهُ كان ، وما لم يشأ لم يكن(٢) .

---

(١) فلو أعين العبد بتوكله على ربه واستعانته به في تحصيل مآربه من مأكل أو مسكن أو رياسة أو ملك ونحو ذلك لما كان في تحقيق غاياته من ذلك ما يسد به جوعه حتى يكون الله عز وجل هو مراده بالقصد الأول ولا شك أن توكله على الله في تحصيل مقاصده نوع عبادة من جهة الاستعانة والتوكل إلا أنه لما كان غير الله هو قصده لم يكن قد حقق حقيقة لا إله إلا الله ، بل يجب عليه أن يستعين بالله ويتوكل عليه في تحقيق عبادته .

(٢) فإذا ما استعان في تحصيل مطالبه تلك بغير الله كانت بليته أكبر لأنه لم يسد الفقر من جهة الغاية ولا من جهة الاستعانة ، ولو زعم أن الله غايته لكنه لم يستعن بالله تعالى في سبيل الله فلن يصل أبداً ، فإن أهل الجنة الواصلون قال الله عنهم أنهم يقولون : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ فإذا نسب الخيرية إلى نفسه في شيء

قال : فالعبدُ مفتقرٌ إلى الله من حيث هو المطلوبُ المرادُ المعبودُ ، ومن حيث هو المسئولُ المستعانُ به، المتوكَّلُ عليه، فهو إلهُهُ الذي لا إله له غيرُهُ، وهو ربُّه الذي لا ربَّ له سواه ، ولا تتمُّ عبوديتُه لله إلا بهذين [١] .

من ذلك كان فيه شبه بإبليس الذي قال أنا خير منه وهذا هو الحرمان فلابد أن يحقق ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .
فلا يصل إلى رضوان الله مستعين به في تحقيق غاية أخرى غير القرب من الله ومحبته وكذا لا يصل إليه سبحانه من جعل الله غايته ولكنه استعان بغيره واستغنى به عن الله ، وأما من لا يريد عبادة الله ولا يأنس بالقرب منه ولا يسعد بمحبته ، وهو مع ذلك يستعين بغير الله فهذا شر الثلاثة .
فلابد أن يكون الله هو المراد وحده وأن يكون غاية القصود وبالاستعانة به وحُسن التوكل عليه يكون تحقيق المراد ، فلو أن رجلاً أراد تحصيل المال فاستعان بالله وتوكل عليه في ذلك فإنه يقال له : لماذا تحصل المال ؟ ، فإن قال لمطالبي وحاجاتي قيل له أحسنت الطريقة وأسأت القصد ، وإذا قال إنما أحصله لأصل به رحمي وأعين الأرملة والمسكين وابن السبيل وذي الحاجات قيل له أحسنت الطريقة وأحسنت القصد .
والناس في ذلك أربعة أصناف أحسنهم من أخلص لله واستعان به ، وبدون ذلك لا يكون عبداً لله العبودية الصحيحة التامة .
(١) ولابد أن يعلم كما تقدم أن الجنة بما فيها من نعيم مقيم إنما هي ثمرة القرب من الله تعالى ولولا رضوان الله الأكبر لما صارت الجنة جنة بل لما كانت أصلاً ، إنما هي عطية الله لخاصة عباده الذين اصطفاهم ورضى عنهم فأغدق عليهم من فضله وأنعم عليهم بمنته وكرمه ، ولا يتصور الفصل بين الجنة وبين محبة الله ورضوانه إلا عند أولئك الصوفية المنحرفين الذين يقولون نحن نطلب محبة الله ورضوانه ، ولا نطلب جنته ، كما أنا لا نخاف من عذابه ففصلوا بين المتلازمات وأرادوا رضوان الله من حيث ضلوا عنه فطلبوا رضاه في سخطه ولم يبالوا بمقته وغضبه .

قال : فمتى كان يحبُّ غيرَ اللهِ لذاتِهِ ، أو يلتفتُ إلى غيرِ اللهِ أنَّه يعينُهُ كان عبداً لما أحبَّه ، وعبداً لما رجاه ، بحسبِ حبِّه له ورجائِه إياه [(١)] .

قال : وإذا لم يحبّ أحداً لذاته إلا الله،وأيَّ شيءٍ أحبَّه سواه، فإنَّما أحبَّه له ، ولم يَرْجُ – قَطُّ – شيئًا إلا اللهَ ، وإذا فعلَ ما فعلَ من الأسبابِ ، أو حَصَّلَ ما حَصَّلَ منها كان مشاهداً أنَّ اللهَ هو الذي خَلَقَهَا وقَدَّرَهَا وسَخَّرَهَا له ، وأنَّ كلَّ ما في السمواتِ والأرضِ فَاللَّهِ ربِّه ومليكِهِ وخالقِهِ ومسخِّرِهِ،

ولكن لما كان العبد مفتقراً إلى الله من حيث هو المطلوب المحبوب المراد المعبود فلو تصورنا الجنة منفصلة عن رضوانه لما كانت الجنة غاية المراد لأنه منقاد إلى الله محب له بفطرته ، ولكن لا يتصور هذا الفصل كما ذكرنا .

(١) ومحبته غير الله لذاته يعني محبته إياه على أي حال كان عليه ، والمؤمن يحب غير الله لله إذا كانت في محبته طاعته وكذا في البغض حيث يبغض في الله أقرب الناس إليه وهذا لأنه إنما يحب الله لذاته والمؤمنون إنما يحبون رسول الله ﷺ بحب الله ، وأبو طالب كان يحبه لذاته لأنه ابن أخيه وقد مات أبوه وجده فتولاه فرق له رقة الأب لولده ولكنه لم يكن يحبه لرسالته وقد كان يمكن لفرط حبه له أن يستجيب له لولا مقولة الناس أنه إنما حمله على ذلك الجزع ، فإذا صدقه في رسالته لذاته لم يك ينفعه تصديقه حتى يصدقه لله الذي أرسله كما لابد أن يتبرأ من كل معبود سوى الله ، وإلا لم ينفعه تصديق قلبه وما كان أعجب حاله أن صدقه لقربه منه لا يصدقه لله ، وإن ترك تصديقه تركه للناس ، فليس أعجب منه في الحالين ، ولذلك وغيره كان يكون في الدرك الأسفل من النار لولا شفاعة ابن أخيه ﷺ .

فمتى أحب العبد غير الله لذاته وقع في شرك العبودية ومتى التفت إلى غير الله أن يعينه وقع في شرك الربوبية وانتفى في حقه تحقيق قوله ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

وهو مفتقرٌ إليه، كَانَ قَد حَصَلَ له من تمامِ عبوديته لله بحسبِ ما قُسِمَ له من ذلك [١] .

والنَّاسُ في هذا على درجاتٍ متفاوتةٍ لا يُحصي طرفيها إلا اللهُ ، فأكملُ الخلقِ وأفضلُهُم وأعلاهم وأقربُهُم إلى اللهِ ، وأقواهم وأهداهم : أتمُّهُم عبودية لله من هذا الوجهِ .

حقيقة دين الإسلام الذي أرسل الله به رسله :

وهذا هو حقيقةُ دينِ الإسلام الذي أرسلَ اللهُ به رُسُلَهُ، وأنزلَ به كُتُبَهُ ، وهو أن يستسلمَ العبدُ للهِ ، لا لغيرِه ، فالمستسلمُ له ولغيرِه مشركٌ ، والممتنعُ عن الاستسلامِ له مستكبرٌ [٢] .

---

(١) فإذا كان الله غاية حبه ورجائه ومهما كان من أسباب يتسبب بها فإن قلبه لا يلتفت إلا إلى مسببها ولا يتعلق إلا به سبحانه فإنه الذي أوجدها كان هذا هو المؤمن حقًا .
وإذا عجزت الأسباب أن تكون أسبابًا لم يتغير حاله ولم يتبدل أمره حيث شهد أن الله هو مقدرها وخالقها ومسخرها ، ولو شاء لذهب بها فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع .
ولابد أن يعلم أن التوكل على الله مع وجود الأسباب قد يكون أعظم أجراً ومنزلة عند الله من التوكل عليه مع انعدامها وفقدها لأن الفاقد لا يجد ما يتعلق به فيتوكل ضرورة وأما الواجد فيأخذ بالأسباب غير ملتفت إليها ، إنما تعلقه بالله وحده فيتوكل اختياراً .

(٢) والمستكبر إبليسي الطريقة شيطاني المنهج يعلم أن الأمر من عند الله فيرده استكباراً وهذا فعل الذين يستنكفون عند تطبيق شريعة الله ولا يقضون بحكمه وأمره ويرون أن غيرها أجدر أن يحتكموا إليها منها لمناسبتها أهواءهم ولجريانها على طريقتهم ، فأمثال هؤلاء من الممتنعين عن الاستسلام لله رب العالمين مستكبرون .

قال : وقد ثبتَ في « الصحيح » عن النبيِّ ﷺ : « **أنَّ الْجنَّة لا يَدْخُلُهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِه مِثْقَالُ ذرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ** » (١) . كما أنَّ النَّارَ لا يَخْلُدُ فيها مَنْ في قلبِه مثقال ذَرَّةٌ من إيمانٍ (٢) ، فجعلَ الكِبْرَ مقابلاً للإيمانِ ، فإنَّ الكِبرَ ينافي حقيقةَ العبودية ، كما ثبتَ في « الصحيح » عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قَالَ : « **يَقُولُ اللهُ : الْعَظَمَةُ إزاري ، والْكِبْرِيَاءُ رِدائي ، فَمَنْ نَازَعَني وَاحِداً مِنْهُمَا عَذَّبْتُهُ** » (٣) .

العظمة والكبرياء من خصائص الربوبية :

فالْعَظَمَةُ والكبرياءُ من خصائصِ الربوبيةِ ، والكبرياءُ أعلى من الْعَظَمَةِ ، ولهذا جعلها بمنزلةِ الرداءِ ، كما جَعَلَ الْعَظَمَةَ بمنزلةِ الإزارِ ، ولهذا كَانَ شعارُ الصَّلاةِ والأذانِ والأعياد : هو التكبيرُ ، وكان مستحبًا في الأمكنة العاليةِ ؛ كالصَّفَا والمروةِ (٤) ، وإذا علا الإنسانُ شَرَفًا (٥) ، أو رَكِبَ دابةً (٦) ونحو ذلك ، وبه يُطْفَأُ الحريقُ وإن عَظُمَ (٧) ، وعند الأذان

وأما المستسلمون لله ولغيره فمشركون يعبدون الله ويعبدون معه آلهة أخرى ويحبون الله ويحبون أندادهم كحب الله .

(١) رواه مسلم ، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه .

(٢) أخرج البخاي عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ [فتح الباري (١ / ١٢٧)] .

(٣) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه ، وصححه الألباني ، ورواه مسلم بلفظ « العز إزاري » .

(٤) رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

(٥) رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه وسنده حسن .

(٦) رواه مسلم وأبو داود والنسائي عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٧) ضعيف : رواه ابن السني وابن عدي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

يهربُ الشيطانُ (١) .

قَالَ تَعالىَ : ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** (٦٠) ﴾ [غافر : ٦٠] .

وكلُّ مَنْ استكبَر عن عبادةِ الله لا بُدَّ أن يعبدَ غيرَهُ ويذل له ، فإنَّ الإنسانَ حسَّاسٌ يتحرَّكُ بالإرادةِ ، وقد ثبتَ في « الصحيح » عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قَالَ : « **أصْدَقُ الأسْمَاءِ حَارِثٌ وهَمَّامٌ** » (٢) .

فالحارثُ : الكاسبُ الفاعلُ ، **والهمَّامُ** : فَعَّالٌ من الهمِّ ، والهمُّ أولُ الإرادة ، فالإنسانُ له إرادةٌ دائمًا،وكلُّ إرادةٍ لابُدَّ لها من مرادٍ تنتهي إليه ، فلا بُدَّ لكلِّ عبدٍ من مرادٍ محبوبٍ ، هو منتهى حُبِّه وإرادتِه .

فَمَنْ لم يكن اللهُ معبودَهُ ومنتهى حبِّه وإرادته ، بل استكبرَ عن ذلك ، فلا بُدَّ أن يكونَ له مرادٌ محبوبٌ يستعبدُهُ ويستذلُّه غيرُ الله ، فيكون عبداً ذليلاً لذلك المرادِ المحبوبِ : إمَّا المالُ ، وإمَّا الجاهُ ، وإمَّا الصُّورُ ، وإمَّا ما يتَّخذُهُ إلهًا من دونِ الله ، كالشمسِ والقمرِ ، والكواكبِ ، والأوثانِ ، وقبورِ الأنبياءِ والصالحين ، أو من الملائكةِ والأنبياءِ الذين يتَّخذُهُم أربابًا ، أو غير ذلك ممَّا عُبِدَ من دونِ اللهِ ، وإذا كان عبداً لغيرِ الله كانَ لا بُدَّ مُشركًا ، وكلُّ

---

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسُولَ الله ﷺ قَالَ : « **إذَا نُودِيَ للصَّلاةِ أدبَرَ الشَّيْطان ولَهُ ضُرَاطٌ حتَّى لا يَسْمَعَ التَّأذِين ، فإذَا قَضَى النِّدَاءُ أقْبَلَ ، حَتَّى إذَا ثُوِّبَ بالصَّلاةِ أدْبَرَ ، حَتَّى إذَا قَضَى التَّثويبَ أقْبَلَ حَتَّى يَخْطُرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ يَقُولُ : اذْكُر كَذَا ، اذْكُر كَذَا - لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ - حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ لا يَدْرِي كَمْ صَلَّى** » [فتح الباري (٢ / ١٠١)].

(٢) رواه البخاريُّ في « الأدب المفرد » وصحَّح الألباني- رحمه الله - .

مستكبرٍ فهو مشركٌ ، ولهذا كَانَ فِرعونُ من أعظمِ الخلقِ استكباراً عن عبادة الله ، وكَانَ مشركًا ، قَالَ تعالىٰ : ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤)** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)** ﴾ إلى قوله : ﴿ **كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ** ﴾ .

[غافر : ٢٣ – ٣٥] .

وقَالَ تَعالىٰ : ﴿ **وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩)** ﴾ [العنكبوت : ٣٩] .

وقَالَ تَعالىٰ : ﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ** ﴾ [القصص : ٤] .

وقَالَ تَعالىٰ : ﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤)** ﴾ [النمل : ١٤]، ومثلُ هذا في القرآن كثيرٌ [١] .

---

(١) **فالكبر من أعظم الأمور شركـا ، لأن الإباء معارضة ومنازعة في أصل العبودية ، وقد كانت حصلت مناظرات في أي الخطرين أعظم خطراً عبادة القبور أم عدم التحاكم للشريعة ، فقالت طائفة : أصل التوحيد عبادة الله وحده ودعاؤه وحده ، أما التحاكم إلى غير الشريعة فهو مخالفة في أصل الطاعة فقط فعارضتها طائفة أخرى .**
وقد كان نشأ ذلك أيام الاحتلال الانجليزي لبلاد الهند عندما قام أبو الأعلى المودودي رحمه الله بالدعوة إلى ضرورة التحاكم إلى الشريعة وأن التشريع لابد أن يكون من الله فعارضه آخرون وقالوا : بل العبادة أصلاً معناها الدعاء والطلب ، فلابد أن تكون دعوتنا على أساس هذا .
وهذا من الخلط فكلا النوعين شرك وكفر لابد من محاربته .

قال : وقد وصفَ فرعونَ بالشِّرْكِ في قوله :﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾[الأعراف :١٢٧](١) .

في زماننا يُحاكم أُناس في بعض بلاد المسلمين بتهمة الدعوة إلى تطبيق الشريعة ، فمجرد الدعوة جرم تجب محاكمة صاحبه عندهم ، فهذه علة إبليسية فإن هؤلاء يقولون : هذا الدين لا دخل لنا به ولا حاجة لنا إليه ، ولن نعود إليه أبداً قد تبنا منه وتبرأنا ونبذناه وأهله ، وهم مع ذلك لا يدعون أحداً من دون لله ولا يعبدون القبور .
وإبليس كان شركه في الإباء والاستكبار على أمر الله لم يكن شركه في أنه يجعل بينه وبين الله في دعائه إليه واسطة مثلاً ، ولا أنه كان يدعو أحدا من دون الله وهو أصل كل شرك وكل شر في الأرض .
فإن عادة الناس في أنها تأبى الكبر وترفضه ولا تجدهم في العادة يقبلون قول قائل متكبر ولكنهم في الحقيقة يقبلون هذا القول وتلك الدعوة تحت أستار ودعاوى ، غير أن الشرك في الدعاء أكثر انتشاراً فهو أشد بلية ، وهذان النوعان من الكفر خطران جاثمان شديدان عظيمان .
ويقال أيضاً : الاختلاف لا يفيد في مثل ذلك عند حُسن التأمل بمقتضى النظر الصحيح والفهم المستقيم ، فإن دعوة التوحيد متكاملة ولا يجوز تقطيع أوصالها ، فإخلاص العبادة لله توحيد والتحاكم إلى شريعة الله توحيد وطاعة الله ورسوله ﷺ توحيد كذلك، وكذلك الحب في الله والبغض فيه والموالاة والمعاداة كل ذلك من التوحيد .

(١) قرئ وإلهتك وفيها عدة تفسيرات فقيل المعنى : أتذره وقومه يفسدون في الأرض وقد ترك عبادتك ، وقيل أي تدعهم يصنعون من الفساد ما قد أقدرتهم عليه وعلى ترك آلهتك وقيل غير ذلك . وإلاهتك يعني عبادتك كما قال : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ .
وفيما يبدو من تاريخ الفراعنة ، أنه كانت لهم آلهة متعددة يعبدونها من دون الله وكان فرعون أكبر هذه الآلهة ، وهذا معروف من تاريخهم

قال : بل الاستقراءُ يدلُّ على أنَّه كلما كان الرجلُ أعظمَ استكبارًا عن عبادة الله ، كَانَ أعظمَ إِشراكًا بالله ، لأنَّه كلما استكبرَ عن عبادة الله ازدادَ فقرًا وحاجةً إلى المرادِ المحبوبِ الذي هو مقصودُ قلبه بالقصدِ الأولِ ، فيكون مشركًا بما استعبدَهُ من ذلك .

ولن يستغنيَ القلبُ عن جميعِ المخلوقاتِ ، إلا بأن يكون اللهُ هو مولاه الذي لا يعبدُ إلا إيَّاه ، ولا يستعينُ إلا به ، ولا يتوكَّلُ إلا عليه ، ولا يفرحُ إلا بما يحبُّه ويرضاه ، ولا يكره إلا ما يُبْغضُهُ الرَّبُّ ويكرهُهُ ، ولا يُوالي إلا مَنْ والاه اللهُ ، ولا يُعادي إلا مَنْ عاداه اللهُ ، ولا يُحبُّ إلا لله ، ولا يُبغضُ شيئًا إلا لله ، ولا يُعطي إلا لله ، ولا يمنعُ إلا لله فكلَّما قَويَ إخلاصُ حُبِّه ودينه لله كملَتْ عبوديتُه ، واستغناؤُهُ عن المخلوقاتِ ، وبكمال عبوديته لله تكمُلُ برآءتُهُ من الكبرِ والشِّرْكِ .

والشِّرْكُ غالبٌ على النَّصارى، والكبْرُ غالب على اليهود، **قَالَ تَعالَى في النَّصارى** : ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)** ﴾ .

[التوبة : ٣١] .

وقَالَ في اليهودِ : ﴿ **أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ**

فيعبدون آلهة كثيرة صغيرة عليها إله مسيطر ، وكان لفرعون زمام هذه الأمور فيأمرهم بعبادة هذه الألهة دون تلك ، ولذلك قال للسحرة : ﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ .
فكأنه لم يكن لديه في الأصل مانع من إيمان السحرة بما جاء به موسى ، ولكن ساعة يأذن أما قبل الأذن فلا ، وهذا غاية في التكبر لأنه إذا كان إيمانهم بعد إذنه فهو الرب الأعلى لهم ، والعياذ بالله .

اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة : ٨٧] .

وقَالَ تعالىَ : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ [الأعراف : ١٤٦] (١) .

قال : ولَمَّا كَانَ الكبرُ مستلزمًا للشِّرْك والشِّرْكُ ضدُّ الإسلامِ،وهو الذَّنْبُ الذي لا يغفره اللهُ ، قَالَ تَعالىَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨) ﴾[النساء :٤٨] .

وقَالَ تَعالىَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا (١١٦) ﴾ [النساء : ١١٦] .

كان الأنبياءُ جميعُهُم مبعوثين بدينِ الإسلامِ ؛ فهو الدينُ الذي لا يقبلُ اللهُ غيره ، لا من الأولين ولا من الآخرين ، قَالَ نوحٌ : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا

---

(١) ولهذا كان إبليس أعظم شركًا من سائر المشركين إذ كبره هو الذي استوجب كل أنواع الشرك الأخرى فحمل مثل أوزارهم جميعًا ، وكذلك شرك الذين يأبون الانقياد لشرع الله ويتكبرون عليه ويحتقرونه ـ والعياذ بالله ـ ويعاندونه أعظم من شرك الذين يتخذون الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله ومن شرك الأحبار والرهبان أنفسهم إذ كونهم ينسبون ما يشرعونه للدين ـ مع كونه شركًا أكبر وافتراءً للكذب على الله ـ فيه شيء من الإقرار بأن الحق في الأمر والنهي والتشريع لله ، ثم ادعوا لأنفسهم حق التعديل عليه ، فأغلظ منه بلا شك من ليس يقر بذلك الحق لله أصالة ، بل يرى ذلك حقًا لنفسه ولأمثاله من الكفرة والمنافقين فكيف يزعم عاقل أنه إن لم ينسبه إلى الدين لم يكن شركًا كما يقوله بعض مبتدعة زماننا ، سبحانك هذا بهتانٌ عظيم .

سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢)﴾ .

[يونس : ٧٢] .

وقال في حق إبراهيم عليه السلام : ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢)﴾ .

[البقرة : ١٣٠ – ١٣٢] .

وقال عن يوسف عليه السلام : ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ .

[يوسف : ١٠١] .

وقال عن موسى عليه السلام : ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [يونس : ٨٤ ، ٨٥] .

وقال تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة : ٤٤] .

وقال عن بلقيس : ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل : ٤٤] .

وقال : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١)﴾ [المائدة : ١١١] .

وقال : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران : ١٩] .

وقال : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

وقال : ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا

وَكَرْهًا ﴾ [آل عمران : ٨٣] .

فذكر إسلامَ الكائنات طَوْعًا وكَرْهًا ؛ لأنَّ المخلوقات جميعَهَا متعبَّدَةٌ له التعبُّدَ العامَّ ، سواءٌ أقرَّ الْمُقرُّ بذلك أو أنكره ، وهم مدينون له مدبَّرون ، فهم مسلمون له طَوعًا وكَرهًا ، ليس لأحدٍ من المخلوقات خروج عمَّا شاءَهُ وقدَّرَهُ وقَضاهُ ، ولا حولَ ولا قوةَ لَهُ إلا به ، وهو ربُّ العالمين ومليكُهُم ، يصرِّفهم كما يشاءُ ، وهو خالقُهُم كلِّهم ، وبارئُهُم ومصوِّرُهُم ، وكلُّ ما سواه فهو مربوبٌ مصنوعٌ مفطورٌ ، فقيرٌ محتاجٌ معبد مقهورٌ ، وهو سبحانه الواحدُ القهارُ ، الخالقُ البارئُ المصوِّرُ ، وهو وإن كَانَ قَد خَلَقَ ما خَلَقَه لأسبابٍ ، فهو خالقُ السَّببِ والمقدِّرُ له ،والسبب مفتقرٌ إليه كافتقارِ المسبِّبِ ، وليس في المخلوقات سَبَبٌ مستقلٌّ بفعلِ خيرٍ ولا دَفْعِ ضُرٍّ (١) .

قال : بل كلُّ ما هو سببٌ فهو محتاجٌ إلى سَبَبٍ آخَرَ يعاونُه ، وإلى ما يَدْفَعُ عنه الضِّدَّ الذي يُعارِضُهُ ويمانِعُهُ . وهو سبحانه وحده الْغَنِيُّ عن كلِّ ما سواه ، ليس له شريكٌ يعاونُهُ ، ولا ضِدٌّ يناوِئُهُ ويعارِضُهُ .

---

(١) فالأسباب لا تؤدي إلى النتائج إلا بإذن الله فقد يأخذ المكلف بالأسباب ولكن تمتنع النتائج إما لوجود ما يضاد الأسباب وإما لفقد ما تحتاجه من أسباب معاونة ـ المكلف لا يملكها ـ ولا يقدر عليها فتصل الأمور في النهاية كما هي في البداية إلى أمر الله ومشيئته ، فمثلاً إرادة الإنسان وقدرته سبب لكل أفعاله وهذه الإرادة والقدرة متوقفة على ما لا قدرة للعبد عليه ابتداءً واستمرارًا وانتهاءًا كنبض قلب وجريان الدم في عروقه وسلامة مخه وسائر أعضائه وبعد وجود القدرة والإرادة يتوقف وجود الفعل على عدم المعارض ، وكل ذلك لا يملكه العبد فهو إذن عبد مقهور مربوب يقطع بذلك كل عاقل كما دل عليه الشرع .

قَالَ تَعالَىٰ : ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) ﴾ [الزُّمَرُ : ٣٨] .

وقَالَ تَعالَىٰ :﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) ﴾ [الأنعام : ١٧] .

وقَالَ تَعالَىٰ عن الخليل عليه السلام : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) ﴾ [الأنعام : ٧٨ – ٨٢] .

وفي « الصحيحين » عن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه قال : « أنَّ هَذه الآيَةَ لَمَّا نَزَلَتْ شَقَّ ذَلكَ على أصْحَاب النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وَقَالُوا : يَا رسُولَ الله ، أيُّنا لَمْ يَلْبس إيْمَانَهُ بظُلْمٍ ؟ فَقَالَ : « **إِنَّمَا هُوَ الشِّرْكُ أَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ الْعَبْدِ الصَّالِحِ** : ﴿ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ »[1] . وإبراهيمُ الخليلُ إمامُ الحنفاءِ المخلصين؛ حيثُ بُعثَ وقد طَبَّقَ الأرضَ دينُ المشركين ، قَالَ اللَّهُ تَعالَىٰ :﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾ [البقرة : ١٢٤] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي .

أعظم الظُّلم الشِّرْك بالله :

فبَيَّنَ أنَّ عهدَهُ بالإمامة لا يتناولُ الظالمَ ؛ فلم يَأمر اللهُ سبحانه أن يكونَ الظالمُ إمامًا ، وأعظمُ الظُّلْمِ الشِّرْكُ (١) .

قال : وَقَالَ تَعالَىَ : ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠)** ﴾ [النحل : ١٢٠] .

والأُمَّةُ : هو مُعلِّمُ الخير الذي يُؤْتَمُّ به ، كَمَا أنَّ القدوةَ : الذي يُقْتَدَىَ به ، واللهُ تعالىَ جَعَلَ في ذريَّته النُّبُوَّةَ والكتابَ ، وإنَّما بعثَ الأنبياءَ بَعدَهُ بملَّته .

قَالَ تَعالَىَ : ﴿ **ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣)** ﴾ [النحل : ١٢٣] .

وقَالَ تَعالَىَ : ﴿ **إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)** ﴾ [آل عمران : ٦٨] .

وقَالَ تَعالَىَ : ﴿ **مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧)** ﴾ [آل عمران : ٦٧] .

---

(١) فلا يكون المشرك الكافر وليًّا لأمر مسلم أو مسلمة أبداً ، لا في ولاية عامة كالإمامة العظمى أو ولاية الحرب والجهاد ، أو ولاية القضاء أو الحسبة أو الشرطة أو غيرها ، ولا في ولاية خاصة كالولاية على المال أو ولاية النكاح أو الشهادة أو غيرها ، بل الظالم ـ ابتداءاً ـ لا يجوز أن يولي الولايات لهذه الآية الكريمة ، وإنما يصحح من تصرفاته في ولايته إذا وقعت بالتغلب أو بطروء الظلم والفسق عليه ـ ما يوافق الشرع وما فيه مصلحة المسلمين ، ولكن جعل الفاسق والظالم إماما في الدين أو في الدنيا ابتداءاً ـ غش للمسلمين وسبب لضياع الدنيا والدين .

وقَالَ تَعالَىٰ : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) ﴾ .

[البقرة : ١٣٥ ، ١٣٦] .

قال : وقَدْ ثبتَ في « الصحيح » عن النَّبيِّ ﷺ « **أنَّ إِبْرَاهِيمَ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ** » [١] فهو أفضلُ الأنبياءِ بعد النَّبيِّ ﷺ ، وهو خليلُ الله تعالى [٢] .

---

(١) رواه مسلم من حديث عن أنس رضي الله عنه .

(٢) فالشرك أعظم الظلم وإبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء ، قال ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) ﴾ ولما كان أُمة جامعًا لخصال الخير ولم يك من المشركين ، جعله الله للناس إمامًا ، وجعل الإمامة في ذريته أيضًا على ألا يكونوا من الظالمين .

ولما كان الشرك هو الظلم العظيم ذهب بالأمن والإيمان والاهتداء ، وما دون الشرك ينقص من ذلك بقدره ولا يذهب به بالكلية ، وقد حمل الصحابة قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾ على العموم في كل ظلم ، فبين لهم النبي ﷺ أن ذلك من العام الذي أُريد به الخاص ، وهو من بيان السُنة للقرآن ، ثم فسرها ﷺ بالقرآن أيضًا ، فتلا عليهم قول لقمان لابنه وهو يعظه : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ .

ولما جعل الله خليله إبراهيم للناس إمامًا طلب إليه أن يكون ذلك في ذريته فأجابه الله بأن عهده لا يدخل فيه الظالمون ، فليس في عهد الله ولا شرعه أن يكون الظالم إمامًا .

مقام الخُلة والفرق بينه وبين مقام المحبة :

وقَدْ ثبتَ في « الصحيح » عن النَّبيِّ ﷺ من غيرِ وَجْهٍ أنَّه قَالَ : « **إنَّ اللهَ اتَّخَذَني خَليلاً كَما اتَّخذَ إبْراهِيمَ خَليلاً** » [١] .

وقَالَ ﷺ : « **لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا منَ أَهْلِ الأَرْضِ خَليلاً لاتَّخَذْتُ أبا بَكْرٍ خَليلاً ، ولَكنَّ صَاحِبَكُمْ خَليلُ اللهِ** – يعني نَفْسَهُ – **لا يَبْقَيَنَّ في الْمَسْجدِ خَوْخَةٌ إلا سُدَّتْ إلا خَوْخَةَ أبي بكْرٍ ، ألا وإِنَّ مَنْ كَانَ قَبلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ ، ألا فَلا تَتَّخِذُوْا الْقُبُور مَسَاجِدَ ، فَإِنِّي أنْهاكُمْ عَنْ ذَلكَ** » . وكُلُّ هذا في « الصحيح » ، وفيه أنَّه قَالَ ذلكَ قبل موته بأيامٍ ، وذلك من تمام رسالته ، فإنَّ في ذلك تمامَ تحقيق مُخَالَلته لله التي أصلُها مَحَبَّةُ الله تعالى للعبد ، ومَحَبَّةُ الْعَبْدِ لله ، خلافًا للْجَهْميَّة [٢] .

---

(١) رواه مسلم في « صحيحه » والحاكم من حديث جُندب بن جنادة رضي الله عنه .

(٢) فمن كمال مخاللته ﷺ وحبه لله أنه أمر بالتوحيد وحذر من الشرك ، وحذر من ذرائع الشرك ووسائله كالغلو في الصالحين ، وختم أيامه المباركة بالتأكيد على ذلك ، ولما كان أبو بكر رضي الله عنه أعظم الناس إيمانًا به ﷺ ناسب أن يذكره في هذا المقام وذلك بأنه القائم بحماية التوحيد ونشره ورفع رايته ومحاربة الشرك بعده ﷺ ، ولولا تفضل الله على هذه الأمة بأبي بكر لضلت ولسارع الشرك إليها كما سارع إلى من قبلها من الأُمم .

وأمره ﷺ بسد كل خوخة ـ والخوخة الباب ـ إلا خوخة أبي بكر إشارة إلى أنه الخليفة من بعده .

وقد تضمن هذا الحديث الرد على ثلاث طوائف من أهل البدع : الرافضة الذين هم أشد الناس غلواً في تعظيم أهل البيت ، كما أنهم أشد الناس اجتراءً بالطعن في أبي بكر وعمر وعامة الصحابة رضي الله عنهم ، والجهمية أئمة النفي والتعطيل ، والصوفية وهم أكثر الناس غلواً في الصالحين ، وهم الذين يتخذون القبور مساجد .

قال : وفي ذلك تحقيقُ توحيد الله ، وأن لا يعبدوا إلا إيّاه ، ورَد على أشباه المشركين، وفيه رَدٌّ على الرافضة الذين يَبْخَسُون الصِّدِّيقَ رضي الله عنه حَقَّه، وهم أعظمُ المنتسبين إلى القِبْلَة إشراكًا بعبادة عَلِيٍّ وغيره من الْبَشَرِ .

والْخُلَّةُ : هي كمالُ المحبَّة المستلزمة من العبد كَمَالَ العبودية لله ، ومن الرَّبِّ سبحانه كمال الربوبية لعباده الذين يُحبُّهُم ويُحبُّونه (١) .

قال : **ولفظُ « العبودية »** : يتضمَّنَ كمالَ الذُّلِّ وكَمالَ الحبِّ ، فإنَّهم يقولون : قَلْبٌ مُتَيَّمٌ ؛ إذا كَانَ معبداً للمحبوب، والمَتيَّمُ: المعبّدُ ، وتَيْمُ الله عَبْدُ الله ، وهذا – على الكمال – حَصَلَ لإبراهيمَ ومحمَّدٍ صلى الله عليهما وسلم .

ولهذا لم يكن له صلى الله عليه وسلم من أهل الأرضِ خليلٌ ، إذ الخُلَّةُ لا تحتملُ الشِّرِكَة ، فإنَّه كما قيلَ في المعني :

---

(١) فهو سبحانه ربهم الذي يَرُبُّهم ويصلحهم ويتولى أمرهم توليًا خاصًا فوق التولي العام بشأن جميع المخلوقات ويخصهم عطاء وكرمًا ما لا يخص غيرهم .
والخلة كمال محبة العبد للرب التي تستلزم كمال العبادة والطاعة التي تستلزم كمال محبة الله لعبده لأن الذي يحب الله لابد أن يعبده وحده ويطيعه وحده ولا يتولى في خلاف ما أمر به أحداً والذي يحبه الله لابد أن يحفظه ويرعاه ويكرمه ويدنيه ، فإذا همَّ بالحسنة وفقه إليها وإذا همَّ بالسيئة ووقع فيها نشر عليه كنفه وستره وأكرمه بمغفرته وعفوه ثم يجمع له ما اجترح من السيئات فيبدله بمنته من الحسنات ويستر عليه في الآخرة ، كما ستر عليه في الدنيا مع رضوانه الأكبر ورفيع الدرجات ، فيحفظه من كل سوء ويؤمنه من كل فزع وينجيه من كل كرب ويصرف عنه كل همّ ثم يتم عليه النعمة ويعظم له المنة .

قـد تخلَّلـتَ مَسْلَكَ الـرُّوحِ منِّـي وَبِـذَا سُمِّـيَ الْخَـلِيـلُ خَلِيـلاً

بخـلاف أصلِ الحبِّ ، فـإنَّه ﷺ قَدْ قَالَ في الحـديث الصـحيح في الْحَسن وأسامة رضي الله عنهما : « **اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُمَا فَأَحِبَّهُمَا ، وأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُمَا** »[١] .

وسأَلَهُ عَمْرُو بنُ العَاصِ رضي الله عنه : أيُّ النَّاسِ أحَبُّ إِلَيكَ ؟ ، قَالَ : « **عَائِشَةُ** » ، قَالَ : فَمِنَ الرِّجَالِ ؟ ، قَالَ : « **أبُوهَا** »[٢] .

وقَالَ لعليٍّ رضي الله عنه : « **لأعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً يُحِبُّ اللهَ ورَسُولَهُ ، ويُحِبُّهُ اللهُ ورَسُولُهُ** »[٣] وأمثالُ ذلك كثيرٌ .

وقد أخبر تعالىَ أنَّه : ﴿ **يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [آل عمران : ٧٦] ، و ﴿ **يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [البقرة : ١٩٥] ، و ﴿ **يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ ، [الحجرات : ٩] ، و ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾ [البقرة : ٢٢٢] ، و ﴿ **يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾ [الصف : ٤]، وقَالَ : ﴿ **فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ** ﴾ [المائدة : ٥٤] ، فقد أخبرَ بمحبَّته لعباده المؤمنين ومحبَّةِ المؤمنين له ، حتَّى قَالَ : ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ** ﴾ [البقرة :

---

(١) رواه البخاري عن أُسامة بن زيد رضي الله عنهما بلفظ : « اللهم أحبهما فإني أحبهما » ، وأما الزيادة « وأحب من يحبهما » ، فإنما وردت في الحسن والحسين ، رواه الترمذي وابن حبان عن أسامة ، وحسَّنه الألباني .

(٢) متفق عليه من حديث عن عمرو بن العاص رضي الله عنه .

(٣) متفق عليه من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه .

١٦٥] أمَّا الخُلَّةُ فخاصَّةٌ (١) .

قال : وقولُ بعضِ النَّاسِ : إنَّ محمَّدًا حبيبُ اللهِ وإبراهيمُ خليلُ اللهِ ، وظن أنَّ المحبَّةَ فوقَ الخُلَّةِ ؛ فقولٌ ضعيفٌ فإنَّ محمَّدًا أيضًا خليلُ اللهِ ، كما ثبتَ ذلك في الأحاديثِ الصحيحةِ المستفيضة .

وما يُروى : أنَّ العبَّاسَ يُحْشَرُ بين حبيبٍ وخليلٍ ، وأمثالُ ذلك ، فأحاديثُ موضوعةٌ ، لا تصلحُ أن يُعْتَمَد عليها .

وقد قدَّمنا أنَّ محبَّةَ اللهِ تعالى هي : محبَّتُه ومحبَّةُ ما أحبَّ ، كما في « الصحيحين » عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قَالَ : « **ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَان : مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيه ممَّا سواهُمَا ، وَمَنْ كَانَ يُحبُّ الْمَرْءَ لا يُحبُّهُ إلا للهِ ، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرجعَ إِلى الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أنقَذَهُ**

(١) ولذلك قال ﷺ : « أما صاحبكم فخليل الرحمن » ، وهذا يستلزم منه كمال العبودية لله ومن الله كمال الإكرام بكمال نعمته عليه وتمام منته ومحبته له ، والنبي ﷺ لم يبرأ من أن يكون له من أهل الأرض محبوبون وإنما تبرأ من أن يكون له خليل فإنه يمتنع مع الخلة الشريك ، وأما الخلة بين الخلق فغير ممتنع وجودها بينهم ، وقد قال رسول الله ﷺ : « الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » [رواه أبو داود والترمذي عن أبي هريرة وهو حديث حسن حسنه الألباني - رحمه الله -] . وقال الله تعالى : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ ، والولاية الخاصة درجات بحسب مقام كل ولي ، فإن تولى الله محمدًا وإبراهيم - عليهما الصلاة والسلام - أعظم من توليه تعالى عباده المقربين وتوليه المقربين أعظم من توليه سائر المؤمنين بالإضافة إلى أن توليه عموم المؤمنين غير تولية سائر الخلق ، فإن عنايته بهم بالإكرام والإعزاز والرعاية والحفظ غير عنايته بسائر خلقه بالخلق والرزق والتدبير.

اللهُ منهُ ، كما يكرهُ أن يُلقى في النَّارِ » (١) .

أَخبرَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ مَنْ كَانَ فيه هذه الثلاثُ ؛ وَجَدَ حَلاوةَ الإيمانِ ، لأنَّ وُجْدَ الحلاوةِ بالشيءِ يتبعُ المحبَّةَ له ، فَمَنْ أحبَّ شيئًا أو اشتهاه ، إذا حَصَلَ له مُرادُهُ فإنَّه يجدُ الحلاوةَ واللَّذَّةَ والسرورَ بذلك ، واللَّذَّةُ أمرٌ يحصلُ عُقيبَ إدراكِ الملائمِ الذي هو المحبوبُ أو المشتهى (٢) .

قال : وَمَنْ قَالَ : إنَّ اللَّذَّةَ إدراكُ الملائمِ – كما يقولُه مَنْ يقولُه من المتفلسفَةِ والأطباءِ – فقط غلطَ في ذلك غَلَطًا بيِّنًا ، فإنَّ الإدراكَ يتوسَّطُ بين المحبَّةِ واللَّذَّةِ (٣) .

قال : فإنَّ الإنسانَ – مثلاً – يشتهي الطعامَ ، فإذا أكلَه حصلَ له عقيبَ ذلك اللَّذَّةُ ، فاللَّذَّةُ تتبعُ النظرَ إلى الشيءِ ، فإذا نَظرَ إليه التذَّ به .

فاللَّذَّةُ تتبعُ النظرَ ليست نفسَ النظرِ ، وليست هي رؤيةُ الشيءِ ، بل تحصلُ عُقيبَ رؤيتِه .

وقَالَ تَعالى : ﴿ **وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ** ﴾ [الزخرف : ٧١] ، وهكذا جميعُ ما يحصلُ للنفسِ من اللَّذَّاتِ والآلامِ من فرحٍ

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) فاللذة تكون بعد إدراك المُحَب فيحب ثم ينال فيجد لنوله لذة وليس نفس الإدراك هو اللذة فإنه إذا أحب فأدرك التذ كما أنه إذا أبغض مكروهًا فوقع ما يكره حزن .

(٣) فالمقامات ثلاثة الطلب وإدراك الطلب وحصول أثره من السعادة والفرح أما نفس الإدراك فليس هو نفس الأثر لذلك قال : ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان ، فجعل للإيمان حلاوة تدرك بعد حصوله كما جعل للعصيان شقاوة تقع بعد وقوعه ، وهكذا .

وحزنٍ ، ونحو ذلك يحصلُ بالشعورِ بالمحبوبِ ، أو الشعورِ بالمكروه ، وليس نفسُ الشعورِ هو الفرحُ ولا الحزنُ .

حلاوةُ الإيمان وتحصيلها :

فحلاوةُ الإيمانِ المتضمِّنَةُ من اللَّذَّة به والفرحِ ما يجدُهُ المؤمنُ الواجدُ حلاوةَ الإيمانِ ، تتبعُ كمالَ محبَّةِ العبدِ لله .

وذلك بثلاثةِ أمورٍ : تكميل هذه المحبَّة ، وتفريغها ودَفْع ضدِّها .

فتكميلُهَا أن يكونَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما ، فإنَّ محبَّة الله ورسولِه ، لا يُكتفى فيها بأصلِ الحبِّ ، بل لا بُدَّ أن يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه ممَّا سواهما ، كما تقدم .

وتفريغهَا : أن يحبَّ المرءَ لا يُحبُّه إلا لله .

ودَفْعُ ضدِّهَا : أن يكره ضدَّ الإيمان أعظمَ من كراهته الإلقاءَ في النَّارِ ، فإذا كانتْ محبَّةُ الرسولِ والمؤمنين من محبَّة الله ، وكانَ رسولُ الله ﷺ يحبُّ المؤمنين الذين يُحبُّهُم اللهُ ؛ لأنَّه أكملُ النَّاسِ محبَّةً لله ، وأحقُّهم بأن يحبَّ ما يحبُّ اللهُ ، ويُبغض ما يُبغضُهُ اللهُ .

والخُلَّةُ ليس لغيرِ الله فيها نصيبٌ ، بل قالَ : « **لَوْ كُنْتُ مُتَّخذًا من أهْلِ الأَرْضِ خليلاً لاتَّخذْتُ أَبَا بكْرٍ خليلاً** »[1] ، عُلِمَ مزيدُ مرتبةِ الخُلَّةِ على مُطْلَقِ المحبَّةِ .

والمقصودُ هو أنَّ الخُلَّةَ والمحبَّةَ لله : تحقيقُ عبوديته، وإنَّما يغلطُ مَنْ يغلطُ في هذه من حيث يتوهَّمون أنّ العبوديةَ مجرَّدُ ذُلٍّ وخضوعٍ فقط لا

---

(١) تقدَّم تخريجه .

محبَّةَ معه،وأنَّ المحبَّةَ فيها انبساطٌ في الأهواءِ أو إِذلالٌ لا تحتملُه الربوبيةُ (١) .

قال : ولهذا يُذكر عن ذي النون أنَّهم تكلَّموا عنده في مسألةِ المحبَّةِ ، فقالَ : أمسكوا عن هذه المسألةِ لا تسمعها النفوسُ فتدَّعيها .

فَكَرِهَ مَنْ كَرِهَ من أهل المعرفةِ والعلم ، مجالَسَةَ أقوامٍ يكثرون الكلامَ في المحبَّةِ بلا خَشْيَةٍ (٢) .

وَقَالَ مَنْ قَالَ من السَّلَفِ :

مَنْ عَبَدَ اللّهَ بالحُبِّ وَحدَهُ فهو زنديقٌ ، ومَنْ عَبَدَهُ بالرَّجَاءِ وحَدَهُ فهو

---

(١) وهؤلاء الذين يحسبون العبودية مجرد ذل وخضوع يرون أن الواجب عليهم الطاعة المجردة عن المحبة ، والتي هي في الحقيقة أصل العبودية ، بل إن الخضوع الذي يلازم العبودية إنما هو خضوع حب من محب في الحقيقة فبغير المحبة لا تكون الطاعة كاملة أبداً .
ويزعمون أن المحبة فيها انبساط وادّلال وهو في الحقيقة تكسُّر لا يليق فيستعملون ألفاظًا لا يكون معها تعظيم لمقام الربوبية فهؤلاء عندهم الطاعة في جهة وأصحابها أصحاب الشريعة ، والمحبة في جهة أخرى وأصحابها هم أهل الحقيقة ولذلك فهؤلاء لا يلزم التزامهم بالشريعة .
فالتزموا الفصل بين المتلازمين وجعلوا الطاعة على غيرهم قهراً وإلزامهم بها جبراً وجعلوا المحبة لأحوالهم أثراً ، لا يلزمهم معها طاعة فحصل النفاق والزندقة فالعبودية حقًا ليست طاعة مجردة عن محبة ولا محبة مجردة عن طاعة ولكنها حال المحب المطيع وإنما تكميل العبودية بكمال الطاعة مع كمال المحبة .

(٢) لأن هؤلاء هم الذين يفصلون بين الشريعة والحقيقة ، فيظنون أن المحبة غير الطاعة فيتركون الطاعة زاعمين الحب ولابد للمحب من خشية ورجاء ، ولو لم يكن إلا لمجرد الحب رجاء أن يستمر وخشية أن يضيع أو يفقد .

مُرْجِئٌ ، ومَنْ عَبَدَهُ بالخوف وَحَدَهُ فهو حَرُورِيٌّ ، ومَنْ عَبَدَهُ بالحبِّ والخوف والرَّجَاءِ ، فهو مؤمنٌ موحِّدٌ (١) .

---

(١) فالذي يدعي محبة الله ولا يخافه ولا يرجوه من المنافقين الزنادقة ولكنه يلبس على الناس ليضلهم فألبس ضلاله ثوب المحبة حتى التبس على كثير من الناس فظنوا أن أكمل المنازل وأرقى المقامات وأرفع الأحوال حب بلا خوف ولا رجاء ، وصارت الكلمة المنسوبة لرابعة من أصول الوصول : « اللهم إن كنت أعبدك للجنة فاحرمني منها ، وإن كنت اعبدك خوفًا من النار فاقذفني فيها ، وكذا :

أحبك حبين حب الهوى	وحبًا لأنك أهل لذاك
فأما الذي هو حب الهوى	فشغلي بذكري عمن سواك
وأما الذي أنت أهل له	فكشفك لي الحجب حتى أراك

فهذه الزندقة لما ألبسوا قائليها ثوب المحبة والتخلي عن الرغبة والطلب ، واغتروا بما كان يكون عليه أصحابها من بعض الأحوال من الذكر ونحوه ، التبس على كثير من الناس الأمر وظهرت أمور وتجلت أحوال حتى قيل أن عبادة الرجاء عبادة التجار ، وعبادة الخوف عبادة العبيد ، وأما عبادة الأحرار فهي عبادة المحبين ، ولذلك تجد في كلمة الأحرار تصور انتفاء قيد العبودية بالتحرر ، حتى من الرجاء والرغبة والطلب لأنه قبل ذلك نزل منازل الواصلين حتى تحرر من عبودية العوام ، والتي أصلها الأمر والنهي والوعد والوعيد .

ومن هنا لبسوا كما سبق على الناس أمر دينهم ، فإن الرجل إذا أقر لهم بالمعرفة وصدقهم فيما زعموا وأراد أن يحسن المعاملة مع ربه أنزل نفسه منازل الأحرار المتمكنين من حبه والسالكين إليه بلا قيد على طريق المحبة والرغبة والشوق إليه ، وإذا قارن الناظر بين مقام الحر ومقام العبد حصل لديه رغبة في أشرف المقامين وأعلى الدرجتين ، وازدراء لمقام العبودية وإن كان في الحقيقة ما كان عليه السابقون الأولون ، بل من كان من قبلهم من الأنبياء والمرسلين .

قال : ولهذا وُجِدَ في المتأخِّرين مَنْ انبسطَ في دعوى المحبَّة حتَّى أخرجَه ذلك إلى نوعٍ من الرعونة والدعوى التي تنافي العبودية وتُدخل العبد في نوع من الربوبية التي لا تصلُحُ إلا لله ، فيدَّعي أحدُهم دَعَاوَى تتجاوزُ حدودَ الأنبياء والمرسلين ، أو يطلبُ من الله ما لا يصلُحُ بكلِّ وَجْهٍ إلا لله ، لا يصلحُ للأنبياء ولا للمرسلين فضلاً عمَّنْ هم دونَهُم (١) .

قال : وهذا بابٌ وَقَعَ فيه كثيرٌ من الشيوخ ، وسببُهُ : ضَعْفُ تحقيق العبودية التي بيَّنها الرُّسُلُ وحَرَّرَهَا الأمرُ والنهيُ الذي جاءوا به ، بل ضَعْفُ العقلِ الذي به يعرفُ العبدُ حقيقتَه ، وإذا ضَعُفَ العقل وقَلَّ العلمُ بالدِّين وفي النَّفْسِ محبَّةٌ طائشةٌ جاهلةٌ ، انبسطت النَّفْسُ بحمقهَا في ذلك ، كما ينبسطُ الإنسانُ في محبَّة الإنسان مع حُمْقه وجهله ويقولُ : أنا مُحبٌّ ، فلا أؤَاخَذُ بما أفعلهُ من أنواع يكون فيها عدوانٌ وجهلٌ ، فهذا عينُ

قوله : ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجيء ، فالمرجئة قوم يغلبون الرجاء ويؤخرون العمل ويجعلون مرتكب الكبيرة كامل الإيمان يدخل الجنة من غير عذاب ، والذي يغلب جانب الرجاء ويهمل الحب والخوف فهو مرجيء ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري من الخوارج الذين يكفِّرون مرتكب الكبيرة ويخلدونه في النار ولا يفتحون باب الرحمة لعباد الله ، ومن عبده بالحب والخوف الرجاء فهو المؤمن ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٥٣)﴾ .

(١) كأن يطلب منه الشفاعة لجميع خلقه حتى الكفار ، أو يجعل له سلطانًا على ذرات الكون كما يدعي الخوميني لأئمته فيقول : نحن معشر الشيعة الإمامية نعتقد أن لأئمتنا أحوالاً لا يبلغها ملك مُقرب ، ولا نبي مرسل ، وأن لهم سلطانًا على كل ذرة من ذرات هذا الكون .

الضَّلال ، وهو شبيهٌ بقولِ اليهودِ والنَّصارى : ﴿ **نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ** ﴾ .

[المائدة : ١٨] .

قَالَ اللّهُ تعالى لهم : ﴿ **قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ** ﴾ [المائدة : ١٨] ، فإنَّ تعذيبَهُ لهم بذنوبهم يقتضي أنَّهم غير محبوبين ولا منسوبين إليه بنسبةِ البنوَّة ، بل يقتضي أنَّهم مربوبون مخلوقون .

فَمَنْ كَانَ اللّهُ يُحبُّه استعمله فيما يُحبُّه ، ومحبوبُهُ لا يفعلُ ما يَبغضُهُ الحقُّ ويسخطُهُ ؛ من الكفرِ والفسوقِ والعصيانِ ، ومَنْ فَعَلَ الكبائرَ وأصرَّ عليها ولم يَتُبْ منها فإنَّ اللّهَ يبغضُهُ ويبغضُ منه ذلك ، كما يحبُّ عبدَهُ المؤمن ويحبُّ منه ما يفعلُهُ من الخيرِ ، إذ أن حبَّه للعبدِ بحسبِ إيمانه وتقواه .

وَمَنْ ظَنَّ أنَّ الذنوبَ لا تضرُّهُ لكونِ الله يُحبُّهُ مع إصرارِه عليها ، كان بمنزلةِ مَنْ زَعَمَ أنَّ تناولَ السُّمِّ لا يضرُّهُ مع مداومته عليه،وعدم تداويه منه ، بصحَّةِ مزَاجِه ، ولو تدبَّرَ الأحمقُ ما قَصَّ اللّهُ في كتابِه من قصصِ أنبيائه ، وما جرى لهم من التوبةِ والاستغفارِ ، وما أُصيبوا به من أنواعِ البلاءِ الذي كان فيه تمحيصٌ لهم وتطهيرٌ بحسبِ أحوالهم : عَلِمَ ضَرَرَ الذنوبِ بأصحابها ، ولو كان أرفعَ النَّاسِ مقامًا (١) .

---

(١) وقد تقدم أن شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ يرجح جواز وقوع صغار الذنوب من الأنبياء ، والصحيح أن التسمية لا نزاع فيها من أنه قد وقع منهم ما سمي ذنوبًا وخطايا ، كما قال تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾ ، وقال : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ وقال عن موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ

قال :فإنَّ المحبَّ للمخلوقِ إذا لم يكن عارفًا بمحابِّه ولا مريدًا لها ، بل لا يعملُ بمقتضى الحبِّ ، وإن كان جهلاً وظلمًا ؛ كان ذلك سببًا لبغضِ المحبوب له ، ونُفُوره عنه ، بل سببًا لعقوبته (١) .

قال :وكثيرٌ من السالكين سلكوا في دعوى حبِّ اللهِ أنواعًا من الجهلِ

نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ﴾ ، أما إنهم يتعمدون مخالفة أمر الله أو فعل المحرم ولو كان من الصغائر فهذا الذي فيه نزاع ، والصحيح أن النسيان والخطأ في الاجتهاد والفتور عن الذكر هو الذي يعد في حقهم ذنبًا والله أعلم ، وقد قال النبي ﷺ «ويحك فمن يطع الله إن عصيته » ، وقال صالح عليه السلام : ﴿ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ﴾ ، وهذا يشمل كل أنواع المعاصي فلو عصى الرسول ربه لم يطعه أحد وهذا لا يكون ، ولو عصاه لانتقم منه ولم ينصره منه أحد وهذا أيضًا لم يكن ، أما الشرك والكبائر وكتمان الرسالة والإصرار على الذنب ، فلا نزاع بين العلماء في عدم جواز وقوعها من الأنبياء وأنهم معصومون منها .

(١) فإن المحب إذا عامل المحبوب بجهل لا بمقتضى معرفة ما يحبه ويبغضه فربما آذاه وأضر به ، وربما قتله وأهلكه ثم يصير ذلك سببًا لبغض محبوبه له ونفوره منه وسببًا لعقوبته إياه على ما ارتكب من حمق وجهالة ، فمثل هذا لا يقبل في المخلوقين ، فبالأولى لا يفعل مع الرب .

فلا تفعل ما يبغضه الله وتقول لا يضرني ذلك بأني أحبه ، فإن كمال محبته في كمال فعل ما يحب وترك ما يُبغض وهو كمال الطاعة كما قال ابن المبارك :

تعصي الإله وأنت تُظهر حبه	هذا لعمري في القياس شنيع
لو كان حبك صادقًا لأطعته	إن المحب لمن يحب مطيع

وتحقيق المعرفة بدعوى قيامها على الانفصال بين الطاعة والمحبة تحقيق شيطاني خبيث ، فإن هذا انفصال بين أمرين متلازمين وأخوين متآلفين متآزرين بدعوى خبيثة .

بالدِّينِ ، إمَّا من تَعَدِّي حدودِ اللهِ ، وإمَّا من تضييع حقوقِ اللهِ ، وإمَّا من ادِّعاءِ الدعاوى الباطلةِ التي لا حقيقةَ لها ، كقولِ بعضِهِم : أيُّ مُريدٍ لي تركَ في النَّار أحداً فأنا بريءٌ منه .

فقَالَ الآخرُ : أيُّ مُريدٍ لي ترك أحداً من المؤمنين يدخلُ النَّارَ فأنا منه بريء .

فالأولُ : جَعَلَ مريدَهُ يُخرجُ كلَّ مَنْ في النَّار [١] .

والثاني : جَعَلَ مريدَهُ يمنعُ أهلَ الكبائرِ من دخولِ النَّارِ [٢] .

ويقولُ بعضهم : إذا كان يوم القيامة نصبتُ خيمتي على جهنَّمَ حتى

---

(١) فجعله أصغر مريديه يُخرج كل من في النار ، فهو فوق أنه من الضلال البعيد فإنه يلزم منه الكفر للازمه أنه يُخرج من النار الكفار أيضًا .
وقوله : « أي مريد لي » من أنواع الضلال الذي تلبسوا به ولبسوا به على الناس فإن الإرادة له تقتضي كمال التبعية فجعلوا للشيخ من تبيعة اتباعه ما لم يجعلوه لله ، ثم ها أنتم هؤلاء تُقرون بأن كمال الحب والإرادة في كمال الطاعة والاتباع فكيف أنتم عند المحاققة وقد جعلتم مريديكم أوفى بعهدكم منهم بعهد الله ! ، وقد ألزمتموهم بالإقرار لكم بالتعظيم والإذعان لكم بالطاعة بمقتضى ما يزعمونه من محبتكم والإرادة لكم ، ثم فصلتم بين زعمكم محبة الله وبين الإذعان له والطاعة فيما أمر ، فتأمرون مريديكم أن يطيعوكم وأنتم لا تُطيعون الله !!! .
فهذا من ردة القلوب التي أوجبت هذا الخلط ومن عدم استقرارها في أكنتها الفطرية فخسرت تلك العلوم الشرعية وهذه المعارف الربانية .

(٢) وقد جاءت أحاديث الشفاعة متواترة في أن من أهل التوحيد ممن هو من أهل المعاصي من يدخل النار وأن أهل الشرك مخلدون فيها ، ثم يزعم هذان الزاعمان ما يزعمان ، وهذا من فساد الاعتقاد والجهل بالدين

لا يدخلها أحدٌ (١) .

قال : وأمثالُ ذلك من الأقوالِ التي تُؤْثَرُ عن بعضِ المشايخِ المشهورين ، وهي إمَّا كَذِبٌ عليهم ، وإمَّا غَلَطٌ منهم (٢) .

قال : ومثلُ هذا يصدرُ في حالِ سُكْرٍ وغَلَبَةِ فَنَاءٍ يسقطُ فيها تمييزُ

وأحكام الشريعة ومن فساد سلوكهم في المحبة ، ومن ضلالهم عن قواعدها وأصولها وعن معرفة حدودها وعلاماتها ومن كثرة المزاعم والدعاوي الباطلة التي بثها فيهم شيطان رجيم فأشربتها قلوب قوم لا يعلمون .

(١) ثم يأتي صاحب الخيمة فيزعم ما يزعم من منع دخول النار لكل أحد ، والنبي ﷺ يقول : « يؤتى بجهنم يوم القيامة لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها » ، ويقول الله تعالى فيما يرويه عنه رسوله ﷺ : « وعزتي وجلالي لا أجمع على عبدي أمنين ولا خوفين ، إن هو أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع فيه عبادي ، وإن هو خافني في الدنيا أمنته يوم أجمع فيه عبادي » ، وهذا يقول ما يقول !! ، فما كان أشد أمنه في الدنيا فكيف به يوم الفزع الأكبر ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ .

واختار الخيمة ليصرف قلوب أتباعه الوالهة إلى خيمته التي ينصبها في الموالد حتى يقول القائل منهم كأنها هي فتسكب العيون دموعها وتبوح القلوب بأسرارها ، ويتهامس القوم إنها وإنها فيتعلقون بأطنابها ويتمسحون بعمودها فيأتون صاحبهم الذي انشغلوا به وكانوا أكثر انشغالاً بها ، فإذا رأى المؤمنون تلك القلوب وأحوالها فزعت إلى ربها وعلمت علم اليقين أن الطاعة أولى لها ، وأن ترك البدع والضلال أنفع لها .

(٢) وهذا منه رحمة الله تسامح في العبارة أو يكون من باب قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ .

الإنسانِ أو يضعفُ حتّى لا يدري ما قالَ ، والسُّكْرُ لَذَّةٌ مع عدمِ تمييز ؛ ولهذا كان بين هولاء مَنْ إذا صَحَا استغفرَ من ذلك الكلامِ .

والذين توسَّعوا من الشيوخ في سَمَاعِ القصائدِ المتضمِّنَة للحبِّ والشَّوقِ واللَّومِ والعَذْلِ (١) والغرامِ ، كان هذا أصْلُ مقصدِهم (٢) .

قال : فإنَّ هذا الجنسَ يحرِّكُ ما في القلبِ من الحبِّ كائنًا ما كان .

قال : ولهذا أنزلَ اللهُ في المحبة محنَةً يمتحنُ بها المحِبَّ ، فقَالَ : ﴿ **قُلْ إن كُنُتم تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ﴾ [آل عمران : ٣١] ، فلا يكون

---

(١) العَذْلُ : اللَّوْمُ .

(٢) وهذا الكلام صدر من أشياخهم في أحوال لهم وهم في الحقيقة لعدم صلاحيتهم للإمامة ولعدم صدقهم في عبوديتهم لله وطاعته صدرت منهم هذه الأقول وإلا فالصحابة كانوا أعظم حبًا لله ولرسوله ﷺ ، وما صدر منهم أمثال هذه الدعاوي المنكرة ، ولم يقع منهم هذا السُكر الذي زعموا أنه من مقامات الأولياء العالية الرفيعة التي هي عندهم من مقامات الخاصة كما يذكر ذلك من يذكره منهم ممن يتكلم عن أحوال القوم ومقاماتهم كأبي إسماعيل الهروي في منازله حيث جعل الدهش والهيمان والسكر من منازل السائرين إلى رب العالمين السالكين صراطه المستقيم ، وذكر دون ذلك منازل الصبر والخوف والرجاء والإنابة والمحبة ، وإنما ذكر تلك المنازل لأنها أقرب إلى الفناء ، وزوال العقول عندهم من معاني الفناء .
وكتاب إحياء علوم الدين متضمن لحكايات وأحوال وأقوال العباد والزهاد ، وتفصيلاً لأعمال القلوب بما لا تجده في غيره ، ومع ذلك فهو متضمن لشيء كثير من الضلال كتفضيله سماع القصائد حتى يفضل لبعض الناس سماع القصائد والألحان على سماع القرآن لأن ذلك في حقهم أشد تأثيراً في قلوبهم وما في ذلك في الحقيقة إلا لإنتكاسها حتى صار المعروف لديها منكراً والمنكر معروفًا .

محبًا لله إلا مَنْ يَتَّبعُ رسُولَه ، وطاعةُ الرسولِ ﷺ ومتابعتُه لا تكون إلا بتحقيقِ العبودية .

وكثيرٌ ممَّن يدَّعي المحبَّةَ يخرجُ عن شريعته وسُنَّته ﷺ ، ويدَّعي من الخيالات ما لا يتَّسعُ هذا الموضعُ لذكرِه ، حتَّى الشرعي عنه قد يظنُّ أحدُهُم سقوطَ الأمرِ وتحليلَ الحرامِ له ، وغير ذلك ممَّا فيه مخالفةُ شريعةِ الرسولِ وسُنَّته وطاعته .

بل قد جَعَلَ اللهُ أساسَ محبَّته ومحبَّة رسوله ﷺ ، الجهادَ في سبيله ، والجهادُ يتضمَّنُ كَمَالَ محبَّة ما أمرَ اللهُ به ، وكمالَ بغض ما نهى اللهُ عنه ، ولهذا قالَ في صفَة مَنْ يُحبُّهُم ويحبُّونَهُ﴿ **أذلَّةٍ على الْمُؤْمنينَ أعزَّةٍ على الْكَافرِينَ يُجَاهدُونَ في سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائمٍ** ﴾[المائدة : ٥٤] [١] .

قال : ولهذا كانت محبَّةُ هذه الأمَّة لله أكملَ من محبَّة مَنْ قبلَهَا ، وعبوديَّتُهُم لله أكملَ من عبودية مَنْ قبلَهُم ، وأكملُ هذه الأمَّة في ذلك

---

(١) وذلك لأن الجهاد شرع لإعلاء كلمة الله وإعلاء كلمة الدين وإقامة الشرع لكي يعبد الناس ربهم كما قال ربعي رضي الله عنه : الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد » فكيف يدعي محبوهم سقوط الأمر والنهي وتحليل الحرام ومخالفة الشريعة ، فإن محبة الله تستلزم الجهاد في سبيله لأن الجهاد غاية البذل وغاية البذل في سبيل المحبوب دليل الحب ، والجهاد يستلزم كمال محبة ما أمر الله به وكمال بُغض ما نهى عنه .

ولذلك لا تجد من أصحاب هذه الدعاوي من يعرف له قدم صدق في جهاد أعداء الله ، ولذلك كان كثير منهم لا يرى الجهاد ، وهذا من تمام تمكن فساد الطوية من قلوبهم فإن الجهاد من أعظم أسباب التوبة ومراجعة النفس ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

هم أصحابُ محمَّدٍ ﷺ ، وَمَنْ كَانَ بهم أشْبَهُ كانَ ذلك فيه أكْمَلَ ، فأين هذا من قومٍ يَدَّعُونَ المحبَّةَ ؟! (١) .

---

(١) وهذا غاية في التحرير ولكن عند من يتمذهب بمذهب السلف ويرى أنهم كانوا أكمل الخلق محبة لله أما عند من يرى خلاف ذلك فليس الأمر كذلك لأنهم عنده شغلوا بالأعمال الظاهرة دون الباطنة لذلك قل كلامهم في علوم القلوب وأحوال السالكين أو أنهم شغلوا بالجهاد فشغلهم عن تحرير المسائل العقائدية ، ويتخلص أصحاب الدعاوي الباطلة هؤلاء من المذمة بالاعتذار عن الصحابة بزعمهم ، فالمتفلسفة والمتكلمون يقولون عن الصحابة : كانوا مشغولين بالجهاد فلم يعرفوا الخوض في المسائل الكلامية والمباحث الجدلية ويقول الصوفية : كانوا مشغولين بالأعمال الظاهرة ، أو يدعون فيهم ادعاءاتهم الكاذبة كمن ذكر أبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا وسادات الصحابة ﷺ في الصوفية .

ولكن من اعتقد أن الصحابة والسلف الصالح أكمل هذه الأمة اعتقد أن منهجهم أكمل المناهج فيشغل نفسه بالنظر في أحوالهم وأقوالهم حتى يستقر لديه أن خلافهم انحراف وضلال ، ولذلك فإن جعل مسألة « من أكمل هذه الأُمة » من المسائل الثانوية ليس بصواب بل إنها من المسائل العظيمة سواء في المسائل الاعتقادية أو السلوكية أو الحكمية والفقهية .

وأنت ترى أن فقه المتأخرين من أرباب المذاهب وتفريعاتهم بلا أدلة ، وقد ترتب عليها نزاعات طويلة بلا فائدة ، وإذا قيل لهم في ذلك قالوا : إن الصحابة لم تكن المسائل الفقهية قد تحررت في زمانهم .

ولذلك لابد من وقوع منهجهم على خلاف منهج الصحابة ، فإذا استقبحوا ظهور الخلاف اعتذروا عنهم لا عن أنفسهم ، وكل طائفة بتلك المثابة وهذا من تشابه قلوبهم .

ولذلك يقول شيخ الإسلام : إن أكمل هذه الأمة أصحاب محمد ﷺ ، وهذا الكمال في كل شيء فكما أنه في أعمال الإيمان واعتقادات القلوب ،

قال : **وفي كلامِ بعضِ الشيوخِ** : المحبَّةُ نارٌ في القلبِ ما سِوَى مُرَادِ المحبوبِ (١) .

قال : وأرادوا أنَّ الكونَ كلَّه قد أرادَ اللهُ وجودَهُ ، فظنُّوا أنَّ كمالَ المحبَّةِ أن يحبَّ العبدُ كلَّ شيءٍ حتَّى الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ ؟! .

ولا يمكن لأحدًا أن يحبَّ كلَّ موجودٍ ، بل لا يمكن إن يحب إلا ما يلائمه وينفعُهُ ، وأن يُبغضُ ما فيه ضرّرهُ ولكن استفادوا هذا الضَّلالِ من اتِّباعَ أهوائِهم ثم زادهم انغماسًا في أهوائهم وشهواتهم ، فهم يحبُّون ما يهوونه ، كالصُّور ، والرئاسةِ ، وفضولِ المالِ ، والبدعِ المضلَّة ، زاعمين أنَّ هذا من محبَّةِ اللهِ ، وكذبوا وضلوا ، فإن محبة الله لا تكون إلا ببُغض ما يُبغضُهُ اللهُ ورسولُه ، وجهادُ أهلِه بالنَّفْسِ والمالِ (٢) .

فكذلك هو في أبواب التربية والتزكية وإصلاح النفوس بقيد ولابد أن يكون هؤلاء الصحابة هم المتبوعين لأنهم أعلم ولأن مذهبهم أحكم وأسلم .

(١) وقد تحمل هذه الكلمة على معنى حميد صحيح كما تحمل على معنى خبيث فاسد ولعل هذا الأخير هو المقصود بدلالة باقي الكلام ، فإن مراد المحبوب ، أما أن يكون مرادًا شرعيًا أو مرادًا كونيًا ، فلو كان شرعيًا وكان القلب لا يريد إلا ما شرعه الله لشدة حبه لله ، فهذا حق حتى تصير هذه المحبة بحيث تبيد كل إرادة سوى ما أراده الله ، وأما على المعنى الآخر فالكون كله بما فيه من كفر وفسوق وعصيان مراد كوني أراد الله وجوده ، وهؤلاء يقولون مثل هذا الكلام ، إذا قيل لهم أن هناك من يكفر بالله وهناك من يعصيه .

(٢) فلو أنهم عملوا المعاصي فعل العصاة بعيدًا عن الدين لكان أهون ، فإن أرباب المعاصي يستقبلون التوبة والرجوع إلى الله ، ولكنهم ينتحلونها دينًا وينسبونها إلى حقيقة الشرع .

قال : وأصلُ ضلالِهِم أن هذا القائلَ الذي قَالَ : إنَّ المحبَّةَ نارٌ تحرقُ ما سوى مرادِ المحبوبِ قصدَ بمرادِ اللهِ تعالى : الإرادة الكونيةَ في كل الموجودات .

أمَّا لو قَالَ مؤمنٌ باللهِ وكُتبهِ ورُسُلهِ من غير هـؤلاء الصوفية هذه المقالَةَ ، فإنَّه يقصدُ الإرادةَ الدينيةَ الشرعيةَ التي هي بمعنى محبَّته ورضاه ، فكأنَّه قَالَ : تحرقُ من القلبِ ما سوى المحبوبِ للهِ، وهذا معنىً صحيح .

فإنَّ من تمام الحبِّ للهِ أن لا يحبَّ إلا مَنْ يحبُّه اللهُ ، فإذا أحببتَ ما لا يحبُّ كانت المحبَّةُ ناقصةً ، وأمَّا قضاؤُهُ وقدرُهُ فهو يُبغضه ويكرهُهُ ويسخطه وينهى عنه ، فإن لم أوافقه في بغضِهِ وكراهتِهِ وسخطِهِ لم أكن محبًا له ، بل محبًا لما يُبغضُهُ .

فاتّباعُ هذه الشريعة والقيامُ بالجهاد بها : من أعظم الفروق بين أهلِ محبَّةِ اللهِ وأوليائِهِ الذين يحبُّهُم ويحبُّونَه ، وبين مَنْ يدَّعي محبَّةَ اللهِ ناظراً إلى عمومِ ربوبيتِهِ [1] .

---

(١) والله قدر بحكمته أشياء مبغوضة له لا يحبها وإنما ينهي عنها ، ولذلك نحن نؤمن بالقدر خيره وشره وأن جميعه من الله وما كان من خيره فمحبوبه وما كان من شره فمبغوضه ، فهذا الشر نبغضه وننفر منه وننهى عنه فإن ربوبية الرب تستلزم تفرده سبحانه بالتقدير فلا شريك له فيه ، وكمال حكمته وقدرته وألوهيته تستلزم حب ما يحب من ذلك وبُغض ما يُبغض منه مع اعتقاد أنه وما قدر ما قدره من الشر إلا لحكمٍ وأمور محمودة يرتبها عليها ، فله الحمد على كل حال .
أما هؤلاء الزاعمون حبه ناظرين إلى عموم ربوبيته في الخير والشر فيزعمون أن تمام النظر في ربوبيته ينسى الناظر كراهة الشر ويقولون أن شهود العبد للحكم لم يدع له استحسان حسنة ولا استقباح سيئة فهذا من أبطل الباطل .

قال : أو متَّبعًا لبعضِ البدعِ المخالفة لشريعته ؛ فإنَّ دعوى هذه المحبَّة لله من جنسِ دعوى اليهودِ والنصارى المحبَّةَ لله ، بل قد تكون دعوى هؤلاء شرًا من دعوى اليهودِ والنصارى ، لما فيهم من النفاقِ الذي هم به في الدَّرْكِ الأسفلِ من النَّارِ ، كما قد تكونُ دعوى اليهودِ والنصارى شرًا من دعواهم إذا لم يصلوا إلى مثلِ كفرهم .

وفي التوراةِ والإنجيلِ من الترغيب في محبَّة الله ما هم متَّفقون عليه ، حتَّى إن ذلك عندهم أعظمُ وصايا الناموس ، ففي الإنجيلِ ؛ أعظم وصايا المسيح : أن تحبَّ اللهَ بكلِّ قلبكَ وعقلكَ ونَفْسكَ [١] .

قال : والنصارى يدَّعون قيامَهُم بهذه المحبَّة ، وأنَّ ما هم فيه من الزُّهْدِ والعبادةِ هو من ذلك ، وهم بَرآءٌ من محبَّة الله ، إذا لم يتَّبعوا ما أحبَّه ، بل اتَّبعَوا ما أسخطَ اللهَ ، وكرهوا رضوانَهُ فأحبطَ أعمالَهُم ، واللهُ يُبغض الكافرين ويمقتُهُم ويلعنُهُم . وهو سبحانه يحبُّ مَنْ يُحبُّه ، لا يمكنُ أن يكونَ العبدُ مُحبًا للهِ ، واللهُ تعالى غيرُ مُحبٍ له [٢] .

---

(١) والنص كما في الإنجيل « أيها المعلم أي الوصايا هي أول الكل ، فقال : كما هو مكتوب الرب إلهنا رب واحد رب إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وأن تحب الرب إلهك من كل عقلك وقلبك وفكرك » وهذه هي أول الوصايا في التوراة ، فما أكثر الزاعمين محبة الله ممن هم أبغض الخلق إليه وأمقت الأشياء لديه .

(٢) والنصارى يطلقون القول بأن الله محبة وهي كلمة عظيمة منكرة تقتضي حلولاً واتحادًا وأن كل محبة هي الله ، وتراهم يزعمون ذلك وهم يكفرون بكتب ربهم ورسله ويفترون على الله الكذب ، كما يزعم معهم اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه وهم أكثر الناس فسادًا في الأرض وأعظمهم كفرًا .

قال : بل بقدرِ محبَّةِ العبدِ لربِّه يكون حبُّ اللهِ له ، وإن كان جزاءُ اللهِ لعبده أعظمَ ، كما في الحديث الصحيح الإلهيِّ ، عن اللهِ تعالى أنَّه قَالَ : « **مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شبرًا تَقرَّبتُ إِلَيه ذِرَاعًا ، وَمَنْ تقَرَّب إِليَّ ذِراعًا تَقرَّبْتُ إِلَيه بَاعًا ، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً** »[1] .

وقد أخبرَ اللهُ سبحانه أنَّه يحبُّ المتَّقينَ المحسنينَ ، والصابرينَ ، ويحبُّ التـوَّابينَ ، ويحبُّ المتطهـرِّينَ ، بل هو يحبُّ مَنْ فعلَ ما أُمرَ به من واجبٍ ومستحبٍ كما في الحديث الصحيح : « **لا يَزَالُ عَبْدِي يتقرَّبُ إِليَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ بِهِ ، وبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ بِه ...** » **الحديث**[2] .[3] .

قال : وكثيرٌ من الضالين الذين ابتدعوا أشياءَ في الزهدِ والعبادةِ على غير علم ولا هدى ولا نور من الكتاب والسُّنَّة ، وقعوا فيما وقعَ فيه النصارى من دعوى المحبَّةِ للهِ مع مخالفةِ شريعته ، وتَرْكِ المجاهدة في سبيله ، ونحو ذلك ويتمسَّكون في الدين الذي يتقرَّبون به إلى اللهِ بنحوِ ما تمسَّك

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ، وأخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرج البخاري في « صحيحه » في كتاب الرقاق : باب التواضع ، عن أبي هريرة رضي الله عنه [فتح الباري (١١ / ٣٤٨)] . قال الشيخُ الألباني - رحمه الله - : « كُنتُ برهةً من الزمنِ متوقِّفًا في صحة هذا الحديث ، ثم تتبَّعتُ طرقَهُ ، فتبيَّن لي أنَّه صحيحٌ بمجموعِها ، وقد صحَّحه جمعٌ كما بيَّنته في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٦٤٠) بما قد لا تجده في مكان آخر [صحيح الجامع الصغير (١٧٧٨)] .

(٢) ومعناه أن الله يعينه في سمعه وبصره ويده ورجله حتى يوفق في جميع فعله ويجعله كله في طاعة ربه فيكون بالله مستعينًا ولله مخلصًا ، وليس معناه بالإجماع أن الله يحل فيه بل اعتقاد ذلك كفر أكبر بلا خلاف .

به النصارى من الكلامِ المتشابه ، والحكاياتِ التي لا يُعرفُ صدقُ قائلِهَا ، ولو صَدَقَ لم يكن قائلُهَا معصومًا ، فيجعلون متبوعيهم وشيوخهم شارعين لهم دينًا ، كما جَعَلَ النصاري قسِّيسيهم ورهبانَهم شارعين لهم دينًا .

ثمَّ إنَّهم يتنقصون العبودية ، ويدَّعون أنَّ الخاصَّةَ يتعدُّونها ، كما يدَّعي النصارى في المسيح والقساوسة (١) .

قال : ويُثبتون لخاصتَّهم من المشاركة في اللهِ ، من جنس ما تُثبته النصارى في المسيحِ ، وأُمِّه ، والقسِّيسين ، والرُّهْبان ، إلى أنواعٍ أُخَرَ يطولُ شرحُها في هذا الموضوع (٢) .

---

(١) فادعوا أن قوله ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ ينزل الخاصة منازلهم بسقوط التكليف عنهم بمنزلة اليقين التي وصلوا إليها ، فمن وصل منهم إلى هذا اليقين فلا يخاطب بالأمر بالعبادة ، وأصل بلائهم تركهم ابتغاءهم الوسيلة إلى ربهم بدعوى وصولهم ، ولقد قال الله عز وجل : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ وقال : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ وإذا كان الرسول ﷺ ظل يعبد ربه إلى موته فكيف يمكن لأحد دونه أن يصل إلى ما لم يصل إليه هو ، والآية باتفاق أهل الحق معناها واعبد ربك حتى يأتيك الموت .

(٢) فيثبتون لهم صفات لا تصلح إلا الله تعالى كالسمع المحيط والبصر المحيط والقدرة التامة فعندهم من المشايخ من يسمع من الشرق والغرب ، وكذا يبصر ويقدر ويجيب ولذلك تجد في درجات أوليائهم « الغوث » وهو المغيث والقطب وهو مدار الكون ومجموعة الأقطاب هم الذين يفوض الله لهم تدبير الكون هذا مما يدعونه في أوليائهم وهو من جنس ما يدعيه النصارى في المسيح عليه السلام .

قال : وإنَّما دينُ الحقِّ هو تحقيقُ العبوديَّة لله بكلِّ وَجْهٍ ، وهو تحقيقُ محبَّة الله بكلِّ درجةٍ ، وبقَدْرِ تكميل العبودية تكمُلُ محبَّةُ العبد لربِّه ، وتكمُلُ محبَّةُ الرَّبِّ لعبده ، وبقَدْرِ نَقص هذا يكون نقصُ هذا ، وكلَّما كان في القلبِ حبٌّ لغيرِ الله ، كانت فيه عبوديةٌ لغيرِ الله بحسبِ ذلك ، وكلَّما كان فيه عبوديَّةٌ لغيرِ اللهِ كَانَ فيه حُبٌّ لغيرِ الله بحسبِ ذلك .

وكلُّ محبَّةٍ لا تكون لله فهي باطلةٌ ، وكلُّ عملٍ لا يُرادُ به وجهُ الله فهو باطلٌ،كما أن كل عمل لا يكون على الصحيح الصريح من هدي رسول الله ﷺ فهو باطل « **فالدُّنْيَا مَلْعُوْنَةٌ ، مَلْعُوْنٌ مَا فِيهَا إلا مَا كَانَ لله** » [(١)] ، ولا يكون لله إلا ما أحبَّه اللهُ ورسولُهُ ، وهو المشروعُ .

فكلُّ عملٍ أُريد به غيرُ الله لم يكن لله ، وكلُّ عملٍ لا يوافقُ شرعَ الله لم يكن لله ، بل لا يكون لله إلا ما جَمَعَ الوصفين : أن يكونَ لله ، وأن يكونَ موافقًا لمحبَّة الله ورسوله ، وهو الواجبُ والمستحبُّ ، كما قَالَ تَعالَى : ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً** ﴾ .

[الكهف : ١١٠] .

ثم يقال لهم : من كان يغيث الناس قبل وجود هؤلاء الأغواث وعلام كان يدور الكون قبل وجود الأقطاب كما يقال للنصارى من كان للبشرية مخلصًا لها من أوحال الخطيئة قبل وجود المسيح ؟ ، فأنت إذا تأملت وجدت تشابها مفرغًا بين ما يديه هؤلاء في أشياخهم وأولئك في المسيح فلما تشابهت قلوبهم وتوحدت مشاربهم تشابهت ضلالاتهم .

(١) أخرجه الترمذيُّ في سُننه في كتاب الزهد ، حسنٌ غريبٌ [عارضة الأحوذي (٩ / ١٩٨)] ، وحسنَّه الألباني -رحمه الله- وأخرجه ابن ماجه في « سُننه » عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ : « إلا ذكر الله وما والاه ، أو عالمًا أو متعلمًا » وحسنه الألباني .

فلا بُدَّ من العملِ الصالح ، وهو الواجبُ والمستحبُّ ، ولا بُدَّ أن يكونَ خالصًا لوجه الله تعالى ، كما قَالَ تعالى : ﴿ **بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢)** ﴾ .

[البقرة : ١١٢] .

وقَالَ النَّبيُّ ﷺ : « **مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيسَ عَلَيْهِ أمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ** » [١] .

وقَالَ النَّبيُّ ﷺ : « **إنَّمَا الأعْمَالُ بالنِّيَّات ، وإنَّمَا لِكُلِّ امْرِيءٍ مَا نَوَى ؛ فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلى اللهِ وَرَسُوله ، فَهِجْرَتُهُ إلى اللهِ وَرَسُوله ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أو امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا ، فَهِجْرَتُهُ إلى مَا هَاجَر إلَيْه** » [٢] .

وهذا الأصلُ هو أصلُ الدِّين ، وبحسب تحقيقه يكون تحقيقُ الدِّين ، وبه أَرسَل اللهُ الرُّسُلَ ، وأنزلَ الكتبَ ، وإليه دَعَا الرسولُ ، وعليه جاهدَ ، وبه أَمَرَ ، وفيه رغبَ وهو قطبُ الدينِ الذي تدورُ عليه رحاه .

غلبة الشِّرك على النفوس :

والشِّرْكُ غالبٌ على النفوسِ ، وهو كما جاءَ في الحديثِ : « **هُوَ فِي هَذهِ الأُمَّة أَخْفَى مِنْ دَبيبِ النَّمْلِ** » [٣] .

وفي حديثٍ آخر : قَالَ أبُو بَكْرٍ : يَا رَسُولَ اللهِ ، كَيْفَ نَنْجُوا مِنْهُ ،

---

(١) أخرجه مسلم وأحمد عن عائشة رضي الله عنها .

(٢) متفق عليه من حديث عمر رضي الله عنه .

(٣) رواه البزار بلفظ : « الشِّرْكُ أَخْفَى فِي أُمَّتي مِنْ دَبيبِ النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا » ، والترمذي من طريق ابن عباس رضي الله عنه بلفظ : « الشِّرْكُ فِي أُمَّتي أَخْفَى مِنْ دَبيبِ النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا » ، ومن طريق أبي بكر الصديق رضي الله عنه بلفظ : «الشِّرْكُ فيكم أَخْفَى فِي أُمَّتي مِنْ دَبيبِ النَّمْلِ » .

وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ ؟ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأبي بَكْرٍ رضي الله عنه : « **أَلا أُعَلِّمُكَ كَلِمَةً إِذَا قُلْتَهَا نَجَوْتَ مِنْ دِقِّهِ وَجِلِّهِ ، قُلْ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لا أَعْلَمُ** » (١) .

وكَانَ عُمَرُ يَقُولُ رضي الله عنه في دعائه : « **اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحًا ، وَاجْعَلْهُ لِوَجْهِكَ خَالِصًا ، وَلا تَجْعَلْ لأَحَدٍ فِيهِ شَيْئًا** » (٢) .

---

(١) رواه أحمد عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه وله شاهد عن أبي يعلى من حديث حذيفة رضي الله عنه ، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ .

(٢) وذلك أن المرء قد تتقلب عليه نيته بتقلب قلبه ورغبته وإرادته وأن القلوب لتتقلب تقلبًا كتقلب القدر إذا استجمعت غليانًا فيعمل العبد العمل يظن أن لله وهو لغيره وخاصة أن الشرك أخفى من دبيب النمل .
وهذا الاستغفار ـ وهو أن يستغفر العبد ربه فيما لا يعلم ـ ثابت من غير طريق وهذا يدل على أن الشرك الأصغر يمكن أن يغفر خلافًا لما ذهب إليه شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ من أن الشرك بأنواعه كلها لا يغفر وأن الشرك الأصغر لابد أن يعاقب صاحبه .
والصحيح أن قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ هو في الشرك الأكبر ، وشيخ الإسلام كثيرًا ما يقول بأن الشرك كله لا يُغفر ، أما الأكبر فجزاؤه الخلود في النار ، وأما الأصغر فيدخل صاحبه النار ولا يخلد فيها ، ولو كان كما قال : لما كان هناك معنى لأن يستغفر الإنسان لما لا يعلمه منه وهو صريح في جواز غفران الشرك الأصغر وخاصة أنه كدبيب النمل حيث لا يتفطن إليه إلا الموحدون الكبار .
وطريق التوقي من الشرك والوقوع فيه أن يستحضر عظمة الإيمان في قلبه فيمنعه ذلك أن يعمل لغير الله وإنما يعمل لغير الله عز وجل من استحضر عظمة من يعمل له حيث كان في قلبه عظيمًا .
فلولا أن الرياسة مثلاً عظيمة في نفوس طالبيها لما عملوا لأجلها ولولا أن ثناء الناس وابتغاء الجاه بينهم مما يقصد إليه لما سعوا في تحصيله كما

بيان الشهوة الخفية وخطرها :

قال : وكثيرًا ما يخالطُ النفوسَ الجاهلة من الشهواتِ الخفيَّةِ ما يُفسدُ

يتركون العمل لأجل توافه الأمور عندهم ولا يتنافسون عليها ولا يشعرون بها أصلاً ، فضلاً عن إرادة تحصيلها ، فلو أن الدنيا هانت في القلوب هوان الجدي الأسك وعظمت الآخرة عظمها في نفوس طالبيها لكانت النتيجة الطبيعية الفطرية أن يعمل الإنسان لأجل الشيء العظيم ، وليس في تركيب الإنسان أن يعمل للحقير ويترك الجليل ، فضلاً عن أن يترك الجليل لأجل الحقير ، وإنما يحدث الخلل من فساد التصور الذي يؤدي إلى فساد الإرادة ، ولذلك لما فسد تفكيره الذي يصور له التافه عظيمًا شق عليه أن يفوته كمدح الناس ، ولو أنه أحسن النظر لعلم أنه لا يساوي شيئًا ، وكذا فإنه يشق عليه ذمهم فيفر منه فيؤدي به ذلك إلى عمل العمل وتركه من أجل الناس ، ولو أنه هان عليه مدحهم وذمهم وعلم أن مدح الله هو الزين وأن ذمه هو الشين ، واستحضر ذلك من قلبه فلابد أن يعمل لله عز وجل ، أفليس هو طَلاب المدح الفَرَّار من الذم ؟ ، فأي المدحين أرجى أثرًا ، وأي الذمين أشد خطرًا ؟ .

والعبد يعمل للناس لأنه يراهم قد أعطوه أو منعوه فإذا علم أن الله هو أن الذي يعطي وهو الذي يمنع ولا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ، واستحضر ذلك في قلبه فلن يعمل للناس .

وأيضًا فإن تذكر الجنة والنار رجاءً وخوفًا ومعرفة خطر الرياء وضرره ووجوب الإخلاص واستخلاص همم الترك وعزائم العمل بمقتضى معرفة المنهي عنه والمأمور به مما يعين على حُسن القصد في العمل واخلاصه لله عز وجل .

ويتبع الإخلاص الحب فإنه إذا كان محبًا لله عز وجل وطاعته وما عنده رغب فيما يحب فعمل لأجل محبوبه وهذا من محاسن تلك الشريعة أن العبادات فيها يتلو بعضها بعضًا ويترتب بعضها على بعض ويدل بعضها على بعض ، فأما إذا كان الحب ضعيفًا كان عزمه في أعمال الآخرة بحسبه فيتخلف عن ركب السابقين ثم يحب الدنيا وشهواتها والعمل لأجلها .

عليها تحقيق محبَّتها لله ، وعبوديَّتَها له ، وإخلاصَ دينهَا له ، كَمَا قَالَ شـدَّادُ بن أوس : يَا بَقَايَا الْعَرَب ! يَا بَقَايَا الْعَرَب ! إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيكُمُ الرِّيَاءُ والشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ (١) .

وقِيلَ لأبي داود السجستانيّ :

وما الشَّهْوَةُ الخفيَّةُ ؟ قَالَ : حُبُّ الرئاسةِ (٢) .

---

(١) رواه الطبراني في الكبير وابن عدي وأبو نعيم عن عبد الله بن بديل بن ورقاء عن الزهري عن عباد بن تميم عن عمه مرفوعًا وهو خطأ ، والصحيح ما رواه ابن عيينة وصالح بن كيسان عن الزهري عن محمود بن الربيع عن شداد موقوفًا ، وكذا رواه رجاء بن حيوة عن محمود به موقوفًا وزاد ، قلت له : أبعد الإسلام تخاف علينا الشرك ، قال شداد : ثكلتك أمك يا محمود « أو ما من شرك إلا أن تجعل مع الله إلهًا آخر ؟» رواه أبو نعيم بسند صحيح .
والمعنى : يا نعايا العرب : جئن فهذا وقتكن ، يريد أن العرب قد هلكت وقد كانوا إذا مات منهم شريف بعثوا راكبًا إلى القبائل ينعاه إليهم .

(٢) وصدق رحمه الله ، فإن حب الرياسة يخفي على كثير من النفوس ، وقد يكون ذلك كامنًا فيها ويخفى على أصحابها ، فيظن أنه يعمل لأجل الدين وعلو شأنه وإنما يعمل لعلو شأن نفسه ، والمجتمع المسلم يعظم من يعمل لأجل الدين ويجاهد في سبيل الله ويعظم من يلتزم شرع الله ويعظم من ينفق في سبيل الله ، وكثير من الناس من يعمل ليقال عامل فينفق ليقال جواد ، ويقاتل ليقال جريء ، ويتعلم العلم ويعلمه ليقال عالم ، ويظهر في الناس بتلك المثابة وتخفي على نفسه آفاتها ، فيذهب بهاؤه وينطفيء نوره ويتم خسرانه .
والشهوة الخفية إنما سميت كذلك لأنها تخفى على كثير من الناس أما الشهوات الظاهرة كشهوة النساء وشهوة المال ، فكل الناس يجد ذلك من نفسه لا يخفى عليه إدراكه .

قال : وعن كعب بن مالك رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ أنه قَالَ : « **مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرسِلا في زَرِيْبَةِ غَنَمٍ ، بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِيْنِهِ** » (١) ، قَالَ الترمذيُّ : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ (٢) .

قال : فبيَّنَ ﷺ أنَّ الحرصَ على المالِ والشَّرَفِ في إفسادِ الدِّينِ ، لا ينقص عن إفسادِ الذِّئبَيْنِ الجائعَيْنِ لزريبةِ الغَنَمِ ؛ وذلك بَيِّنٌ ، فإنَّ الدِّينَ السليم لا يكونُ فيه هذا الحرصُ .

وذلك أنَّ القلبَ إذا ذاقَ حلاوَةَ عبوديَّته لله ومحبَّته له ، لم يكن شيءٌ أحبَّ إليه من ذلك حتَّى يقدِّمه عليه ، وبذلك يصرفُ عن أهل الإخلاص لله السُّوءَ والفحشاءَ ، كما قَالَ تَعالَى : ﴿ **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** ﴾ [يوسف : ٢٤] .

فإنَّ المخلصَ لله ذاقَ من حلاوةِ عبوديَّته لله ما يمنعُهُ عن عبوديَّته لغيره ، ومن حلاوةِ محبَّته لله ما يمنعُهُ عن محبَّة غيرِه ؛ إذ ليس عند القلب السليم

---

(١) أخرجه الترمذيُّ في « سُننه » في كتاب الزهد ، عن كعب بن مالك رضي الله عنه الأنصاري ﷺ قالَ : قالَ رسولُ الله ﷺ : « مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلا في غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِيْنِهِ » .
و صحَّح الألبانيُّ رواية الترمذيِّ ، انظر [صحيح سُنن الترمذي ، (رقم ١٩٣٥)] ، وانظر : [صحيح الجامع الصغير رقم (٥٤٩٦)] .

(٢) فيبين هذا الحديث إن إفساد ذئبين جائعين أُرسلا في زريبة غنم يماثله أو يزيد عليه إفساد رغبة المرء وحرصه على المال والشرف والمنزلة عند الناس والرياسة لدينه ، وهذا النوع من العدوان في المشبه والمشبه به عظيم الفساد فكما يحرص صاحب الغنم على رعاية غنمه من الذئاب يجب أن يحرص صاحب النفس على رعاية نفسه من ذئابها .

أحلى ولا ألذَّ ولا أطيبَ ولا ألين ولا أنْعَمَ من حلاوة الإيمان المتضمِّن عبوديَّتَهُ لله ومحبَّتَهُ له ، وإخلاصَهُ الدِّينَ كله له ؛ وذلك يقتضي انجذابَ القلبِ إلى الله ، فيصيرَ القلبُ منيباً إلى الله ، خائفًا منه ، راغبًا راهبًا ، كمَا قَالَ تعالىَ : ﴿ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ﴾ [ق : ٣٣] ، إذ المحبُّ يخافُ من زوالِ مطلوبِه ، أو عدم حصولِ مرغوبِه ، فلا يكون عبدُ اللهِ ومحبُّهُ إلا بين خوف ورَجَاءٍ (١) .

قال : كما قَالَ تعالىَ : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧) ﴾ [الإسراء : ٥٧] (٢) .

قال : وإذا كَانَ العبدُ مخلصًا لله اجتباه ربُّه ، فأحيا قلبَهُ واجتذبَهُ إليه ، فينصرف عنه ما يضادُّ ذلك من السُّوءِ والفحشاءِ ، ويخافُ من حصولِ ضدِّ ذلك ، بخلافِ القلبِ الذي لم يُخلص لله ، فإنَّه في طلبٍ وإرادةٍ وحبٍّ مطلقٍ ، فيهوى كلَّ ما يَسْنَحُ له ، ويتشبث بما يهواه كالغصنِ ، أيَّ نسيمٍ مَرَّ به عَطَفَهُ وأمَالَهُ ، فتارةً تجتذبُهُ الصُّوَرَ المحرَّمةُ ، وغيرُ المحرَّمَةِ ، فيبقى

---

(١) فتذوق حب الله عز وجل وتذوق طعم عبادته يترك به العبد حب السوء والفحشاء ، فإن هذا التذوق وهذه الحلاوة لم تترك في القلب محلاً لأي شهوة ولذلة ، وهذا من تمام الإخلاص .

(٢) والوسيلة هي القربة ، فكل ما يقربهم إلى الله يبتغونه ويحرصون عليه وهذه إشارة إلى مقام المحبة فإن المرء عادة إنما يسعي في تحصيل مراده ولا يترك مراده إلا لمن كان مراده أحب إليه من مراده ، ثم قال : ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ فهذا محب بين خوف ورجاء .

أسيرًا عبدًا لمن لو اتَّخَذَه هو عبدًا له لكان ذلك عيبًا ونقصًا وذمًا (١) .

قال : وتارةً يجتذبُهُ الشَّرَفُ والرئاسةُ فترضيه الكلمةُ ، وتغضبه الكلمةُ (٢) .

قال : ويستعبدُهُ مَنْ يثني عليه ولو بالباطلِ ويُعادي مَنْ يذمُّهُ ولو بالحقِّ ، وتارةً يستعبدُهُ الدِّرهمُ والدينارُ ، وأمثالُ ذلك من الأمورِ التي تستعبدُ القلوبَ ، والقلوبُ تهواها ، فيتخذ إلهه هواه ، ويتَّبعُ هواه بغيرِ هدىً من الله .

ومَنْ لم يكن محبًا مخالصًا لله ، عبدًا له ، قد صار قلبُهُ معبَّدًا لربِّه وحده لا شريكَ له ، بحيث يكون اللهُ أحبَّ إليه من كلِّ ما سواه ، ويكون

---

(١) كمن اتخذ امرأة فاجرة خليلة حتي صارت كل همه وغاية مراده وشأنه ، وهي في الحقيقة بحيث لو كان اتخذها جارية لعد نقصًا ولكان عيبًا ، ولذلك قال العلماء في الجارية تباع وهي تحترف الغناء أن ذلك عيب لابد أن يظهره ، وسئل أحمد عن رجل مات وترك ولدًا وجارية مغنية فاحتاج الصبي إلى بيعها ، فقال : لا تباع على أنها مغنية ، فقيل له أنها تساوي ثلاثين ألف درهم ، ولعلها إذا بيعت ساذجة تساوي عشرين دينارًا ، فقال : لا تباع إلا على أنها ساذجة ، ذكره ابن الجوزي .

(٢) وهي كلمة المدح وكلمة الذم ، فمن مدحه رضى عنه وأرضاه مدحه ، ومن ذمه سخط عليه وأسخطه ذمه ، ولذا تجد ملوك الأرض أقرب الناس إليهم من يمدحهم ويثني عليهم وعلى أعمالهم ،وليس هذا عن أهل الدين ببعيد ، ولذلك ابتدع أهل البدع والضلال بدعهم ، لأن الناس إنما تتقرب إليهم تدينًا ، فإذا أحرزوهم أعجبهم رضاهم بهم وثناؤهم عليهم .

وهذا قد يقع مثله في أهل العلم فترى الواحد منهم إذا لم يكن صادقًا مخلصًا ترضيه الكلمة وتسخطه الكلمة .

ذليلاً له خاضعًا ، وإلا استعبدته الكائناتُ ، واستولت على قلبه الشياطينُ ، وكَانَ من الغاوين إخوان الشياطين ، وصارَ فيه من السُّوءِ والفحشاءِ ما لا يعلمه إلا اللهُ ، وهذا أمرٌ ضروريٌ لا حيلةَ فيه (١) .

قال : فالقلب إن لم يكن حنيفًا مقبلاً على الله معرضًا عمَّا سواه ، كان مشركًا ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢)** ﴾ [الروم : ٣٠ – ٣٢] .

وقَد جَعَلَ اللهُ سبحانه إبراهيمَ وآلَ إبراهيم أئمةً لهؤلاء الحنفاء المخلصين ، أهْلِ محبَّةِ الله وعبادته ، وإخلاصِ الدين له ، كما جَعَلَ فرعونَ وآلَ فرعونَ أئمةَ المشركين المتَّبعين أهواءَهم ، قَالَ تعالىَ في إبراهيم عليه السلام : ﴿ **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣)** ﴾ [الأنبياء : ٧٢ ، ٧٣] .

وقَالَ في فرعونَ وقومه : ﴿ **وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ**

---

(١) **يعني لا يمكن أن تجد القلب وبه من السوء والفحشاء ما لا يعلمه إلا الله ، ثم يقال قلب مخلص أواب منيب ، لأن الله لم يجعل لرجل من قلبين في جوفه فبقدر ما بالقلب من إرادة الكائنات وحب المخلوقات والرغبة في السوء والفحشاء بقدر ما ينقص إخلاصه لله وإرادته الدار الآخرة ، فهذا أمر فطري فإذا لم يكن عبداً مخلصاً لله كانت فيه من إرادة السوء والفحشاء بحسب نقصان عبوديته لله ، وإنما يؤتي المرء من قلة فهمه وفساد تصوره.**

الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) ﴾ [القصص : ٤١ ، ٤٢] .

ولهذا يصيرُ أتباعُ فرعون أولاً إلى أنَّهم لا يميِّزون بين ما يُحبُّه الله ويرضاه ، وبين ما قدَّره اللهُ وقضاه، بل ينظرون إلى المشيئة المطلقة الشاملة ، ثمَّ في آخر الأمرِ لا يميِّزون بين الخالقِ والمخلوقِ بل يجعلون وجودَ هذا وجودَ هذا [١] .

قال : ويقولُ محقِّقُوهم : الشريعةُ فيها طاعةٌ ومعصيةٌ ، والحقيقةُ فيها طاعة بلا معصية ، والتحقيقُ ليس فيه طاعةٌ ولا معصيةٌ ، وهذا التحقيقٌ هو مذهبُ فرعون وقومِه ، الذين أنكروا الخالقَ وأنكروا تكليمَهُ لعبدِه موسى ، وما أرسلَه به من الأمرِ والنَّهي .

وأمَّا إبراهيمُ وآلُ إبراهيم الحنفاءُ من الأنبياءِ والمؤمنين بهم ، هم يعلمون

---

(١) وهذا في أتباع وحدة الوجود يكونون يوم القيامة مثل أتباع فرعون الذي لم يميز بين الخالق والمخلوق ، بل قال ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾ ، فصار هؤلاء أولاً إلى عدم التمييز بين ما يحبه الله ويرضاه وبين ما قدره وقضاه ، بل جعل كل أمر وجد وقدر من قضاء الله هو محبوباً إلى الله ثم في آخر الأمر لا يميز بين الخالق والمخلوق، واستدلوا بقول الله عز وجل ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ قالوا : هذا قضاء الله في العالمين ولا راد لقضائه فكل معبود هو الله كما قال قائلهم :

وما الكلب والخنزير إلا إلهنا　　　وما الله إلا راهب في كنيسة

وقد ذكر ابن تيمية عن بعض الثقات أن بعض كبرائهم دعاه إلى مذهبهم وكشف له حقيقة سرهم فقال له : هذا قول فرعون ، قال : نعم ونحن على قول فرعون ـ تعالى الله عن كفرهم وشركهم علواً كبيراً ـ ولا نزاع أن الآية في القضاء الشرعي أي وصى ربك وأمر شرعًا أن لا تعبدوا إلا إياه .

أنَّه لا بُدَّ من الفرق بين الخالقِ والمخلوق ، ولا بُدَّ من الفرق بين الطاعة والمعصيةِ ، وأنَّ العبدَ كلَّما ازدادَ تحقيقًا لهذا الفرق ، ازدادت محبَّتُه لله وعبوديتُه له ، وطاعتُه له ، وإعراضُه عن عبادَةِ غيرِه ، ومحبَّةِ غيرِه ، وطاعةِ غيرِه .

وهؤلاء المشركون الضَّالُّون يسوُّون بين الله وبين وخلقه ، والخليلُ عليه السلام يقولُ : ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) ﴾ [الشعراء :٧٥– ٧٧]، ويتمسَّكون بالمتشابه من كلامِ المشايخِ كما فعلت النصارى [١] .

تحقيق المراد باسم الفَنَاءِ :

قال : مثالُ ذلك : اسم « الفَنَاءِ » فإنَّ الفَنَاءَ ثلاثةُ أنواع :

الأول : نوعٌ للكاملين من الأنبياء والأولياء .

الثاني : ونوعٌ للقاصدين من الأولياءِ والصالحين .

الثالث : ونوعٌ للمنافقين الملحدين المشبِّهين [٢] .

---

(١) قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ قيل الاستثناء ههنا منقطع ، أي لم يدخل المستثنى «رب العالمين» في المستثنى « وما تعبدون » ويؤيده تبرؤه منهم ومما يعبدون من دون الله ، وقيل بل هو متصل والصحيح الأول ، فالاستثناء منقطع لأن المعروف عن قوم إبراهيم عبادة النجوم والكواكب والأصنام ، دون عبادة الله ، لذلك قال النمرود : ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ فالظاهر أنه كان معطلاً لوجود الله .

(٢) الفناء كلمة صوفية قديمة ابتدعوها وجعلوا مقام الفناء أعلى المقامات وأصحابه ساداتهم وكبراءهم ، ولعل شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ يريد أن يؤلف قلوبهم على الحق فذكر أن الفناء أنواع منها ما هو حق ومنها ما هو

قال : فأما الأولُ :

فهو الفناءُ عن إرادةِ ما سوى اللهِ ، بحيث لا يحبُّ إلا اللهَ ، ولا يعبدُ إلا

باطل ، فالحق منه ما جاء على المعنى الثابت في الكتاب والسُنَّة وهو أن لا تكون له إرادة إلا فيما أحب الله وشرع ويفنى عن حب غير الله حتى ينعدم من قلبه .

وهذا المعنى الحسن الثابت لم يرد بلفظ الفناء لا في كلام النبي ﷺ ولا في كلام أحد من أصحابه ، فهي كلمة مخترعة مبتدعة ولكنه أراد تقريب المعنى الصحيح إليهم ، وهذا هو الفناء عن إرادة السوى وهو أن لا يريد غير الله .

وهناك فناء عن شهود السوى هو أن لا يشهد سوى الله وجعله شيخ الإسلام للقاصدين وفيه نظر واضح ، فإنه ليس مطلوباً أصلاً وهم ينبهون على ملاحة المقصود منه ليروجوه فيقولون أن صاحب هذا المقام من شدة استحضاره لعظمة الله لا يشعر بوجود غيره وإن كان إذا نبهته بوجوده تنبه ولكنه لا يستحضره أبداً ، ونحن لسنا مأمورين بذلك بل هو من النقص لأن الفناء عن شهود النفس نقص ، وذلك أن قول العبد : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيه استحضار ومشاهدة النفس وهي من السوي ، وكذا غيرها مما يعبد من دون الله ، فمشاهدة الخلق دون معرفة الحق باطل ، كما أن معرفة الحق دون مشاهدة الخلق باطل بل هو من محالات العقول وهو من جملة خيالاتهم .

وأن من تمام الفقر إلى الله تمام معرفة العبد بنفسه ، وتمام معرفته بربه ، فمشاهدة عبودية العبد أصل في معرفة ربوبية الرب ، قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) ﴾ ، فمشاهدة عبوديتهم تنفي عنهم مقام الألوهية ، وقال عن المسيح ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ ﴾ ، وغير ذلك .

ولسنا بحاجة إلى ابتداع ألفاظ ومصطلحات تؤدي إلى الخلط

إياه ، ولا يتوكَّلُ إلا عليه ، ولا يطلبُ من غيره ، وهو المعنى الذي يجبُ أن يُقصد بقولِ الشيخ أبي يزيد حيث قَالَ : أريدُ أن لا أريدَ إلا ما يريدُ ، أي : المرادُ المحبوبُ المرضيُّ ،وهو المرادُ بالإرادةِ الدينية،وكمالُ العبد أن لا يريدَ ولا يحبَّ ولا يرضى إلا ما أراده اللهُ ورضيه وأحبَّه ، وهو ما أَمَرَ به أمْرَ إيجابٍ أو استحبابٍ ، ولا يحبَّ إلا ما يحبُّه اللهُ ؛ كالملائكةِ والأنبياءِ والصالحين .

وهذا معنى قولهم في قولِه : ﴿ **إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)** ﴾ [الشعراء : ٨٩] ، قالوا : هو السليمُ ممَّا سوى اللهِ ، أو ممَّا سوى عبادةِ اللهِ ، أو ممَّا سوى إرادةِ اللهِ ، أو ممَّا سوى محبَّةِ اللهِ ، فالمعنى واحدٌ ، وهذا المعنى إن سُمِّيَ فناءً ، أو لم يسمَّ ، هو أولُ الإسلامِ وآخرُهُ ، وباطنُ الدِّينِ ، وظاهرُهُ (١) .

والاضطراب ، فأنت إذا أردت أن تعبر عن كمال المحبة وتجريد القصد قلت الإخلاص ، فإن الله لم يقل : وما أُمروا إلا ليعبدوا الله فانين عن شهود السوي ، وإنما قال : مخلصين له الدين ، وكذلك قال السابقون الأولون ، وقال الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا غير الذي قالوا .

وأما الفناء عن وجود السوي فيقول أصحابه ليس لنا وجود كعبيد وإنما نحن مظهر من مظاهر الإله ، وهذا كما يقوله من يقوله منهم ، كابن عربي ، وابن الفارض ، وابن سبعين ، والقونوي والتلمساني ، وغيرهم ممن طبع الله على قلوبهم ، ولا شك أن من يعتقد وحدة الوجود هو من الكفرة الزنادقة حقًا ، وكفرهم أشد من كفر اليهود والنصارى وعبدة الأوثان .

(١) هذا في الحكاية المشهورة عن أبي يزيد البسطامي ، أنهم قالوا له : ماذا تريد ؟ ، قال : أريد ألا أريد ، فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية : يجب أن يحمل هذا على الإرادة الشرعية ، فيكون المعنى : أريد ألا يكون لي رغبة ولا محبة إلا فيما يحبه الله ويريده شرعًا .

قال : وأما النوعُ الثاني :

فهو الفناءُ عن شهودِ السِّوَى ، وهذا يحصلُ لكثيرٍ من السالكين [(١)] .

قال : فإنَّهم لفرطِ انجذابِ قلوبهم إلى ذِكْرِ الله وعبادته ومحبَّته ، وضعفِ قلوبهم ، عن أن تشهدَ غيرَ ما تعبدُ وترى غيرَ ما تقصدُ ، لا يخطرُ بقلوبهم غيرُ الله ، بل ولا يشعرون به ، كما قيلَ في قوله تعالىَ : ﴿ **وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا** ﴾ [القصص :

ولكن أحداً لا يوقع كلامه على هذا المعني وهو القائل سبحاني سبحاني ما أعظم شاني ، ولكن شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ أراد أن يتلطف إليهم حتى لا ينبذوه بالكلية ، وقد اشتد عليه الحال من الفقهاء والقضاة والصوفية والمتكلمين والعوام ، فلو أنه قال لهم : إن أبا يزيد كان ضالاً لاشتدت عداوتهم له ، فأراد أن يحمل قوله على محامل الشرع ما احتمل ذلك ، ولذلك قال : وهو المعنى الذي يجب أن يقصد بقول الشيخ أبي يزيد : ولم يقل أنه قصد ذلك قطعاً .

فهذا النوع الأول من الفناء عند القوم وفي الشرع هو مقام الإحسان وهو الإخلاص ، أما تسميته بالفناء فبدعة ، وإن كان أمر الاصطلاح أهون البدع .

(١) وهذا في الحقيقة نقص وليس من منازل السالكين بل هو خلل ، وهو أن يفني عن شهود نفسه بزعم استغراقه بالله عز وجل ، وأحسن ما يقال في حال صاحبه أنه مغلوب عليه .

وليس في مجرد حصول الإغماء ونحوه لبعض السلف عند سماع القرآن ما يدل على هذا النوع وأنه يغيب بموجوده عن وجوده وبمشهوده عن شهوده وهو ألا يستحضر وجود نفسه أو غيره في قلبه في أوقات معينة ، وأما السكر والفناء والجنون فالوصول إلى مثل هذا ليس من مراتب المقتصدين بل المقصرين .

١٠] ، قالوا : فَارِغًا من كلِّ شيءٍ إلا من ذِكْرِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وهذا كثيراً ما يعرِضُ لمنْ دَهَمَهُ أمرٌ من الأمورِ ، إمَّا حُبٌّ ، وإمَّا خوفٌ ، وإمَّا رجاءٌ ، يبقى قلبُهُ منصرِفًا عن كلِّ شيءٍ ، إلا عمَّا قد أحبَّه أو خافَهُ أو طَلَبَهُ ؛ بحيث يكون عند استغراقِهِ في ذلك لا يشعرُ بغيرِهِ ، فإذا قَوِيَ على صاحبِ الفناءِ هذا فإنَّه يغيبُ بموجودِهِ عن وجودِهِ ، وبمشهودِهِ عن شهودِهِ ، وبمذكورِهِ عن ذكرِهِ ، وبمعروفِهِ عن معرفتِهِ ، حتَّى يفنى مَنْ لم يكن – وهو المخلوقاتُ المعبَّدَةُ ممَّنْ سواه – ويبقى مَنْ لم يزل – وهو الرَّبُّ تعالى ، والمرادُ فناؤُها في شهودِ العبدِ وذكرِهِ ، وفناؤُه عن أن يُدرِكَها أو يشهدَها وإذا قَوِيَ هذا ضَعُفَ المحبُّ حتَّى يضطربَ في تمييزه ، فقد يظنُّ أنَّه هو محبوبُهُ ، كما يُذكرُ أنَّ رجلاً ألقى نفسَهُ في اليمِّ فألقى محبُّه نفسَه خَلفَهُ ، فقَالَ : أنا وقعتُ ، فما أوقعَكَ خلفي؟ ،قال : غِبْتُ بك عنِّي ، فظننتُ أنَّك أنِّي .

وهذا الموضعُ زَلَّ فيه أقوامٌ ، وظنُّوا أنَّه اتحادٌ ، وأنَّ المحبَّ يتَّحدُ بالمحبوبِ حتَّى لا يكون بينهما فرقٌ في نَفْسِ وجودِهما ، وهذا ضلال بعيد ، فإنَّ الخالِق ، لا يتَّحدُ به شيءٌ أصلاً ، لأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، وهو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يُلد ولم يكن له كفواً أحد ، بل لا يمكنُ أن يتَّحدَ شيءٌ بشيءٍ إلا إذا استحالا وفسدَتْ حقيقةُ كلٍّ منهما ، وحَصَلَ من اتحادهما أمرٌ ثالثٌ ، لا هو هذا ولا هذا ، كما إذا اتَّحَدَ الماءُ واللَّبَنُ ، والماءُ والخمرُ ، ونحو ذلك ، ولكن يتَّحدُ المرادُ والمحبوبُ ، والمرادُ والمكروهُ ، ويتَّفقان في نوعِ الإرادةِ والكراهة ، فيحبُّ هذا ما يحبُّ هذا، ويبغضُ هذا ما يبغضُ هذا ، ويرضى ما يرضَى، ويسخطُ ما يسخطُ ، ويكرهُ ما يكرهُ ، ويوالي مَنْ يوالي ، ويعادي مَنْ يعادي ، وهذا الفَنَاءُ كلُّه

فيه نَقْصٌ .

وأكابرُ الأولياءِ ، كأبي بكرٍ وعمر ، والسابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصارِ ، لم يَقَعُوا في هذا الفناءِ ، فضلاً عَمَّنْ هو فوقهم من الأنبياءِ .

وإنَّما وَقَعَ شيءٌ من هذا بعد الصحابة [١] – وكذلك كلُّ ما كان من هذا النَّمَط مِمَّا فيه غَيْبَةُ العقلِ ، وعدمُ التمييز لما يَرِدُ على القلبِ من الأحوالِ – فإنَّ الصحابةَ رضي الله عنهم كانوا أكملَ وأقوى عقولاً ، وأثبتَ في الأحوالِ الإيمانية من أن تغيبَ عقولُهم، أو يحصلَ لهم غَشْيٌ، أو صَعقٌ ، أو سُكْرٌ، أو فَنَاءٌ ، أو وَلَهٌ ، أو جنونٌ .

وإنَّما كان مبادئُ هذه الأمورِ في التابعين من عُبَّادِ البصرةِ ، فإنَّه كان فيهم مَنْ يُغشى عليه إذا سَمِعَ القرآنَ ، ومنهم مَنْ يموتُ ؛ كأبي جهيرٍ الضَّريرِ ، وزُرَارَةَ بن أبي أَوْفَى قاضي البصرة .

وكذلك صارَ في شيوخِ الصوفيَّةِ مَنْ يعرِضُ له من الفناءِ والسُّكْرِ ما يَضْعُفُ معه تمييزُهُ ، حتَّى يقولَ في تلك الحال من الأقوالِ ما إذا صَحَا عَرَفَ أنَّه غالطٌ فيه ، كما يُحكى نحو ذلك عن مثلِ أبي يزيد ، وأبي الحسن

(١) وهذا من ضعف الأدراك وليس من رقة القلب لأنه لو كان من رقة القلب لوقع لأرق الناس قلوبًا وأرهفهم شعورًا وأعرفهم بالله ، وأما القول بأنه جن من ذكر الله ونحو ذلك ، فليس مما ورد وصفًا للمتقين ، وإنما ورد أنهم يتفكرون ويتذكرون ويعقلون وأنهم أولوا الألباب وليس المجانين والسكرى والصعقى والمغشى عليهم ، بل هم الموصوفون بأنهم أصحاب العقول وأولوا الأحلام والنهى وأن غيرهم القوم الذين لا يعقلون فإنه لا يمكن بسبب الأحوال الإيمانية أن تُسلب عقولهم ولا يمكن لمن عداهم أن يدركوهم فضلاً عن أن يسبقوهم .

النوري ، وأبي بكر الشبلي ، وأمثالِهم ، بخلاف أبي سليمان الداراني ، ومعروف الكرخي ، والفضيل بن عياض ، بل وبخلاف الجنيد وأمثالِهم ، ممَنْ كانت عقولُهم وتمييزُهُم يصحبُهُم في أحوالِهم ، فلا يَقَعُونَ في مثلِ هذا الفناءِ والسُّكْرِ ونحوِه ، بل الكُمَّلُ – من المؤمنين الذين لا يهتدون إلا بهَدْيِ الكتابِ والسُّنَّة – لا يكون في قلوبِهم سوى محبَّةِ الله وإرادته وعبادتِه ؛ لأنَّ عندهم من سَعَةِ العلمِ والتمييز ما يشهدون به الأمورَ على ما هي عليه ، بل يشهدون المخلوقاتِ قائمةً بأمرِ الله ، مدبَّرَةً بمشيئته ، بل مستجيبةً له ، قانتةً له ؛ فيكون لهم فيها تبصرةٌ وذكْرَى ، ويكون ما يشهدونه من ذلك مؤيِّداً ومُمِداً لما في قلوبِهم من إخلاصِ الدِّينِ ، وتجريدِ التوحيدِ له ، والعبادة له وحده لا شريك له .

وهذه هي الحقيقةُ التي دعا إليها القرآنُ ، وقَامَ بها أهلُ تحقيقِ الإيمان ، والكُمَّلُ من أهلِ العرفانِ ، ونبيُّنَا ﷺ إمامُ هؤلاء وأكملُهم ، ولهذا لَمَّا عُرِجَ به إلى السمواتِ وعَايَنَ ما هنالك من الآيات ، وأوحيَ إليه ربه ما أُوحيَ من أنواعِ المناجاةِ ، أصبحَ فيهم وهو لم يتغيَّر حالُه ، ولا ظهرَ عليه ذلك ، بخلافِ ما كان يظهرُ على موسى عليه السلام من التَّغَشِّي صلى الله عليهم وسلم أجمعين [١] .

(١) إنما صعق موسى عليه السلام لما اندك الجبل وليس عندما كلمه الله عز وجل وشرفه ربه بالأحوال الإيمانية ولذلك يقال إن صعقه عليه السلام هو حال طارئ لأن شدة انهيار الجبل هو الذي تسبب في صعقه وإلا فموسى عليه السلام لم يزل يكلم الله ويناجيه دون أن يصعق وتلك هي المنازل العالية بل هي من أعلاها وأشرفها فمن الخطأ أن يجعل الغشى الذي حصل لموسى عليه السلام من السكر أو الوله أو الفناء أو الجنون فإن تلك أحوال ناقصة ولا يمكن أن تكون سبباً للأحوال الإيمانية أو أن تشبها من وجه أو أن تكون سببها الأحوال

وأما النوعُ الثالثُ مما قد يُسمى فناءً :

فهو أن يشهدَ أن لا موجود إلا الله ، وأنَّ وجودَ الخالقِ هو وجودُ المخلوقِ، فلا فرقَ بين الربِّ والعبدِ ، فهذا فناءُ أهلِ الكفر الضَّلالِ والإلحادِ ، الواقعين في الحلولِ والاتحادِ . وهذا يبرأ منه المشايخ .

والمشايخُ المستقيمون على هدي الكتاب والسُّنَّة كالصحابة والأئمة المهتدين فإنهم إذا قَالَ أحدُهُم : ما أرىَ غيرَ الله، أو : لا أنظرُ إلى غيرِ الله ، ونحو ذلك ، فمرادُهُم بذلك : ما أرى ربًا غيرَهُ ، ولا خالقًا غيرَهُ ، ولا مُدبِّرًا غيرَهُ،ولا إلهًا لي غَيْرَهُ،ولا أنظرُ إلى غيرِه محبَّةً له أو خوفًا منه أو رجاءً له ؛ فإنَّ العينَ تنظرُ إلى ما يتعلَّقُ به القلبُ ، فمَنْ أحبَّ شيئًا ، أو رَجَاهُ ، أو خَافَهُ التفتَ إليه ، وإذا لم يكن في القلبِ محبَّةٌ له ، ولا رجاءٌ له ، ولا خوفٌ منه ، ولا بُغضٌ له ، ولا غيرُ ذلك من تعلُّقِ القلبِ له ، لم يقصد القلبُ أن يلتفتَ إليه ، ولا أن ينظرَ إليه ، ولا أن يراه ، وإن رآه اتفاقًا رؤيةً مجردةً ، كان كما لو رأى حائطًا ونحوهُ مِمَّا ليس في قلبه تعلُّقٌ به .

والمشايخُ والصالحون – رحمهم الله – يذكرون شيئًا من تجريد التوحيد وتحقيقِ إخلاصِ الدِّين كُلِّه ، بحيث لا يكون العبدُ ملتفتًا إلى غيرِ اللهِ ، ولا

الإيمانية . وقد روى ابن الجوزي في تلبيس إبليس بسند حسن عن أبي حازم قال : مر ابن عمر رضي الله عنه برجل ساقط من العراق فقال : ما شأنه فقالوا : إذا قرئ عليه القرآن يصيبه هذا ، قال : إنا لنخشى الله عز وجل وما نسقط .

وعن ابن سيرين أنه سئل عمن يستمع القرآن فيصعق فقال ميعاد ما بيننا وبينهم أن يجلسوا على حائط فيقرأ عليهم القرآن من أوله إلى آخره فإن سقطوا فهم كما يقولون وكان ـ رحمه الله ـ يذهب إلى أن هذا تصنع وليس بحق من قلوبهم .

ناظرًا إلى ما سواه ، لا حُبًّا له ، ولا خوفًا منه ، ولا رجاءً له ، بل يكون القلبُ فارغًا من المخلوقات ، خاليًا منها ، لا ينظرُ إليها إلا بنور الله [١] ، فبالحقِّ يسمعُ ، وبالحقِّ يُبصرُ ، وبالحقِّ يبطشُ ، وبالحقِّ يمشي ، فيحبَّ منها ما يُحبُّه اللهُ ، ويُبغض منها ما يبغضُه اللهُ ، ويوالي منها ما والاه اللهُ ، ويعادي منها ما عاداه اللهُ [٢] ، ويخافُ اللهَ فيها ، ولا يخافُها في اللهِ ، ويرجو اللهَ فيها ، ولا يرجوها في اللهِ [٣] .

فهذا هو القلبُ السليمُ الحنيفُ الموحِّدُ المسلمُ المؤمنُ المحقِّقُ العارفُ بمعرفةِ الأنبياءِ والمرسلين وبحقيقتهم وتوحيدهم . فهذا النوعُ الثالثُ - الذي هو الفناءُ في الموجودِ - هو تحقيقُ آلِ فرعون ومعرفتهم وتوحيدُهُم ، كالقرامطةِ وأمثالِهم من كل من يدين بوحدة الوجود الذي نطق عنهم الحلاج وابن عربي وابن الفارض وابن سبعين والتلمساني [٤] .

---

(١) أي ينظر إلى ما حوله من المخلوقات من خلال شرع الله ، والذي هو نوره في قلوب المؤمنين .

(٢) كثيراً ما يكرر - رحمه الله - ذكر قضية الحب والبغض والولاء والبراء وذلك لأنها من أعظم قضايا الاعتقاد أهمية حتى يكون المرء مؤمناً بالله حقًا ، ولذلك تجد أعداء الإسلام مهتمين بها جداً ، فإنهم لا يضرهم أن تعتقد ما تعتقد ولا يختلف عندهم حال اثنين أحدهما يصلي للقبور ويعبد الضريح والآخر ينكر ذلك عليه ما دام الجميع يدين الولاء لهم والانقياد لأمرهم .

(٣) أي يخاف الله في معاملة المخلوقات ولا تأخذه في الله لومة لائم ، ويرجو الله فيها فإذا عمل عملاً فإنه لا يعمله إلا لله ولا يرجو شيئًا من هذه المخلوقات فإذا وقع في كلام بعض الصالحين أنه لا يرى غير الله ، فإن ذلك لا يعني وحدة الوجود ولكنه لا يرى غير الله معبوداً محبوباً .

(٤) فإن فرعون قال : « أنا ربكم الأعلى » فمن قال بوحدة الوجود وأن كل شيء هو الرب أشبه فرعون من هذا الجانب .

وأمَّا النوع الذي عليه اتباعُ الأنبياء فهو الفَنَاءُ المحمودُ ، الذي يكون صاحبُهُ به ممَّن أثنى اللهُ عليهم من أوليائه المتَّقين ، وحزبه المفلحين ، وجنده الغالبين .

وليس مُرادُ المشايخِ والصالحين بهذا القولِ أنَّ الذي أراه بعيني من المخلوقاتِ هو ربُّ الأرضِ والسمواتِ ، فإنَّ هذا لا يقولُه إلا مَنْ هو في غايةِ الضلالِ والفسادِ : إمَّا فسادُ العقل ، وإمَّا فسادُ الاعتقادِ ، فهو متردِّدٌ بين الجنونِ والإلحادِ .

وكلُّ المشايخ الذين يُقتدى بهم في الدِّينِ متَّفقون على ما اتفقَ عليه سَلَفُ الأمَّة وأئمَّتُهَا من أنَّ الخالقَ سبحانه مباينٌ للمخلوقاتِ [(١)] ، وليس في مخلوقاته شيء من ذاته ، ولا في ذاته شيءٌ من مخلوقاته ، وأنَّه يجبُ إفرادُ القديم عن الحادثِ ، وتمييزُ الخالقِ عن المخلوقِ ، وهذا في كلامهم أكثرُ

---

(١) **لأن الله فوق عرشه بائن من خلقه فالفوقية تعني أن وجوده منفصل عن وجود مخلوقاته فلا اشتراك بين وجود الخالق والمخلوق ، وهذه القضية سبب هلاك اليهود والنصارى والملحدين والمبتدعين فإن معظم الملل الكفرية تشتبه عليهم مسألة حلول الخالق في المخلوق واتحاده به ، وهذا تجده كثيراً عند الفراعنة والهنود واليونانيين واليابانيين .**

ولذلك اهتم السلف بمسألة الفوقية على ما جاء به الشرع الحنيف لا كما يقول الكافرون أنه موجود في كل مكان وفي كل الوجود ، وإنما الحق أنه يدل على قدرته كل موجود وتشهد بوحدانيته كل المخلوقات ، ولا يخلو من علمه مكان ، يعلم كل شيء وهو على كل شيء قدير .

وجعلوا يضربون لله الأمثال يثبتون بها حلول الله في خلقه كما يشبهونه بوجود السمن في اللبن والملح في الماء فإن هذا هو الحلول ، وأين هذا الضلال من قول أهل الإيمان بأنه على عرشه فوق سماواته ، وعند

من أن يمكنَ ذكرُهُ هنا .

وهم قد تكلَّموا على ما يعرِضُ للقلوبِ من الأمراضِ والشُّبُهَاتِ ، فإنَّ بعضَ النَّاسِ قد يشهدُ وجودَ المخلوقاتِ ، فيظنُّه خَالقَ الأرضِ والسموات

النصارى العشاء الرباني وهو أن يأكلوا خبزاً وخمراً فيتحول الخبز في أجسادهم إلى جسد المسيح ويتحول الخمر إلى دمه وبالتالي يمتزجون بالمسيح الذي هو الله عندهم .
وعند البراهمة لا يزال الواحد منهم يترقى في سلسلة من تناسخ الأرواح حتى يستقر في الروح العالية السامية « البراهما » . وفي كتب الهندوس : أن من يرى الأشياء رؤية الحكيم يرى أن براهما المقدس والبقرة والفيل والكلب النجس والمنبوذ وهو يلتهم لحم الكلب كلها كائن واحد ، ويقول كهنتهم : لكل كائن حي روح وهذه الروح تأتي من براهما روح العالم وبراهما لا يموت قط ، وهكذا فإن روح الكائنات الحية التي تأتي من روح العالم لا تموت قط .
ويقول لوثر « من النصارى » : الله يهبني روحه حتى أستطيع أن أقاوم وأغلب خدام الباطل والضلال .
ويقول بعض طواغيت الهند : أليس المنبوذ مثلنا في لحمه ودمه ، ومن أي طبقة عسى أن يكون الإله الذي يحل جسد منبوذ .
وفي عقيدتهم التي يؤمنون بها : يقول براهما : أنا أقوى من السماء وأعظم من الأرض وأرفع من كل هذه الأجرام والكواكب حولي أنا أعلى من جميع هذه الأشياء أنا الكل في الكل أفعل ما أريد وأخلق كل ما يخطر لي أنا جوهر هذا العالم الواحد الشامل أحتوي كل شيء وأكمن في كل شيء لا تدركني الحواس لأني أنا حقيقة الحقيقة . فما أشبه هذا الكلام بكلام هؤلاء الصوفية وقد ذكروا أن الحلاج كان نزل بالهند وهو من أشهر من يقول بالحلول ، ويزعم أتباع بوذا أنه روح الله كان حاضراً فيه وهو الإله العظيم وهو روح القدس إلى هذيانات يضيع الزمان بذكرها .

– لعدمِ التمييزِ والفرقانِ في قلبه – بمنزلةِ مَنْ رأى شعاعَ الشمسِ فظنَّ أنَّ ذلك هو الشمسُ التي في السماءِ (١) .

بيان حقيقة كلامهم في « الفَرْقِ » والجَمْعِ » :

وهم قد يتكلَّمون في « الفَـرْقِ » والجَـمْعِ » (٢) ويدخلُ في ذلك من العباراتِ المختلفةِ نظيرُ ما دَخَلَ في الفَنَاءِ .

فإنَّ العبدَ إذا شَهِدَ التفرقةَ والكثرةَ في المخلوقات ، يبقى قلبُهُ متعلِّقًا بها مشتَّتًا ناظرًا إليها ، وتعلُّقُه بها ، إمَّا محبةٌ ، وإمَّا خوفًا ، وإمَّا رجاءً ، فإذا انتقلَ إلى الجمعِ اجتمعَ قلبُهُ على توحيدِ اللهِ وعبادتِهِ وحده لا شريك له ،

---

(١) بل هذا أبعد لأن شعاع الشمس خرج من ذاتها وأما المخلوقات فقد خلقها الله من العدم لا من ذاته سبحانه ، وليس شعاع الشمس هو ذاتها ، بل هو آثر من آثارها .

(٢) الفرق هو التفرقة بين الخالق والمخلوق والجمع إلا ينظر إلا إلى شيء واحد ، وقد يقصدون به أن الكون بمجموعة شيء واحد وهو الله وهو كفر ، وقد يقصدون من أنه بكل اختلافاته قد صدر عن إرادة واحدة هي إرادة خالقه ، والفرق الشرعي هو التمييز بين الخالق والمخلوق والطيب والخبيث والحلال والحرام وهو الذي تدل عليه العبادة التي تقتضي معرفة العبد بنفسه ومعرفته بربه ، والجمع الشرعي هو أن تشهد أن الكون كله مدبر بأمره تعالى ، وكل الأشياء صادرة عن شيء واحد وهو إرادة الله ، ولا يكون إلا ما يريد ومن هنا كانت استعانة المؤمن بالله وحده لأنه يرى أن كل شيء إليه سبحانه بقدرته ومشيئته ، فالاستعانة في قوله ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ بشهود الجمع فإنا لا نستطيع أن نعبده إلا بمعونته ، فهذا شهود الكون كله بأمره سبحانه ومشيئته وأنه أضل من أضل بعلمه وقدرته ، وهدى من هدى بفضله ومنته ، أما القوم فالفرق عندهم أن لا يزال العبد مميزًا ، والجمع أن تسمو به معرفته حتى لا يرى إلا شيئًا واحدًا .

فالتفتَ قلبُهُ إلى اللهِ ، بعد التفاته إلى المخلوقين ، فصارت محبَّتُهُ إلى لربِّه وخوفُه من ربِّه ، ورجاؤه لربِّه ، واستعانَتُهُ بربِّه وهو في هذا الحالِ قد لا يَسَعَ قلبُهُ النظرَ إلى المخلوقِ ليفرِّقَ بين الخالقِ والمخلوق ، فقد يكونُ مجتمعًا على الحقِّ معرضًا عن الْخَلْقِ ، نظرًا وقصدًا ، وهو نظيرُ النوعِ الثاني من الفناءِ .

ولكن ، بعد ذلك « الفرق الثاني » ، وهو أن يشهدَ أنَّ المخلوقات قائمةٌ باللهِ مدبرة بأمره ، ويشهدَ كثرتَهَا معدومةً بوحدانية الله سبحانه وتعالى ، وأنَّه سبحانه ربُّ المصنوعاتِ وإلَـهُهَا ، وخَالقُهَا ومالكُهَا ، فيكون – مع اجتماع قلبه على اللهِ إخلاصًا ومحبَّةً وخوفًا ورجاءً واستعانةً وتوكُّلاً على اللهِ وموالاةً فيه ، ومعاداةً فيه وأمثال ذلك – ناظرًا إلى الفَرْقِ بين الخالقِ والمخلوقِ ، مُمَيِّزًا بين هذا وهذا ، يشهدُ تَفَرُّقَ المخلوقاتِ وكثرتَهَا مع شهادته أنَّ اللهَ ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُهُ وخالقُهُ ، وأنَّه هو اللهُ لا إله إلا هو .

وهذا هو الشُّهُودُ الصحيحُ المستقيمُ ، وذلك واجبٌ في علمِ القلبِ وشهادتهِ وذكرِهِ ومعرفتهِ ، وفي حالِ القلبِ وعبادتهِ ، وقَصْدِهِ وإرادتهِ ، ومحبَّتهِ وموالاتهِ وطاعتهِ وذلك تحقيقُ شهادةِ أن لا إله إلا الله ، فإنَّها تنفي عن القلب ألوهيةَ ما سوى الحقِّ وتثبت في قلبهِ ألوهيَّةَ الحقِّ .

فيكون نافيًا لألوهيَّةِ كلِّ شيءٍ من المخلوقاتِ ، مثبتًا لألوهيِّةِ رَبِّ العالمين ربِّ الأرضِ والسمواتِ ، وذلك يتضمَّنُ اجتماعَ القلبِ على اللهِ ، وعلى مفارقةِ ما سواه ، فيكون مفرِّقًا في علمهِ وقصدهِ ، في شهادتهِ وإرادتهِ ، في معرفتهِ ومحبَّتهِ بين الخالقِ والمخلوقِ [1] ، بحيث يكون عالـمًا باللهِ تعالى ،

---

(١) فلابد أن يشهد الفرق في علمه بالله وعلمه بالمخلوقين ، وكذا في قصده بعمله ربه لا يقصد به أحدا من خلقه ولا يتم اخلاصه العمل لله حتى يشهد

ذاكرًا له ، عارفًا به ، وهو مع ذلك عالمٌ بمُبَايَنَته لخلقه ، وانفراده عنهم ، وتوحُّده دونهم ، ويكون محبًّا لله ، مُعَظِّمًا له ، عابدًا له ، راجيًا له ، خائفًا منه ، محبًا فيه مواليًا فيه ، معاديًا فيه ، مستعينًا به ، متوكّلاً عليه ، ممتنعًا عن عبادة غيره ، والتوكُّلِ عليه، والاستعانة به ، والخوف منه ، والرجاء له ، والموالاة فيه ، والمعاداة فيه ، والطاعة لأمره ، وأمثال ذلك ممَّا هو من خصائص إلهيَّة الله سبحانه وتعالى .

وإقرارُهُ بألوهيَّة الله تعالى دون ما سواه ، يتضمَّنُ إقرارَهُ بربوبيته (١) ، وهو أنَّه ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُهُ وخالقُهُ ومدبِّرُهُ ، فحينئذٍ يكون موحِّدًا لله .

السبب في كون [لا إله إلا الله] أفضل الذِّكْر :

وذلك يبيِّنُ ذلك أنَّ أفضلَ الذِّكْرِ [**لا إله إلا الله**] كما رواه الترمذيُّ ، وابن أبي الدنيا ، وغيرهُما مرفوعًا إلى النَّبيِّ ﷺ أنَّه قالَ : «**أفْضَلُ الذِّكْرِ : لا إلَهَ إلا اللهُ ، وأَفْضَلُ الدُّعَاء : الْحَمْدُ لله** » (٢) .

وفي الْموطَّأ وغيره ، عن طَلْحَةَ بن عُبَيْد الله بن كَرِيزٍ ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ : « **أفْضَلُ مَا قُلْتُ أنَا والنَّبيُّون من قَبْلي : لا إله إلا الله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ** » (٣) .

هذا الفرقان ، وفي شهادته فيشهد أن لا إله إلا الله وأن ما سواه مربوب له مخلوق له ، وكذا في إرادته وفي معرفته لربه ومعرفة أسمائه وصفاته وما يجب في حقه من المحبة والتعظيم ويفرق في ذلك كله بين الخالق والمخلوق .

(١) فإنه لن يعبد إلهًا لا يصلح أن يكون ربًا لابد أن يكون الخالق هو الذي يُعبد إما أن يعبد من لا يخلق فهذا باطل .

(٢) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث جابرٍ رضي الله عنه وحسنه الألباني .

(٣) طلحة بن عبيد الله بن كريز ، وهو تابعي من رجال مسلم ، والحديث حسَّنه الألباني ، وشواهده « الصحيحة» حديث رقم (١٥٠٣) .

خطأ مَنْ قال بالذِّكْر بالاسم المفرد :

وَمَنْ زَعَمَ أنَّ هذا ذِكْرُ العامَّة ، وأنَّ ذِكْرَ الخاصَّة هو الاسمُ المفردُ ، وذِكْرُ خاصَّة الخاصَّة « هـو » الاسمُ المضمرُ (١) ، فهو ضالٌّ مُضل ، واحتجاجُ بعضهم على ذلك بقوله : ﴿ **قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ** ﴾ [الأنعام : ٩١] ، من أبينِ غَلَطِ هؤلاء ، بل من تحريفهم للكلم عن مواضعه ؛ فإنَّ الاسمَ « الله » مذكورٌ في الأمر بجواب الاستفهام وهو قولُه : ﴿ **قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ** ﴾ [الأنعام : ٩١] ، أي : اللهُ الذي أنزلَ الكتابَ الذي جاء به موسى عليه السلام ، فالاسمُ

---

(١) والصوفية كلهم مجمعون على ذلك ، وقد ذكر الأستاذ / سعيد حوى في كتابه « تربيتنا الروحية » : أن الصوفية مجمعون على أن أقصر الطرق في الذكر هو الذكر باللفظ المفرد .
وعندهم أن « هو » أعلى شأنًا وأعظم أثرًا وأن القلب بها أعظم فرحًا وإليها أشد اشتياقًا ، فإذا أردتهم على التلفظ « بلا إله إلا الله » قالوا : نخاف أن نموت بين النفي والإثبات ، وإنما توحيدهم أن يقولوا : الله ... الله ... يرددونها ويزعمون أن فيها الغُنية والقلب عامر بالإيمان وفي قياسهم يجب هجر كثير من القرآن ، فإنك إذا تلوت آية الكرسي ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ والتي هي أعظم آية في كتاب الله أعرضوا وقالوا : نخاف أن نموت بين النفي والإثبات .
ولو كان النبي ﷺ أمر الناس بأن يقولوا : « الله » لما عارضه معارض ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ وإنما المحنة في نفي الألوهية عما سوى الله حيث قالوا ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ ،ولقد قال النبي ﷺ لعمه وهو في الموت : « قل لا إله إلا الله .. » والإفاضة في ذكر الدلائل في هذا الباب مما يطول ذكره .

« اللهُ » مبتدأ وخبرُهُ دلَّ عليه الاستفهامُ ، كما في نظائرِ ذلك ، تقولُ : مَنْ جارُك ، فيقولُ : زيدٌ .

وأمَّا الاسمُ المفردُ مُظْهَرًا أو مُضمرًا ، فليس بكلامٍ تامٍّ ، ولا جملةٍ مفيدةٍ ، ولا يتعلَّقُ به إيمانٌ ولا كفرٌ ، ولا أمرٌ ولا نهيٌ (١) .

---

(١) قال العلامة ابن القيم - رحمه الله - : « رتَّبَ بعضهم على قوله تعالى ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ [الأنعام : ٩١] ، أنَّ الذِّكرَ بالاسم المُفْرد ، وهو « الله ، الله » أفضلُ من الذِّكْرِ بالجملة المركَّبة كقوله : « سبحان الله ، والحمدُ لله ، ولا إله إلا الله ، واللهُ أكبر » ، وهذا فاسدٌ مبنيٌّ على فاسد ، فإنَّ الذِّكْرَ بالاسم المفردِ غيرُ مشروعٍ أصلاً ، ولا مفيد شيئًا ، ولا هو كلامٌ أصلاً ، ولا يدلُّ على مدحٍ ولا تعظيمٍ ، ولا يتعلَّقُ به إيمانُ ، ولا ثوابٌ ، ولا يدخلُ به الذاكرُ في عَقْدِ الإسلامِ جملةً ، فلو قال الكافرُ : « الله ، الله » من أول عمره إلى آخره لم يصر بذلك مسلمًا ، فضلاً عن أن يكون من جملة الذِّكرِ أو يكونَ أفضلَ الأذكار ، وبالغ بعضهم في ذلك حتى قال : الذِّكْرُ بالاسم المضمرِ أفضلُ من الذِّكرِ بالاسم الظاهر ؛ فالذِّكرُ بقوله : « هو ، هو » أفضلُ من الذكر بقولهم : « الله ، الله » وكلُّ هذا من أنواعِ الهوسِ والخيالات الباطلَة المفضية بأهلها إلى أنواعٍ من الضلالات ، فهذا فسادُ هذا البناء الهائرِ ، وأمَّا فسادُ المبنيِّ عليه ، فإنَّهم ظنُّوا أنَّ قولَه تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ أي : قل هذا الاسم ، فقل : الله ، الله ، وهذا من عدم فهم القوم لكتاب الله ، فإنَّ اسمَ الله هنا جوابٌ لقوله : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ [الأنعام : ٩١] ، إلى أن قال : ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ ، أي قل : الله أنزله ، فإنَّ السؤالَ معادٌ في الجوابِ فيتضمَّنُه فيُحْذَفُ اختصاراً ، كما يقولُ : مَنْ خلَقَ السَّمَوات والأرضَ ؟ ، فيُقال : اللهُ ، أي : اللهُ خلَقها ، فيُحذف الفعلُ لدلالة السؤالِ عليه ، فهذا معنى الآية الذي لا تحتملُ غيره » [طريق الهجرتين (ص ٣١٦)] .

ولم يَذكر ذلك أحدٌ من سَلَف الأمَّة ، ولا شَرَعَ ذلك رسولُ الله ﷺ ، ولا يُعطي القلبَ بنفسه معرفةً مفيدةً ، ولا حالاً نافعًا ، وإنَّما يعطيه تصوُّرًا مطلقًا لا يُحكم عليه بنفي ولا إثباتٍ ، فإن لم يقترن به من معرفة القلب وحاله ، ما يفيدُ بنفسه ، وإلا لم يكن فيه فائدةٌ والشريعةُ إنَّما تشرعُ من الأذكارِ ما يفيدُ بنفسه ، لا ما تكون الفائدةُ حاصلةً بغيره ، وقد وقعَ بعضُ مَنْ وَاظَبَ على هذا الذِّكْرِ بالاسم المفرد و بـ « هو » في فنونِ من الإلحادِ ، وأنواعِ من الاتحادِ ، كما قد بُسِطَ في غير هذا الموضع .

وما يُذكَرُ عن بعضِ الشيوخِ من أنّه قَالَ :

أخافُ أن أموتَ بين النفي والإثباتِ ، حالٌ لا يُقتدى فيها بصاحبِهَا ؛ فإنَّ في ذلك من الغَلَطِ ما لا خفَاءَ به ؛ إذا لو مَاتَ العبدُ في هذه الحال لم يمتْ إلا على ما قَصَدَهُ وَنَواهُ ؛ إذ الأعمالُ بالنيِّات ، وقد ثبتَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ أمَرَ بتَلْقِينِ الْمَيِّت [**لا إله إلا الله**] [(١)] ، وقَالَ : « **مَنْ كَانَ آخر كلامه لا إلَهَ إلا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ** » [(٢)] ، ولو كان ما ذكره محذورًا ، لم يُلَقَّن الميِّتَ كلمةً يُخاف أن يموتَ في أثنائها موتًا غير محمودٍ ، بل كان يُلَقَّنُ ما اختاره من ذِكْرِ الاسمِ المفردِ .

بيان حكم الذِّكْرِ بالاسم المضمر المفرد :

والذِّكْرُ بالاسمِ المُضْمَرِ المفرَد أبعدُ عن السُنَّة وأدْخَلُ في البدعةِ ، وأقربُ إلى إضلالِ الشيطانِ ؛ فإنَّ مَنْ قَالَ : يا هو يا هو ، أو : هو هو ،

---

(١) **قال رسول الله ﷺ : « لَقِّنُوا مَوْتَاكمْ لا إلَهَ إلا اللهُ » رواه مسلم وأصحاب السُنن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .**

(٢) **صحيح رواه أبو داود وأحمد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه .**

ونحو ذلك ، لم يكن الضميرُ عائدًا إلا إلى ما يصوِّرُهُ قلبُهُ ، والقلبُ قد يهتدي وقد يَضلُّ .

وقد صَنَّفَ صاحبُ « الفصوص » : كتابًا سمَّاه كتابَ الـ « هو » وَزَعَمَ بعضُهم أنَّ قولَهُ : ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾ [آل عمران : ٧] ، معناه : وما يعلمُ تأويلَ هذا الاسمِ الذي هو الـ « هو » .

هذا وإن كان مِمَّا اتفقَ المسلمون بل العقلاءُ على أنَّهُ من أبينِ الباطلِ ، فقد يظنُّ ذلك مَنْ يظنُّ من هولاءِ ، حتَّى قلتُ مرَّةً لبعضِ مَنْ قَالَ شيئًا من ذلك : لو كان هذا كما قلتَه ، لكُتبتْ الآية « وَمَا يَعلَمُ تَأويلَ » « هو » منفصلةً . ثمَّ كثيرًا ما يذكرُ بعضُ الشيوخِ أنَّه يحتجُّ على قولِ القائلِ « اللهُ » بقوله : ﴿ **قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ** ﴾ [الأنعام : ٩١] ، ويظنُّ أنَّ اللهَ أمرَ نبيَّه بأن يقولَ الاسمَ المفردَ ، وهذا غَلَطٌ بل تحريف باتفاقِ أهلِ العلمِ ، فإنَّ قولَه : ﴿ **قُلِ اللَّهُ** ﴾ معناه : اللهُ الذي أنزلَ الكتابَ الذي جاءَ به موسى ، وهو جوابٌ لقوله : ﴿ **قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١)** ﴾ [الأنعام : ٩١] ، أي : اللهُ الذي أنزلَ الكتابَ الذي جاءَ به موسى والكلام رد لقول من قال به المكذبين لرسول الله : ﴿ **مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام : ٩١] ، فقال ﴿ **مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ** ﴾ ؟ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ **قُلِ اللَّهُ** ﴾ ، أنزله ، ثُمَّ ذَرْ هؤلاءِ المكذِّبين في خوضِهم يلعبون .

وممَّا يبيِّنُ ما تقدَّمَ ، ما ذكره سيبويه وغيرُهُ من أئمةِ النحوِ :

أنَّ العربَ يحكون بالقولِ ما كان كلامًا ، لا يحكون به ما كان

قولاً [(١)] ، فالقولُ لا يُحكى به إلا كلامٌ تامٌ ، أو جملةٌ أسميةٌ ، أو جملةٌ فعليةٌ ؛ ولهذا يكْسرون « إنَّ » إذا جاءت بعد القول ، فالقولُ لا يُحكى به اسمٌ ، واللَّهُ تعالى لا يأمرُ أحداً بذكر اسمِ مُفْرَدٍ ، ولا شَرَعَ للمسلمين ذكراً باسم مفرد مجرَّد من الإيمان ، والاسمُ المجرَّدُ لا يفيدُ شيئاً من الإيمانَ باتفاق أهلِ الإسلامِ ، ولا يُؤْمَرُ به في شيءٍ من العباداتِ ، ولا في شيءٍ من المخاطبات .

ونظيرُ مَنْ اقتصرَ على الاسم المفرد : ما يُذْكَرُ أنَّ بعض الأعراب مرَّ بمؤذِّنٍ يقولُ : « **أشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً رَسُولَ الله** » - بالنَّصْبِ - فقال : ماذا يقولُ هذا ؟ هذا الاسمُ فأين الخبرُ الذي يتمُّ به الكلامُ ؟ .

وما في القرآنِ من قولـه : ﴿ **وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً** ﴿٨﴾ ﴾ [المزمل : ٨] ، وقوله : ﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى** ﴿١﴾ ﴾ [الأعلى : ١] ، وقوله : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ** ﴿١٤﴾ **وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ** ﴿١٥﴾ ﴾ [الأعلى : ١٤ ، ١٥] ، وقوله : ﴿ **فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ** ﴿٧٤﴾ ﴾ [الواقعة : ٧٤] ، ونحوِ ذلك لا يقتضي ذِكْرَهُ مُفْرَداً [(٢)] .

---

(١) يعني عندما يقولون : قول فلان ، لا يقصدون به إلا ما كان جملة تامة ليس مجرد النطق بالحروف مجموعة دون أن تفيد مراداً للمتكلم ، وكذا في المخاطبات فلو خطب الخطيب يوم الجمعة وجعل يقول : الله ... الله ... ويقول رسول الله .. رسول الله ونحو هذا لم يعد خطيباً ولم يعد ماقاله خطبة ولا فعلوا ما أوجب الله عليهم من الخطبة والإنصات لها حتى يأتي بكلام مفيد يعلم به مراد مقصود شرعاً مرغوب فيه مطلوب تحصيله ، والثناء عليه من كلمة التوحيد وإثبات الرسالة والإيمان بالآخرة ونحو ذلك .

(٢) أي : سبح ذاكراً اسم ربك العظيم ، أي : اذكره معظماً إياه .

بل في « السُّنن » أنَّه لَمَّا نزلَ قولُه : ﴿ **فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ** ﴾ ، قَالَ ﷺ : « **اجْعَلُوهَا في رُكُوعكُمْ** » ،ولما نزلَ قولُهُ:﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى** ﴾ قَالَ ﷺ : « **اجْعَلُوهَا في سُجُودكُمْ** »[١] ، فَشَرعَ لهم أن يقولوا في الركوعِ: « **سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيم** » ، وفي السجود : « **سُبْحَانَ رَبِّي الأَعْلَى** » وفي « الصحيح » أنَّه كَانَ يَقُولُ في رُكُوعه : « **سُبْحَانَ رَبِّي الْعَظِيم** » ، وفي سُجُودِه : « **سُبْحَانَ رَبِّي الأَعْلَى** » ، وهذا هو معنى قولِه : « اجعلوها في ركوعكم وسجودكم » باتفاق المسلمين .

فتسبيحُ اسمِ ربِّه الأعلى ، وذكْرُ اسم ربِّه ، ونحو ذلك ، هو بالكلام التَّام المفيد ، كما في « الصحيح » عنه ﷺ أنَّه قال : « **أَفْضَلُ الْكَلامِ بَعْدَ الْقُرْآنِ أَرْبَعٌ ،وهُنَّ من الْقُرآنِ : سُبْحَانَ اللهِ ، وَالْحَمْدُ للهِ ، وَلا إِلَهَ إِلا اللهُ ، وَاللهُ أَكْبَرُ** » .

وفي « الصحيح » عنه ﷺ أنَّه قَالَ : « **كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ : سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ** » .

وفي « الصحيحين » عنه ﷺ أنَّه قَالَ : « **مَنْ قَالَ في يَوْمِه مائَة مَرَّةٍ : لا إله إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ ، كَتَبَ اللهُ لَهُ حِرزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلكَ حَتَّى يُمْسي ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِه ، إِلا رَجُلٌ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ زَادَ عَلَيه** » [٢] .

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجه وأحمد عن عقبة بن عامر بإسناد ضعيف .

(٢) متفق عليه .

و « **مَنْ قَالَ في يَوْمه مائة مَرَّة : سُبحَانَ الله وبحَمْده ، سُبْحَانَ الله الْعَظيم ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مثْلَ زَبَد الْبَحْرِ** » (١) .

وفي « الموطَّأ » وغيره ، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قَالَ : « **أَفْضَلُ مَا قُلْتُهُ أَنَا والنَّبيُّون منْ قَبْلي : لا إِلَهَ إِلا اللّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ** » .

وفي « سُنن ابن ماجه » وغيره عنه ﷺ أنَّه قَالَ : « **أَفْضَلُ الذِّكْرِ : لا إِلَهَ إِلا اللّهُ ، وأَفْضَلُ الدُّعَاء : الْحَمدُ لله** » .

ومثلُ هذه الأحاديث كثيرةٌ في أنواعِ ما يُقالُ من الذِّكْر والدعاء ، وكذلك ما في القرآن من قوله تعالىَ : ﴿ **وَلا تَأْكُلُوا ممَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّه عَلَيْه** ﴾ الأنعام : ١٢١] ، وقوله : ﴿ **فَكُلُوا ممَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّه عَلَيْه** ﴾ [المائدة : ٤] ، إنَّما هو قولُ : باسمِ الله . وهذا جملةٌ تامَّةٌ ؛ إمَّا اسميةٌ ،على أظهرِ قولَي النُّحاة ، أو فعليةٌ ، والتقديرُ : ذبحي باسم الله ، أو أذبحُ باسمِ الله .

وكذلكَ قولُ القارئ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ فتقديرُهُ : قراءَتي باسمِ الله ، أوْ : أقْرَأُ باسمِ الله ، ومن النَّاسِ مَنْ يُضمر في مثل هذا : ابتدائي باسم الله ، أو ابتدأتُ باسمِ الله، والأولُ أحسنُ؛ لأنَّ الفعلَ كلَّه مفعولٌ باسمِ الله ، ليس مجردَ ابتدائه .

كما أظهرَ المضمرَ في قوله : ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** ① ﴾ [العلق : ١] ، وفي قوله : ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا** ﴾ [هود : ٤١] ،

---

(١) متفقٌ عليه .

وفي قول النبيِّ ﷺ : « **مَنْ كانَ ذَبحَ قَبلَ الصَّلاة فَلْيذْبحْ مكانها أُخْرى ، وَمَنْ لَمْ يكُنْ ذَبحَ فَلْيَذْبحْ باسمِ الله** » [١] . [٢] .

ومنْ هذا قولُ النَّبيِّ ﷺ في الحديث الصحيح لربيبه عُمرَ بن أبي سَلَمةَ : « **يا غُلامُ سَمِّ اللهَ ، وكُلْ بيمينكَ ، وكُلْ ممَّا يليكَ** » [٣] ، فالمرادُ أن يقولَ : باسمِ الله ، ليس المرادُ أن يذكرَ الاسمَ مُجرَّدًا .

وكذلكَ قولُهُ ﷺ في الحديث الصحيح لعَديِّ بن حاتم رضي الله عنه : « **إذا أرسَلْتَ كلْبَكَ المُعلَّم ، وذكَرْتَ اسْمَ الله ، فكُلْ** » [٤] .

وكذلكَ قولُهُ ﷺ : « **إذا دَخلَ الرَّجُلُ منزلَهُ فذكَرَ اسْمَ الله عنْدَ دُخُوله ، وعنْدَ خُرُوجه ، وعنْدَ طَعامه ، قالَ الشَّيْطانُ : لا مَبيتَ لكُمْ ولا عَشاءَ** » [٥] ، وأمثالُ ذلك كثيرٌ .

ما شرعه الله من الذِّكر إنما هو كلامٌ تامٌّ :

وكذلكَ ما شُرعَ للمسلمين في صَلاتهم وأَذانهم وحَجِّهم وأعيادهم منْ ذكْرِ الله تعالىَ ، إنَّما هو بالجملةِ التَّامَّةِ ، كقولِ المؤذِّن : اللهُ أكْبرُ ، اللهُ

---

(١) متفقٌ عليه ، من حديث جُنْدُب رضي الله عنه .

(٢) فلو قال : « الله » فقط لم يأت بما أمر حتى يقول : « بسم الله أو الله أكبر » ، وقد قيل الأولى تقديم الجار والمجرور الذي هو « بسم الله » لأن في تقديم المتعلق إفادة للحصر ، وأن الأولى أن يكون التقدير بسم الله أذبح لأن الأصل في العمل للأفعال .

(٣) متفقٌ عليه من حديث عُمرَ بن أبي سَلَمةَ .

(٤) متفقٌ عليه : من حديث أبي ثعلبة رضي الله عنه .

(٥) أخرجه مسلم في « صحيحه » من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

أكْبَرُ ، أشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ، أشهدُ أنَّ محمَّداً رسولُ الله ، وقول المصلِّي : اللهُ أكبر ، سبحان ربي العظيمِ، سبحان ربي الأعلى ، سَمِعَ اللهُ لمنْ حَمِدَهُ ، ربَّنا ولك الحمدُ، التحيَّاتُ لله ،وقول النبي ﷺ : لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيك، وأمثال ذلك . فجميعُ ما شَرَعَهُ اللهُ من الذِّكْرِ ، إنَّما هو كلامٌ تامٌّ ، لا اسمٌ مفردٌ ، لا مُظْهَرٌ ولا مُضْمَرٌ . وهذا هو الذي يُسَمَّى في اللُّغَة : كلمةً ، كقوله : « **كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ** » [١] .

وقوله [٢] : **أفْضَلُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شاعِرٌ : كَلِمَةُ لَبِيدٍ :**

[**ألا كُلُّ شَيءٍ مَا خَلا اللّهَ بَاطِلُ**]

ومنه قولُهُ تعالى: ﴿ **كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا** ﴾ [الكهف :٥] وقولُهُ :﴿ **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً** ﴾[الأنعام :١١٥] .

وأمثَالُ ذلك مِمَّا استُعملَ فيه لفظُ : « الكلمة » من الكتاب والسُّنَّة ، بل وسائر كلامِ العربِ ، فإنَّما يُرَادُ به الجملةُ التَّامَّةُ ، كما كانوا يستعلمون الحرفَ في الاسمِ ، فيقولون: هذا حرفٌ غريبٌ ؛ أي : لفظُ الاسمِ غريبٌ .

وقَسَّمَ سيبويه الكلامَ إلى : اسمٍ وفعلٍ وحَرْفٍ ، جاءَ لمعنًى ليس باسمٍ ولا فعلٍ ، وكُلٌّ من هذه الأقسام يُسَمَّى حرفًا ، لكنَّ خاصَّةَ الثالثِ : أنَّه حرفٌ جَاءَ لمعنًى ليس باسمٍ ولا فعلٍ .

وسَمَّى حروفَ الهجاءِ باسمِ الحرف ، وهي أسماءٌ ، ولفظُ الحرف يتناولُ هذه الأسماءَ وغيرها ، كما قَالَ النَّبيُّ ﷺ : « **مَنْ قَرأ الْقُرْآنَ**

---

(١) **متفقٌ عليه ، من حديث أبي هريرة ﷺ** .

(٢) **متفقٌ عليه : من حديث أبي هريرة ﷺ ، بلفظ : « أَصْدَقُ »** .

فَأَعْرَبَهُ ، فَلَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ ، أَمَا إِنِّي لا أَقُولُ : ﴿ الٓمٓ ﴾ حَرْفٌ ، وَلَكِنْ : أَلِفٌ حَرْفٌ ، وَلامٌ حَرْفٌ ، وَمِيمٌ حَرْفٌ » [(١)] ، وقد سَأَلَ الخليلُ بن أحمدَ أصحابَه عن النُّطْقِ بحرفِ الزاي من زيدٍ ؟ ، فقالوا : « زاي » فقال : جئتم بالاسمِ ، وإنَّما الحرف : « زَ » .

ثمَّ إنَّ النُّحَاةَ اصطلحوا على أنَّ هذا المُسمَّى في اللغةِ بالحرفِ، يُسَمَّى : كلمةً ، وأنَّ لفظَ الحرفِ يُخَصُّ لما جاء لمعنى ليس باسمٍ ولا حرفٍ ، كحروفِ الجرِّ ونحوها .

وأمَّا ألفاظُ حروفِ الهجاءِ فَيُعَبَّرُ تارةً بالحرفِ عن نفسِ الحرفِ من اللفظِ ، وتارةً باسمِ ذلك الحرفِ . ولما غَلَبَ هذا الاصطلاحُ صارَ يتوهَّمُ مَنْ اعْتَادَهُ أنَّه هكذا في لغةِ العربِ ، ومنهم مَنْ يجعلُ لفظَ : « الكلمة » في اللغةِ لفظًا مشتركًا بين الاسمِ مثلاً ، وبين الجملةِ ، ولا يُعرفُ في صريحِ اللغةِ من لفظِ « الكلمة » إلا الجملةُ التَّامَّةُ .

والمقصودُ هنا : أنَّ المشروعَ في ذِكْرِ الله سبحانه هو ذِكْرُهُ بجملةٍ تامَّةٍ ، وهو المسمَّى بالكلامِ ، والواحدُ منه بالكلمةِ ، وهو الذي ينفعُ القلوبَ ، ويحصلُ به الثوابُ والأجرُ ، ويجذبُ القلوبَ إلى اللهِ ومعرفتِهِ ، ومحبَّتِهِ

---

(١) أخرجه الترمذيُّ في كتاب فضائل القرآن ، باب : ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن ما له من الأجر ، عن عبد الله بن مسعود عن النبيِّ ﷺ : « مَنْ قَرأَ حَرْفًا من كتَابِ الله ، فَلَهُ به حَسَنَةٌ ، وَالْحَسَنَةُ بعَشْرِ أمْثَالِهَا ، لا أَقُولُ : ﴿ الٓمٓ ﴾ حَرْفٌ ، ولَكِنْ : ألفٌ حَرْفٌ ، ولامٌ حَرْفٌ ، وميمٌ حَرْفٌ » ، وقد اختلف في رفعه ووقفه اختلافًا كثيرًا ، وصححه مرفوعًا غير واحد ، وأعله بالوقف آخرون ، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ .

وخشيته ، وغير ذلك من المطالبِ العالية ، والمقاصد السامية .

وأمَّا الاقتصارُ على الاسمِ المفرد مُظْهَرًا أو مُضْمَرًا ، فلا أصلَ له ، فضلاً عن أن يكونَ من ذِكْرِ الخاصَّة والعارفين ، بل هو وسيلةٌ إلى أنْواعٍ من البدعِ والضلالات [١] ، وذَريعةٌ إلى تصوراتٍ وأحوالٍ فاسدةٍ من أحوالِ أهلِ الإلحادِ وأهلِ الاتحادِ ، كما قد بُسِطَ الكلامُ عليه في غيرِ هذا الموضعِ .

وجماع الدين أصلان :

الأول : أن لا نَعْبُدَ إلا اللهَ .

الثاني : ولا نَعْبُدُ إلا بما شَرَعَ ، لا نَعْبدُهُ بالبِدَعِ .

كما قَالَ تعالىَ : ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** (١١٠) ﴾ [الكهف : ١١٠] .

وذلك تحقيقُ الشهادتين ، شهادة أن لا إله إلا اللهُ ، وشهادة أنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ ، **ففي الأولى** : أنْ لا نعبدُ إلا إيَّاهُ .

وفي الثانية: أنَّ محمَّدًا هو رسولُهُ المبلِّغُ عنه ، فعلينا أن نصدِّقَ خَبَرَهُ، ونُطيعَ أمْرَهُ ، وقد بيَّنَ ﷺ لنا ما نعبدُ اللهَ به ، ونَهَانَا عن مُحْدَثَات الأمورِ ،

---

(١) **فالذكر باللفظ المضمر أو المظهر بدعة حقيقية لأنه ليس أصل شرعي ، وهذا من تأصيل الضلال أما ترتيب المشروع أصلاً ترتيبًا لم يرد به الشرع أو ورد بخلافه فهو من البدع الإضافية كأن يأمر بصلاة مائة ركعة كل سبت أو يجعل التسبيح عقيب الصلاة مائة مرة بدلاً من ثلاث وثلاثين وكذا اجتماع طائفة في وقت معين لتتلو أورادًا وأذكارًا مخصوصة كما يفعله من يفعله من الصوفية في صلواتهم ومواجيدهم ، فمثل هذا من البدع الإضافية ، وما ورد مرتبًا في الشرع رُتب بحسب وروده ولا يجوز أن يتعبد بترتيب لم يرتبه الشرع .**

وأخبرَ أنَّها ضلالةٌ (١)، قَالَ تَعالىَ : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [البقرة : ١١٢] .

وكما أنَّنا مأمورون أن لا نخافَ إلا الله ، ولا نتوكَّلَ إلا على الله ، ولا نرغبَ إلا إلى الله ، ولا نستعينَ إلا بالله ، وأن لا تكونَ عبادتُنا إلا لله ، فكذلكَ نحن مأمورونَ أن نَتَّبعَ الرسُولَ ونطيعَهُ ونَتأسَّى به ﷺ ، فالحلالُ ما حلَّلَهُ ، والحرامُ ما حَرَّمَهُ ، والدِّينُ ما شَرَعَهُ ، قَالَ تعالىَ : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [التوبة : ٥٩] .

فجعلَ الإيتاءَ لله وللرسول ﷺ ، كما قَالَ : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [الحشر : ٧] .

وجَعَلَ التوكُّلَ على الله وحَدَهُ بقولِه : ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾ [التوبة : ٥٩] ، ولم يقل : ورسُولُهُ ؛ كما قَالَ في وَصْفِ الصحابة ﷺ في الآية الأخرى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [آل عمران : ١٧٣] ، ومثلُه قولُهُ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأنفال : ٦٤] ، أي : حَسْبُكَ وحَسْبُ المؤمنين ، كَمَا قَالَ : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر : ٣٦] ، ثمَّ قَالَ : ﴿ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة : ٥٩] .

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد ، من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه .

فجعَلَ الإيتاءَ للهِ وللرسولِ ﷺ، وقدَّمَ ذِكْرَ الفَضْلِ لله ؛ لأنَّ الفضلَ بيدِ اللهِ يؤتيه مَنْ يشاءُ ، واللهُ ذو الفضلِ العظيمِ ، ولهُ الفضلُ على رسولِهِ وعلى المؤمنين ، وقَالَ : ﴿ **إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ** ﴾ [التوبة : ٥٩] ، فجعل الرغبةَ إلى اللهِ وَحْدَهُ،كما في قولِهِ :﴿ **فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨)** ﴾ [الشرح : ٧ ، ٨] .

وقَالَ النَّبيُّ ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما : « **إذَا سألْتَ فاسْألِ اللهَ ، وإذَا استَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ باللهِ** » ، والقرآنُ يدلُّ على مثلِ هذا في غيرِ موضعٍ .

فَجَعَلَ العبادةَ والخشيةَ والتقوى للهِ ، وجَعَلَ الطاعةَ والمحبَّةَ للهِ ورسولِهِ ، كما في قولِ نوحٍ عليه السلام : ﴿ **أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣)** ﴾ .

[نوح : ٣] .

وقوله تعالى : ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢)** ﴾ [النور : ٥٢] وأمثال ذلك .

فالرُّسُلُ أُمروا بعبادتِهِ وحدَهُ ، والرغبةِ إليه ، والتوكُّلِ عليه وطاعتِه ، والطاعةِ لهم ، فأضلَّ الشيطانُ النصارى وأشباهَهُم ، فأشركوا باللهِ وعَصَوْا الرسولَ ، فاتخذوا أحبارَهم، ورهبانَهم أرباباً من دون اللهِ والمسيحَ ابنَ مريمَ ، فجعلوا يرغبون إليهم ويتوكَّلُون عليهم،ويسألونهم مع معصيتِهِمْ لأمرِهم ، ومخالفتِهِمْ لِسُنَّتِهِم .

وهدى اللهُ المؤمنين المخلصين للهِ ، أهلَ الصراطِ المستقيمِ ، الذين عرفوا الحقَّ واتَّبعوه ، فلم يكونوا من المغضوبِ عليهم ولا من الضَّالِّين ، فأخلَصُوا دينَهُم للهِ ، وأسلموا وجوهَهم للهِ ، وأنابوا إلى ربِّهم ، وأحبُّوه ورَجَوه ، وخافوه وسألوه ، ورغبوا إليه ، وفَوَّضوا أمورَهم إليه ، وتوكَّلوا عليه ،

وأطاعوا رُسُلَهُ ، وَعزَّرُوهم (١) ، ووقَّروهم ، وأحبوهم ووالَوهم ، واتَّبعوهم واقتفَوا آثارَهم ، واهتدوا بمنارِهم .

وذلك هوَ دينُ الإسلامِ الذي بعثَ اللهُ به الأوَّلين والآخرين من الرُّسُلِ ، وهو الدِّينُ الذي لا يقبلُ اللهُ من أحدٍ دينًا إلا إيَّاه ، وهو حقيقةُ العبادةِ لربِّ العالمين .

فنسألُ اللهَ العظيمَ أن يُثبِّتَنَا عليه ، ويُكمِّلَه لنا ، ويُميتَنَا عليه ، وسائرَ إخوانِنَا المسلمين .

والحمدُ للهِ وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآلِهِ وصحبِهِ وسلَّم .

الشيخ الدكتور

ياسر برهامي

حفظه الله

---

(١) عزَّروهم : عظَّموهم .

فهرس

رقم الصفحة

